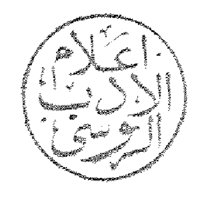
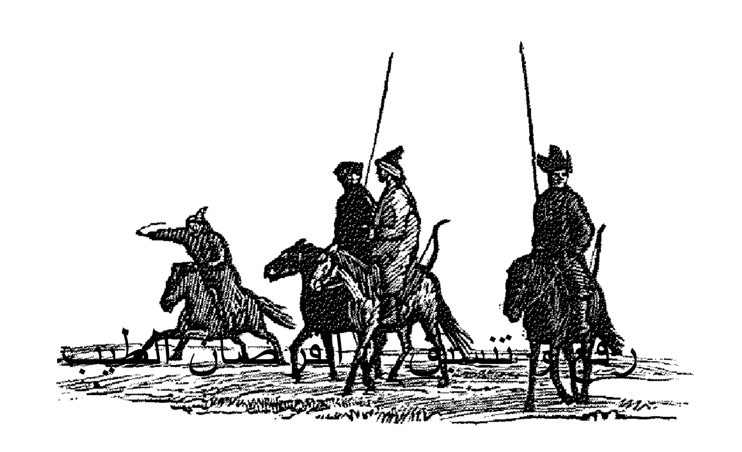


الكسندر بوشكين

ابنة الآمر



الشاعر الروسى العظيم الكسندر بوشكين (١٧٩٩ـ١٨٣٧) مبدع الشعر الفنانى الرائع ، ومؤلف الرواية الشعرية «يفغينى اونيغين» ، والدراما التاريخية «بوريس غدونوف» ، والقصائد الرومانسية ، والمؤلفات الدرامية الشعرية كان فى الوقت ذاته مجودا بارزا فى النثر الفنى . وقد دبجت براعته اعمالا شهيرة من مثل «قصص بيلكين» ، و«ملكة البستوني» و«دوبروفسكى» .

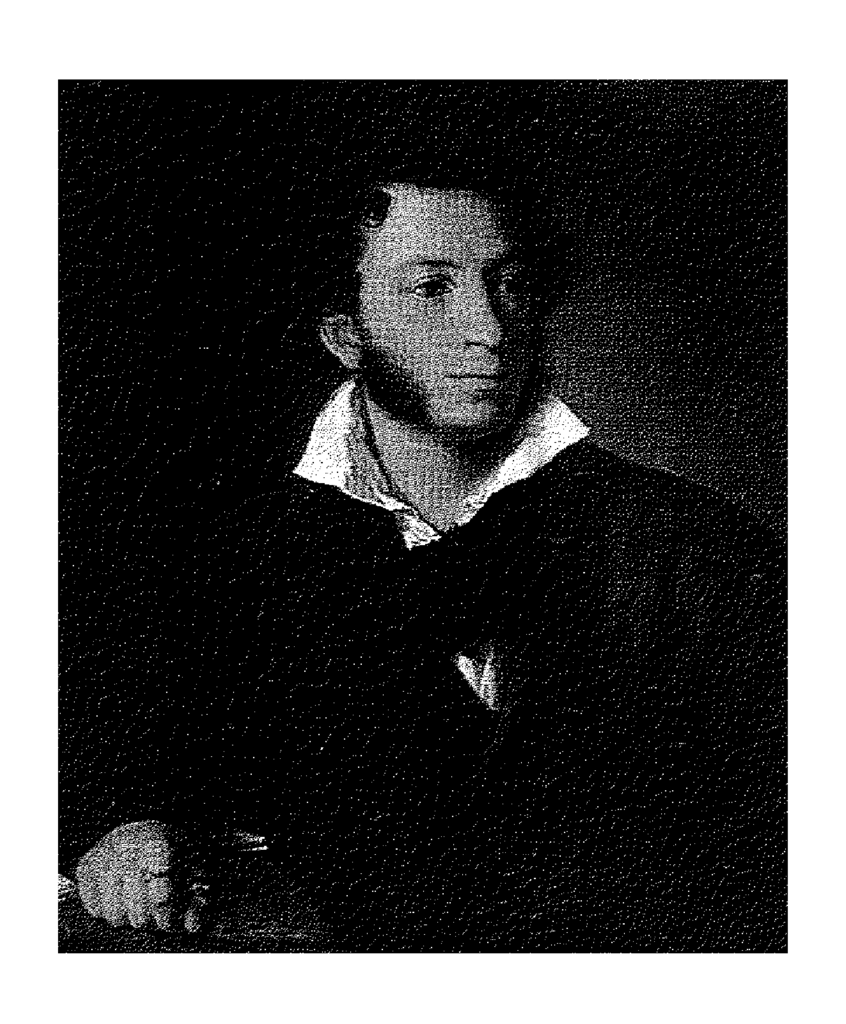
وتحتل «ابنة الآمر» (١٨٣٦) مكانا خاصا بين مؤلفات بوشكين النثرية . وقد قيّم الناقد الديموقراطى الروسى بيلينسكى معاصر بوشكين هذا الكتاب بحماس فكتب : «ابنة الآمر» شىء يضاهى «يفغينى اونيغين» فى النثر . والشاعر يصور فيها اخلاقيات المجتمع الروسى فى عهد القيصرة يكاترينا الثانية . والكثير من الصور معجزة الكمال فى صدقها ، وحقيقة محتواها ، وبراعة تكوينها» .


اعلام
الادب
الروسي

اهداءات ٢٠٠٤

أ.د / رمزى زكى

القاهرة

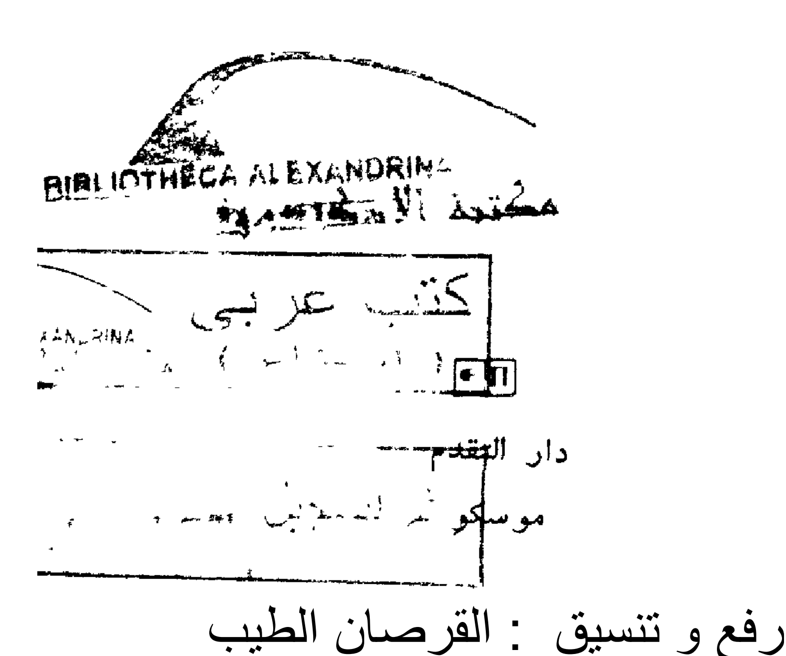


رفع و تنسيق : القرصان الطيب

الكسندر بوشكين

ابنة الآمر

(مختارات نثرية)



دار التقدم
موسكو

ترجمة غائب طعمة فرمان

АЛЕКСАНДР ПУШКИН

КАПИТАНСКАЯ ДОЧКА

(избранная проза)

На арабском языке

$П \frac{70301-243}{014(01)-74} 678-73$

بوشكين *

يبدو ان الكتابة عنه تصعب ، اكثر ما تصعب ، على انسان يسهم ، ولو بقدر متواضع ، فى الفن الذى جعل له بعبقريته قوة سلطان على قلـوب الناس لا تفنى حقا . اذ ما أرهب ان تقال هنا ولو كلمة واحدة غير صحيحة ، لا سيما وان كثرة من الكلمات الرائعة قد قيلت عنه جديرة باسمه وبمأثرته من قبل جميع اولئك الذين يشكلون معه الصيت العالمى لـلادب الروسى .

الا ان لكل واحد منا بوشكينه الذى يظل واحدا للجميع . انه يدخل حياتنا منذ بدايتها ولا يفارقنا حتى النهاية .

---

* من مقالة للشـاعر السوفييتى البـارز الكسندر تفاردوفسكى مكرسـة لذكرى مرور ١٥٠ عاما على ميلاد الكسندر بوشكين . **(الناشر .)**

لقد عرفت بوشكين فى تلك السن التى يلذ لك فيها ان تسمع أكثر مما يلذ لك ان تقرأ بنفسك . وبالسماع عرفت قصيدته «حكاية عن القيصر سلطان» و«موقعة بولتافا» من قصيدته «بولتافا» ، و«حلم تاتيانا» من الرواية الشعريـــة «يفغينى اونيغين» ، و«العريس» . الا ان «ابنة الآمر» كانت اول كتاب قرأته فى حياتى . وانا اتذكر شكل الكتاب ، ورائحته ، واتذكر مبلغ سعادتى من اكتشافى لهذه القصة بنفسى ، ولم أكن أعرفها بالسماع .

لقد استولت علىّ ، فكنت اطيل الجلوس عند نافذة البيت حتى حلول الظلام ، وعندمـــا وصلت الى وصف زوبعة الثلج فى سهب اورنبورغ تراءى لى ان الثلج راح يتساقط وراء النافذة ، وقد صـــار ذلك انطباعا لم ينمح حتى الآن ، وكأنه قوة سحرية منبعثة من صفحة بوشكين هذه . ومنذ ذلكَ المســاء صرت قارئ كتب ، وانا أعتز اعتزازا لا حد له من اننى مدين بذلك لبوشكين . ومن ذا الذى لا يدين له بفرحـــــة الاهتداء ، منذ فجر حياته ، الى الينبوع الذى يرشف منه فيما بعد طوال الحياة ! ولكن اذا كان بوشكين يأتى الينا منذ الطفولة ، فنحن لا نصل اليه ، بصورة حقيقية ، الا مع مرور الزمن .

لقد ظللت انا زمنا طويلا ازعم لنفسى اننى اعرف

بوشكين : فانا قد قرأته واعدت قراءته فى الطفولة وفى الصبا ، و«درسته» وفق جميع اصول تدريس الادب فى المعاهد العالية ، وقرأت عنه عددا غير قليل من الكتب والمقالات ، وانا اتحدث عنه مع اصدقائى ، متباهيا بالنفاذ الى دقائق صنعته . فماذا أكثر من ذاك ؟

ولكن فى ايام الحرب الوطنية فقط ، فى ايام الألم الحاد الذى لا ينسى على ارض الوطن ، فى ايام ولادة الرجولة القوية فى وجه التهديد الفظيع لكل ما هو أعز شيء لنا ، فى تلك الايام فقط عرفت ، شأنى ، بالتأكيد ، شأن الكثيرين من ابناء جيلى ، اننى حتى الآن لم اكن اعرف بوشكين . لقد احسست فجأة ، وبملء جوانحى ، بقوة الكلمة البوشكينية ، تلك القوة التى لا تضارع . ورنت فى نفسى وكأن ذلك لاول مرة ، اللازمات المفعمة بالعزة الأبية فى شعره الغنائى الوطنى ، وكأننى لم أكن اعرفها قبل الآن . وبغبطة ناشئة عن الشعور باكتساب مفاجئ ، اكتشفت فى مجلد رث صغير اخذته من مكتبة سيارة ، الجمال السامى للمأثورات الخالدة للفكر والشعور ، للطبيعة الحبيبة ، لارض الوطن ، بمدنها وقراها ، بحقولها ومياهها ، بالماضى العريق الصارم ، بالحكايات والاغانى . وكل ذلك تحول الى صورة ليومنا هذا ،

لان البهجة لم يثرها هذا البيت الباهر او ذاك ، بل لان كل ذلك هو الوطن ، كل ذلك ملكى غير القابل للانتزاع ، العزة والشرف ، العقيدة والمجد ، ولا يمكن ان تكون على الارض قوى قادرة على إنكار ذلك .

... ان القارئ لا يشعر بجو البساطة والوثوق الحميم والطلاقة واليسر الذى يشعر به عند بوشكين الا مع عدد قليل من أحسن فنانى الكلمة الرائعين ، وحتى هؤلاء القلة الذين لهم القدرة على اجتذاب القارئ مدينون الى مؤسس الأدب الروسى .

يحس القارئ ، وهو يطالع بوشكين ، بانسانية محدثه البسيطة ، ولا يشعر أبدا بالضيق بسبب قربه من عبقرى . تلك هى عبقرية بوشكين الوضاءة ، الانسانية ، التى هى فى هذه الملامح نموذج لشخصية منسجمة لامعة . يقول الديموقراطى الثورى الروسى تشيرنيشيفسكى ان «العبقرية هى عقل قد تطور بشكل سليم تماما» وأرانى مدفوعا الى تطبيق هذه الملاحظة على نباهة بوشكين وعافيته ، ووضوحه ، وطبيعيته العجيبة .

لقد قال بيلينسكي ان بوشكين ينتمى الى ظواهر حية ابدا ، ومتحركة ، ولا تتوقف عند النقطة التى ادركها فيها الموت ، بل تواصل التطور فى وعى المجتمع .

ولا ريب فى ان الظاهـــرة التى تسمى بوشكين ليست فقط قد تطورت خلال أكثر من قرن ، كمـــا يتمثلها وعى المجتمع فى جانبها هذا او ذاك ، بل وقد نمت فى ابعادها . ويكفى ان نذكر حتى هذا الظـــرف البسيط ، وهو ان عدد الجمهور القارئ فى حيـــاة بوشكين ، بل وعدد سكان البلاد ككل كان اقل مما فى ايامنا هذه بما لا يقاس ، دع عنك ان اسم وكلمة بوشكين قد تجاوزا منذ زمن بعيد حدود وطنه .

وبوشكين بكليته ، وكامل رحابة تطوره التاريخى وتناميه مرتبطان ارتباطا متلاحما بأعظم اللحظـــات التاريخية فى حياة الشعب .

ونحن نفسر ظهور بوشكين بالنهوض الروحـــى للشعب بأسره ، ذلك النهوض الذى اعقب انتصـــار الشعب فى الحرب الوطنية عام ١٨١٢ . والقرن التاسع عشر كله ومستهل القرن العشرين يظهران ، وهمـــا يفتحان فصلا وراء فصل من تاريخهما ، كيف اتسع بوشكين واكتسب اهمية متزايدة فى الحياة باطراد فى النضال المستحكم بين طبقات المجتمع المتناقضة فى المراحل المختلفة لتطوره حتى مجىء اكتوبر العظيم .

ان بوشكين مغنى الحرية ، وفاضح الطغـــاة ، والوطني العظيم ، والمبشر بالمستقبل الوضاء لشعبه كان معنا فى مسيرتنا نحو هذا المستقبل .

... فليتردد صوته فى كل العالم ، صوت شاعر بلادنا الخالد . وليكن عيد ميلاده مهرجانا حقيقيـــا للشعر ، الذى هو مظهر غير اعتيادى من مظاهر روح الانسانية ، وللقوة التى تخلق المعجزات ، وتخـــدم مقاصد الانسانية النبيلة . وليكن مهرجان الشعـــر المجيد هذا تأمينا لمنجزاته الجديدة اللائقة بذكرى مواطننا العظيم .

١٩٤٩

قصص المرحوم
ايفان بتروفيتش بيلكين

السيدة بروستاكوفا :
انه ، يا عزيزى ، صياد حكايات
منذنعومة اظفاره .

سكوتينين :
يعجبنى ميتروفان .

(من كوميديا فونفيزين
«شاب نصف متعلم» .)

من الناشر

حين شرعنا فى السعى لنشر قصص ا . ب . بيلكين التى نقدمها للجمهور اليوم اردنا ان نضم اليها ، على الاقل ، نبذة قصيرة عن حياة المؤلف المرحوم ، فنُرضى بذلك جزءا من الفضول المشروع لمحبى الادب القومى . ولهذا الغرض اتصلنا بماريا الكسييفنا ترافيلينا قريبة ايفان بتروفيتش بيلكين قرابة دانية ، ووريثته ، الا انها ، مع الأسف ، لم تستطع ان تمدنا باية اخبار عنه ، لانها لم تكن متعرفة على المرحوم قط . ونصحتنا بان نَرفع هذا الامر الى رجل معتبر كان صديقا لايفان بتروفيتش . وأخذنا بهذه النصيحة ، وتلقينا جوابا على

رسالتنا هذا الرد المطلوب . ونحن ننشره دون اى تعديل او تعليق كأثر نفيس لنموذج نبيل للـــرأى والصداقة المؤثرة ، وفى الوقت ذاته ، كترجمة لحياته كافية كليا .

سيدى المحترم ن ... !

فى ٢٣ من هذا الشهر كان لى الشرف فى ان اتلقى رسالتكم المحترمة المؤرخة فى ١٥ من الشهر ذاته ، وفيها تعربون عن رغبتكم فى الحصول على معلومات مفصلة عن تاريخ ميلاد صديقى الوفى وجارى فى الضيعة المرحوم ايفـــان بتروفيتش بيلكين وعن وفاتـــه ، وخدمته ، وظروفه العائلية ، وحتى عن اشغاله وخلقه . وها انا البى رغبتكم بسرور عظيم ، وابعث لكم ، يا سيـــدى المحترم ، كل ما استطيع ان اتذكره مـــن احاديثه ، وحتى من ملاحظاتى الخاصة .

ولد ايفان بتروفيتش بيلكين عام ١٧٩٨ فى قرية غوريوخينو من ابوين نزيهين نبيلين . كان ابـــوه النقيب المرحوم بيتر ايفانوفيتش قد تزوج الآنسة بيلاغيا غفريلوفنا من عائلة ترافيلين . ولم يكن غنيا ، بل متوسط الحال ، وصاحب فطنـــة كبيرة فى ادارة شؤونه . وقد تلقى ابنهما تعليمه الابتدائى على مقرىء ريفى . وانا اعتقد انه مدين الى هذا الرجل المحترم بولعه فى القراءة والاطلاع فى حقل الادب الروسى . فى

عام ١٨١٥ دخل الخدمة فى فوج خـــاص للمشاة (لا اتذكر رقمه) . وبقى فيه حتى عـــام ١٨٢٣ ، حتى اضطرته وفاة والديه التى وقعت فى زمن واحد تقريبا الى الاستقالة ، والسفر الى قرية غوريوخينو ، الضيعة التى ورثها .

شرع ايفان بتروفيتش يدير الضيعة ، ثم ما لبث حتى أهملها بسبب من انعدام خبرته ، ورقة قلبـه ، وأرخى النظام الصارم الذى اقامه المرحوم والده . عزل العمدة المجتهد والحازم الكفُو ّ الذى كان الفلاحون (على عادتهم) غير راضين عنه ، وعهد بادارة القريـــة الى مديرة منزلـــه العجوز التى كسبت ثقته بفن روايـــة الاقاصيص . وكانت هذه العجوز البلهـاء لا تميز أبدا بين ورقة من فئة خمسة وعشرين روبلا ، وبين ورقة من فئة خمسين روبلا . وكان الفلاحون لا يهابونهـــا البتة ، فهى بالنسبة لهم ليست الا عرّابة ؛ أخذ العمدة المنتخب من قبلهم يتساهل امامهم ويكيد معهم المكائد حتى اضطر ايفان بتروفيتش الى الغاء السخرة ، ووضع ضريبة عينية معتدلة جدا ؛ ولكن الفلاحين فى هذا الحال أيضا استغلوا ضعفه ، واستدروا لأنفسهم فى السنـــة الاولى تسهيلا مقصودا ، وفى السنوات التاليـــة دفعوا ثلثى الضريبة العينية جوزا ، واعنابا برية ، وما شاكل ذلك ، وحتى هذه لم تكن بالكمية المطلوبة .

ولما كنت صديقا للمرحوم والد ايفان بتروفيتش فقد رأيت من واجبى ان اسدى له النصح ، واقترحت عليه غير مرة ان يعيد النظام القديم الذى اخل به . ولهذه الغاية ذهبت اليه ذات مـــرة ، وطلبت دفاتـــر الحسابات ، ودعوت العمدة المحتال ، وشرعت انظر فى هذه الدفاتر بحضور ايفـان بتروفيتش . أخذ المالك الشاب فى بادئ الامر يتابعنى باهتمام بالغ ودأب ، ولكن حين تبيـّن من الحسابات ان عـــــدد الفلاحين فى السنتين الاخيرتين قد ازداد ، بينما نقص عدد ما فى المزرعـــة من دواجن ومواش عن عمد ، اكتفى ايفان بتروفيتش بالدليل الاول هذا ، وبعده لم يعد يسمعنى ، وفى اللحظة التى أسلمت فيها العمدة المحتال الى حالة قصـــوى من الارتبـــاك باستقصاءاتى واستفساراتى الدقيقة الصارمـــة ، واجبرته على السكوت المطبق ، سمعت ايفان بتروفيتش ، ويالعظيم حزنى ، يشخر على مقعده بشدة . ومنذ ذلك الحين كففت عن التدخل فى ادارة شؤونه الاقتصادية وسلمت امره (وهو ايضا) لحكم العلىّ القدير .

الا ان هذا الامر لم يفسد صلاتنا الودية قط . فانا فى الوقت الذى كنت اشفق فيه على وهنه واهماله المدمر الذى هو صفة مشتركة لاعياننا الشبان ، كنت احب ايفان بتروفيتش حبـــا صادقا ، وكيف لا يحب

المرء فتى دمث الاخلاق نقى السريرة . كما كان ايفان بتروفيتش ، من جانبه ، يحترم تقدمي فى السن ويميل الىّ بقلبه . كان يلتقى بى كل يوم تقريبا حتى آخر ايامه ، مقدرا حديثى البسيط ، رغم ان احدنـــا فى الغالب الاعم لم يكن يشابه الآخر لا فى العادات ولا فى طريقة التفكير ، ولا فى الخلق .

عاش ايفان بتروفيتش عيشة مقتصدة للغاية ، واعرض عن اى نوع من الاسراف ؛ ولم يصادف قط ان رأيته ثملا (وهو ما يمكن ان يعتبر اعجوبة فريدة فى ناحيتنا) ؛ وكان له شغف عظيم بالنساء ، الا ان الحياء الذى فيه حياء فتاة حقا * .

ترك ايفان بتروفيتش ، الى جانب القصص التى تفضلتم بذكرها فى رسالتكـــم ، عددا من المخطوطات احتفظ انا ببعض منها ، واستخدمت مديرة منزلـــه بعضها الآخر فى شتى الاغراض المنزليـــة . وعلى هذه الصورة الصقت جميـــع نوافذ داره فى الشتاء الماضى بالجزء الاول من روايته التى تركها غير كاملة . ويبدو ان قصصه المذكورة اعلاه كانت تجربته الاولى . وهى ،

---

* تلى ذلك نادرة اغفلناها معتبرين اياهـــا زائدة ، ونحن نطمئن القارئ على انها خالية من اى شىء يسىء الى ذكرى ايفان بتروفيتش بيلكين . **ملاحظة بوشكين** .

حسب ما روى ايفان بتروفيتش حقيقية فى جزئهـــا الاكبر ، وقد سمعها من اشخاص مختلفين * . الا ان الاسماء الواردة فيها قد اختلقها بنفسه فى كليتهـــا تقريبـــا امـــا اسماء القرى والدساكر فمأخوذة من منطقتنا ، ولهذا السبب جاء ذكر قريتى فى موضع فيها . وليس ذلك تعمدا للاساءة ، بل لقلـــة فى الخيال لا غير .

مـــرض ايفـــان بتروفيتش فى خريف ١٨٢٨ بالبُرَداء التى تحولت الى حمى ، ووافته المنية رغم الجهود الجهيدة التى بذلها طبيب قضائنا ، وهو رجل بارع جدا لا سيما فى علاج الامراض المزمنة كتصلب البشرة ، ومـا اليهـــا . وقد قضى نحبه بين يدىّ فى الثلاثين من عمره ، ودفن فى كنيسة قرية غوريوخينو بالقرب من مثوى ابويه .

---

* فى الواقع ان المؤلف كتب بخط يده على كل قصة فى المخطوطة : سمعتها عن **فلان** (الرتبة او اللقب والحروف الاولى من الاســم والعائلـــة) . ونحن نوردهـــا للمحققين المستطلعين : «ناظر المحطة» رواها له الموظف من الدرجة التاسعة أ . غ . ن . و«الطلقـــة» المقدم ى . ل . ب . و«صانع التوابيت» الوكيل ب . ف . و«عاصفة ثلجيـــة» و«ابنة السيد-الفلاحة» روتهما الآنسة ك . ى . ت . **ملاحظة بوشكين** .

كان ايفان بتروفيتش ربع القامة ، رمادىّ العينين ، اشقر الشعر ، مستقيم الانف ، ابيض الوجه نحيفه .

ذلك ، يا سيدى المحترم ، كل ما استطيع ان اتذكره عن طراز حياة المرحوم جارى وصديقى واشغاله ، وخلقه وهيئته . ولكن اذا رغبتم فى الاقتباس من رسالتى ارجو ضارعا الاّ تشيروا الى اسمى ، ذلك لانه رغم احترامى الشديد وحبى للمؤلفين أجد الانضواء الى هذه الرتبة امرا زائدا ، وفى سنى هذه غير لائق . وتقبلوا احترامى الصادق .

١٦ تشرين الثانى ١٨٣٠ .
قرية نينارادفو

ونحن نعبر عن أعمق الشكر لصديق المؤلف الفاضل على المعلومات التى وافانا بها معتبرين من الواجب احترام رغبته ، ونأمل ان يقدر الجمهور ما فيها من نَزاهة ونقاء سريرة .

أ . ب .

الطلقة

تبادلنا الطلقات .
(من قصيدة «حفلة الرقص»
لبارتينسى .)

اقسمت ان ارميه وفق اصول المبارزة
(ما زال مستحقا لى بطلقة) .
(من قصة «**امسية فى معسكر**
موقت» لبستدجيف-ميرلينسكى .)

١

كنـــا نعسكر فى بلدة ن ... وحيـــــاة الضابط معروفة . فى الصباح دراسة وركوب الخيل ، وغداء على مائدة آمر الفوج او فى حانة يهودى ، وفى المساء شراب وقمـــار . ولم تكن فى بلدة ن ... دار واحدة مفتوحة للضيوف ، ولا ايـــة آنسة فى سن الزواج ، فكنا نجتمع بعضنا عند بعض ، حيث كنـــا لا نرى شيئا غير حللنا العسكرية .

ولم يكن فى رفقتنا غير رجل واحد غير عسكري . وكان فى نحو الخامسة والثلاثين من العمر ، فكنا ، لاجل ذلك ، نعتبره شيخا . وقد اعطته خبرته مزايا كثيرة

علينا ؛ كما انه كان لجهامته المألوفة ، وخلقه الحاد ، ولسانه الوعق تأثيرا قويا على عقولنـــا الفتيـــة . كان شيء من الغموض يكتنف حياته . فقد كان روسيا ، بيد انه كان يحمل اسما اجنبيا . وكان فى احد الاوقات يخدم فى سلك الفرسان ، بل وموفور الحظ ، ولا احد يعرف السبب الذى جعله يستقيل من الخدمة ، ويستقر فى بلدة بائسة ، حيث كان يعيش حياة شظف وتبذير فى نفس الوقت : كان يسير ماشيا دائما فى حلة سوداء رثة ، بينما كان يهيىء مائدة لكل ضباط فوجنا . حقا ان طعامه لم يكن يتألف الا من صنفين او ثلاثـــة من اصناف الطعام يطهيها جندى متقاعد ، الا ان الشمبانيا كانت تصب دهاقـــا . ولم يكن احد يعرف ثروتـــه ولا موارده ، ولم يجرؤ احد على ان يسأله عن ذلك . وكانت لديه كتب معظمها عسكرية وروايات . وكان يعيرها للقراءة راضيا ، ولم يطلب قط أن تعاد له ، وبالمقابل لم يكن يـــرد الكتاب الذى يستعيره هو الى صاحبه . وكانت ممارسته الرئيسية الرمى بالمسدس . فكانت جدران حجرته مثقبة كلها بالرصاص ، ومخرمة مثل قرص عسل . والترف الوحيد الموجود فى الكوخ البائس الذى كان يعيش فيه هو مجموعة غنيـــة من المسدسات . وكانت براعته فى التسديد لا تصدق ، فلو عرض ان يطرح برصاصة خوخة على قبعة احد لما

تردد واحد من فوجنا فى ان يضع له رأســـه . كان الحديث بيننا يتعرض الى المبارزات غالبا ؛ ولم يكن سيلفيو (وهذا ما سأدعوه به) يتدخل فيـــه قط . وذات مرة سئل عما اذا حدث له ان اشتبك فى مبارزة اجاب بجفاف ان ذلك قد حدث ، ولكنه لم يدخل فى تفاصيل ، وكان يبدو ان مثل هذه الاسئلة لا تروق له . وظننا ان ضميره مثقل بضحية تعيسة لبراعته الرهيبة . وعلى اية حال لم يخامر عقولنا شك فى ان فيه ما يشبه الحياء . هناك اناس مظهرهم وحده ينفى مثل هذه الشكوك . ووقع حادث طارئ اذهلنا جميعا .

ذات مرة كنـــا نحوا من عشرة ضباط نتناول الغداء على مائدة سيلفيو . وشربنا على مألوف العادة ، اى بكثرة ؛ وبعد الغداء رحنا نقنع مضيفنا بان يدير اللعب لنا . ظل يرفض وقتا طويلا ، لانه لم يقامر الا فى حالات نادرة جدا ؛ ثم طلب اخيرا ان يحضر الورق ، ووضع على المنضدة خمسين قطعة نقد ذهبية ، وجلس يوزع الورق . احطنا بـــه ، وانعقد اللعب . وكانت لسيلفيو عادة الالتزام بالصمت المطبق اثناء اللعب ، فلم يكن يجادل قط ، ولا يقدم تفسيرا . فاذا وقـــع خطأ فى النقود المطروحة من قبل مقامر كان يسرع فى سد الناقص او تسجيل الزائد . وكنا نعرف ذلك ، ولا نعيقه فى ان يتولى الأمر على طريقته ؛ الا ان ضابطا

حديث العهد فى الخدمة عندنا كان يلعب معنا . وبينما هو يلعب سهـا وزاد الرهان خطـــأ . تناول سيلفيو الطبشورة ، وسوّى الحساب على عادته . وظن الضابط انه قد اخطـــأ ، فاخذ يشرح الامر . تابع سيلفيو توزيع الورق صامتـــا . فقد الضابط صبره ، وتناول الماسحة ومسح ما بدا له غير ضرورى . امسك سيلفيو الطبشورة ، واعاد الكتابة من جديد . واعتبر الضابط ذلك اهانة قاسية ، ملتهبـــا بالخمرة واللعب وضحك رفاقه ، وبضراوة الغيظ اختطف شمعدانا معدنيا من على الطاولة ، وقذف به على سيلفيو . تنحى هذا عن الضربة بالكاد . واضطربنـــا . نهض سيلفيو ، وقد أُمتقع من الغيظ ، وقال وعيناه تبرقان : «ايها السيد المحترم تفضلوا بالخروج واشكروا الله على ان ذلك وقع فى بيتى» .

ولم نشك نحن فى العواقب ، واعتبرنا رفيقنـــا الجديد مقتولا لا محالة . خرج الضابط بعد ان قال انه مستعد لان يتحمل مسؤولية الاهانـــة على النحو الذى يبتغيه السيد مدير اللعب . استمر اللعب عدة دقائق أُخر ؛ ولكن كنا نشعر بان المضيّف لا مزاج له فى اللعب فانسحبنا واحدا اثر الآخر ، وتفرقنا الى بيوتنا متحدثين عن احتمال حدوث شاغر فى وظيفة عما قريب .

فى حلبة الخيل فى اليوم التالى رحنا نتساءل عما إذا كان الضابط المسكين ما يزال حيا . وما ان طلع علينا بنفسه حتى القينا عليه السؤال نفسه . اجاب انه لم يتلق حتى الآن اى تبليغ من سيلفيو . وادهشنا ذلك . ذهبنا الى سيلفيو فرأيناه فى الفناء يطلق رصاصة اثر اخرى على ورقة «آس» ملصقة على الباب . استقبلنا على مألوف عادته ، ولم يشر بكلمة واحدة الى حادث البارحة . وانقضت ثلاثة ايام ، والضابط ما يزال حيا . وتساءلنا بدهشة هل يُعقل الا يتبارز سيلفيو ؟ ولم يتبارز سيلفيو . واكتفى بايضاح بسيط جدا وتصالح .

فى البداية أضر ذلك به فى عين الشباب ضررا بالغا . فان قلة الجرأة اقل ما تكون غفرانا لدى الشبان الذين يرون الشجاعة فى العادة ارفع الكرامات الانسانية وغفرانا لكل العيوب الممكنة . ومع ذلك فقد أتى النسيان على كل شيء بمرور الزمن وعاد سيلفيو يزاول تأثيره القديم .

وبقيت انا وحدى غير قادر على ان اقربه ابدا . كنت قبل ذلك الحين ، وبحكم ما طبعت عليه من خيال رومانطيقى اكثر الناس تعلقا برجل كانت حياته لغزا ، وكان يبدو لى بطل قصة غامضة . وقد احبنى ؛ او على الاقل لم يستعمل معى وحدى الخشونة الحادة المالوفة

فى كلامه ، فكان يتحدث عن مواضيع مختلفة ببساطة نفس ولطف غير مألوف . الا ان الفكرة التى كونتها بعد تلك الامسية التعيسة ، وهى ان شرفه قد لُطِّخ ، ولم يُغسل ، واللوم فى ذلك عليه ، ان هذه الفكرة ظلت تلح عليَّ ، وتمنعنى من ان اعيد سيرتى الاولى معه ، فكنت اخجل من النظر اليه . كان سيلفيو ذكيا جدا ومحنكا فلم يفته ذلك ، ولم يغب عنه حدس السبب فيه . وكان يبدو ان هذا الامر يغمه ؛ وعلى أقل تقدير لمحت منه مرتين رغبة فى مبادلتى الحديث ؛ الا اننى كنت اتحاشى ذلك واعرض سيلفيو عنى . ومنذ ذلك الحين كنت لا التقى معه الا بحضور الرفاق ، وانقطعت احاديثنا الصريحة السابقة .

ليس لاهل العاصمة المبهورين تصور لانطباعات كثيرة معروفة جدا لاهل القرى او المدن الصغيرة ، من بين ذلك انتظار يوم مجىء البريد . حيث كان قلم اوراق فوجنا يغص بالضباط فى ايام الثلاثاء والجُمَع . فهذا ينتظر نقودا ، وذاك رسالة ، وآخر صحفا . وكانت الطرود تفكّ هناك عادة ، وتذاع الانباء ، فكان قلم الاوراق صورةً دافقة بالحياة . كان سيلفيو يتسلم الرسائل المعنونة الى فوجنا ، فكان فى العادة موجودا هناك . وذات مرة سُلّم مظروفا فضّ ختمه فى لهفة عظمى . ولمعت عيناه ، وهما تمران على الرسالة .

كان كل ضابط مشغولا برسائله ، فلم يلحظه احد .
قال لهم سيليفيو : «يـــا سادة ، الظروف تقتضى ان أرحل ، ساغادر اليوم ليلا ؛ وآمل ان لا ترفضوا تناول الغداء على مائدتى لآخر مرة . وانا انتظرك ايضاـ تابع قوله يخاطبنى ـ انتظرك من كل بد» . ومع هذه الكلمة خرج مسرعا ، واتفقنـــا نحن على ان نجتمع عنده ، وتفرقنا كل الى طيته .

وصلت الى بيت سيلفيـــو فى الوقت المحدد ، ورأيت عنده الفوج كله تقريبا . وكان متاعه كله قد حُزِم ، ولم تبق الا الجدران العارية المثقبة بالطلقات . جلسنا الى المائدة ؛ وكان رب البيت فى مرح غامر ، وسرعان ما عمّ مرحه الجميعَ . كانت الزجاجـــات تُفضُّ فى كل دقيقة بفرقعة ، والاقداح ترسل الحبب وتنش نشيشا لا انقطاع له . وتمنينا للمسافر بكل ما لدينا من حماس سفرا ميمونـــا وكل توفيق . وكان المساء قد مضى اكثره حين نهضنا من وراء المائدة . وعند انفضاض الحفل ودّع سيلفيو الجميع ، وامسكنى من يدى ، واوقفنى فى اللحظـــة التى هممت فيهـــا بالانصراف . وقال لى خافت الصوت : «أريد ان اتحدث معك» . فبقيت .

انصرف الضيوف ، وبقينا وحدنا . جلسنا يقابل احدنا الآخر ، ورحنا ندخن غليونينـــا صامتين . كان

سيلفيو ساهما ؛ ولم يبق اى اثر لمرحه العصبى . وقد اضفى عليه الشحوب الكئيب ، والعينان البراقتـان ، والدخان الكثيف الخارج من فمه هيئة شيطان حقيقى . مضت بضع دقائق ، واذا بسيلفيو يحطـم الصمت بقوله لى :

ـ لعلنا لا نلتقى بعد الآن . وأرانى بحاجة الى مصارحتك قبيل الفراق . ربما استطعت أن تلاحظ اننى قليل الاحترام لـرأى الآخرين ، ولكننى أودك ، وسأشعر بالضيق اذا تركت فى نفسك انطباعـا غير مبرر .

وتوقف وشرع يحشو غليونه الخالى ، وصمتُ مطرقا بعينىَّ . ثم مضى يقول :

ـ لعلك استغربت من أننى لم ادع ذلك الاحمق السكران ر ... للمبارزة . انت توافقنى فى ان حياته كانت رهن يدى ، وكان لى الحق فى اختيار السلاح ، بينما كانت حياتى فى امان تقريبا : بامكانى ان اصف سماحتى بالتهاود ، ولكن لا اريد ان اكذب . لو كان بوسعى ان اعاقب ر ... دون ان اعرض حياتى البتة لما سامحته ابدا .

نظرت الى سيلفيو مندهشا . فان هذا الاعتراف حيّرنى تماما . وتابع سيلفيو كلامه :

ـ هذا بالضبط : ليس لى الحق فى ان اعرض

نفسي للموت . قبل ستة اعوام تلقيت صفعة ، وعدوى ما يزال حيا .

وثار فضولى بشدة . سألته :

ـ لم تبارزه ؟ من المؤكد ان الظروف حالت دون ذلك ؟

اجاب سيلفيو :

ـ تبارزت معه . وهذا أثر مبارزتنا .

ونهض سيلفيو ، وأخرج من علبة كارتون قبعة حمراء لها خصلة ذهبية وشريط مقصب (من تلك التى يسميها الفرنسيون bonnet de police *) ولبسها ؛ كانت مثقوبة برصاصة على ارتفاع انملتين فوق الجبين .

وتابع سيلفيو كلامه :

ـ انت تعلم انى كنت اخدم فى فوج الفرسان ك ... وانت تعرف طبعي : لقد تعودت التفوق . ولكن ذلك كان فى صباى هوى . وكانت العربدة فى زماننا موضة : وكنت أول عربيد فى الجيش . وتنافسنا فى السكر ، وتفوقت به على بورتسوف الشهير الذى تغنى به دينس دافيدوف . وكانت المبارزات تجرى فى فوجنا تترى . وكنت احضرها كلها اما كشاهد او

---

* قبعة الشرطى . (بالفرنسية .)

كمشترك . وكان رفاقي يهيمون بي ، وامراء الفوج الذين يتغيرون باطراد ينظرون اليَّ كما ينظرون الى شر لا بد منه .

كنت استمتع في هدوء (او في غير هدوء) بسمعتي حين جاء الينا شاب غني من عائلة نبيلة (لا اريد ان اذكر اسمه) . أنا لم التق في حياتي بمحظوظ لامع مثله ! تصور شبابا ، وعقلا ، وجمالا ، ومرحا غاية في التأجج ، وشجاعة آية في اللامبالاة ، واسما مدويا ، ومالا لم يعرف له عدا ، ولا شحَّ عنده يوما ، ثم تصور اى اثر كان ، لا بد ، تاركه فينا . وتضعضع تفوقي . راح الشاب يسعى الى صداقتي مفتونا بسمعتي . الا انني استقبلته ببرود ، فابتعد عني دون اى أسف . واضمرت له ضغنا . ودفعتني نجاحاته في الفوج وبين النساء الى يأس تام . وأخذت اتحين الفرص لمخاصمته . وكان يرد على غمزاتي بغمزات كانت دائما تبدو لي اكثر خفة ورهافة من غمزاتي ، واكثر مرحا منها ، طبعا ، الى حد بعيد : كان هو يمزح ، وكنت انا اكيد . وذات مرة اخيرا في بيت صاحب اطيان بولوني رأيته موضع اهتمام جميع السيدات ولاسيما ربة الدار التي كانت لي علاقة معها ، فقلت في اذنه بذاءة صريحة . احتدم غيظه وصفعني على خدي . وهرعنا الى السيوف ، وأُغمي على

السيدات . وحُجز بيننا ، وفى تلك الليلة ذهبنـــا لنتبارز .

كان ذلك عند الفجر . وقفت فى المكان المحدد ومعى شهودى الثلاثة . وانتظرت خصمى بنفاد صبر لا يوصف . وطلعت شمس الربيـــع ، وبدأ الحر . وابصرته من بعيد . كان يسير ماشيا ، وسترته على سيفه ، مصحوبا بشاهد واحد . وسرنا للقياه . اقترب ممسكا بقبعة ملئت بالكرز . وقاس الشهود لنا اثنتى عشرة خطوة . وكان يجب ان اكون اول من يطلق النار ، الا ان احتدام الغيظ فى نفسى كان شديدا جدا ، حتى لم اعوّل على تصويب يدي ، ولكى أوفر لنفسى وقتا يبرد غيظها فيه تنازلت لتكون الطلقة الاولى له . ولم يوافق خصمى . وقررنا ان نجرى قرعة . فكان الرقم الاول له ، لمحبوبِ الحظ الدائم . وسدد واصــاب قبعتى . وجاء دورى . كانت حياته اخيرا فى يدى . حدقت فيـــه بنهم محاولا ان المح فيه ادنى ظـــل للاضطراب ... كان يقف تحت المسدس وهو ينتقى من قبعته حباتِ الكرز الناضجة ، لافظا النـــوى التى كانت تتطاير فتبلغنى . واثارت لامبالاته جنـــونى . وفكرت مع نفسى : ماذا ساجنى من فائدة فى سلبـــه حياته اذا كان هو يستهين بها كليا ؟ ولمعت فى ذهنى فكرة ناقمة . انزلت المسدس ، وقلت له : « يبدو

ان الموت لا يشغل بالك الآن ، فانت تتناول فطورك ، وانا لا اريد ان اعيقك» . فاعترض قائلا : «انت لا تعيقنى مطلقا . تفضل اطلق النار ، وعلى اية حـــال تصرف كما تريد ، فانا مدين لك بطلقة . انا دائما مستعد لخدمتك» . توجهت الى الشهود معلنا انى لا انوى اطلاق النار اليوم . وبذلك انتهت المبارزة .

قدمت استقالتى ، ورحلت الى هذه البلدة . ومنذ ذلك الحين لم يمض يوم واحد لم افكر فيه بالانتقام . واليوم حانت ساعة الانتقام . . .

واخرج سيلفيو من جيبه الرسالة التى تسلمها فى الصباح ، واعطانيها لاقرأها . لقد كتب له شخص من موسكو (يبدو انه وكيل شؤونه) ان **الشخص المعلوم** مقبل قريبا على عقد قرانه على فتاة شابة رائعـــــة الجمال .

قال سيلفيو :

ـ وانت تخمن مَنْ هو هذا **الشخص المعلوم**. انا مسافر الى موسكو . وسنرى هل سيستقبل الموت قبيل زواجه بلا اكتراث ، مثلما انتظره فى تلك المرة ، وهو ياكل الكرز !

وبهذه الكلمات نهض سيلفيو ، ورمى قبعته على الارض ، واخذ يذرع الحجرة جيئة وذهوبا ، وكأنه

نمر فى قفص . اصغيت اليه بلا حركة ؛ وقد اعتملت فى نفسى مشاعر غريبة متضاربة .

دخل الخادم ، واعلن ان الخيول جاهزة . شدّ سيلفيو على يدى بقوة ، وتبادلنا القبل . ركب العربة حيث وضعت فيها حقيبتان ، فى احداهما المسدسات ، وفى الثانية امتعته . تواعدنا مرة أخرى . وانطلقت الخيول .

٢

مضت بضع سنوات . واضطرتنى الظروف العائلية الى الانتقال الى قرية صغيرة بائسة فى قضاء ن ... واذ كنت ازاول اعمالى لم تفارقنى الحسرة على حياتى الماضية الصاخبة الرخية البال . وكان اصعب الامور علىّ التعود على قضاء اماسى الخريف والشتاء فى وحدة تامة . كنت ازجى الوقت على نحو ما حتى موعد الغداء ، مجاذبا الحديث مع العمدة ، متفقدا الاعمال والمشاريع الجديدة ، ولكن ما ان يدنو المساء حتى لا اعرف الى اين اذهب . وقد حفظت العدد القليل من الكتب التى عثرت عليها تحت الدواليب وفى حجرة المؤن . واعادت مديرة البيت كيريلوفنا على مسمعى كل الحكايات التى قدرت ان تتذكرها . وكانت اغانى النسوة تشيع فى الحنين . وعكفت على خمرة قوية

المفعول ، الا أنها كانت تصيبني بالصداع ؛ ثم اعترف اننى كنت اخشى ان انقلب **سكيرا مـن الكمد** ، اى **مدمنا** لا يرجى شفاؤه ، وقد رأيت كثيرين منهم فى قضائنا . ولم يكن بقربى من الجيران القريبين غير اثنين او ثلاثة من **الذين لا يرجى شفاؤهم** كان معظم حديثهم فواقا وتأففا . فكانت العزلة اكثر احتمالا من ذلك * .

على بعد اربعة فراسخ منى كانت تقع ضيعة غنية تملكها الكونتيسة ب ... ، الا ان احدا لم يكن يسكنها غير القيِّم ، اما الكونتيسة فلم تزر ضيعتها الا مرة واحدة فى العام الاول من زواجها ، وحتى فى تلك المرة لم يطل مكوثها اكثر من شهر . الا ان اشاعة سرت فى الربيع الثانى من اقامتى فى عزلتى تقول ان الكونتيسة وزوجها سيمضيان الصيف فى قريتها وبالفعل وصلا فى بداية شهر حزيران .

وقدوم جار ثرى حدث مهم لاهل القرية . واصحاب الاطيان والاقنان يتحدثون عنه قبل شهرين من وقوعه ، ويظلون يتحدثون عنه بعد ثلاثة اعوام

* تلى ذلك فى **الطبعة الاولى هذه العبارات** : وقررت اخيرا ان اضطجع فى المساء الباكر واتناول الغداء فى وقت متاخر ؛ وبذلك قصرت المساء واطلت النهار ؛ فكانت النتيجة المرجوة . **ملاحظة بوشكين** .

من انتهائه . اما انا فاعترف بان خبر قدوم جارة شابة رائعة الجمال قد اثر في نفسي اثرا شديدا ، فاشتعلت بنار اللهفة الى رؤيتها ولذلك توجهت بعد الغداء الى قرية س ... في اول يوم احد بعد مجيئهما لاقدم نفسي الى سيادتهما كاقرب جار لهما ، وكخادم مطيع .

قادني الخادم الى مكتب الكونت ، وذهب هو ليبلغه بقدومي . كانت غرفة المكتب الفسيحة مفروشة بكل ابهة وترف . كانت دواليب الكتب تصطف قرب الجدران ، وفوق كل واحد منها تمثال نصفي من البرنز ؛ وفي اعلى الموقد المرمري مرآة واسعة ؛ والارض مغطاة بالجوخ الاخضر ، ومفروشة بالابسطة . وكنت قد نسيت الترف في ركني البائس ، وقد مضى عليّ زمن طويل وانا لم ار ثراء الأخرين ، فتوجست رهبة ، وانتظرت الكونت بارتجاف كمسترحم من الريف ينتظر وزيرا . وفُتح الباب ، ودخل رجل في نحو الثانية والثلاثين من العمر جميل الطلعة . دنا الكونت مني طلق الاسارير ، بادي الود . حاولت ان اتشجع ، واخذت اقدم نفسي ، الا انه كان يعرفني مسبقا . جلسنا . وسرعان ما بدد حديثه السلس السمح خجلي المستوحش ؛ فاخذت اعود الى وضعي الاعتيادي . واذا بالكونتيسة تدخل فجأة ، فيستولي الاضطراب عليّ اشد من ذي قبل . لقد كانت رائعة

الجمال حقا . قدمني الكونت اليها . كنت اريد ان ابدو طبيعيا ، ولكن كلما حاولت آن اظهر بمظهر البشاشة ازداد شعوري بالتحرج . ولكي يتيحا لي برهة اتمالك فيها نفسي ، واعتاد العُشْرة الجديدة ، شرعا يتحدثان فيما بينهما متصرفين معي كجار طيب ، وبغير ما كلفة . وخلال ذلك اخذت آسير جيئة وذهابا متطلعا الى الكتب واللوحات . انا لست خبيرا باللوحات . بيد ان أحداها جذبت انتباهي . وهي تصور منظرا طبيعيا في سويسرا ، الا ان الفن ليس هو الذي بهرني فيها بل رصاصتان خرقتاها في موضع واحد . قلت مخاطبا الكونت :ــ

ــ رميتان سديدتان .

اجاب :

ــ نعم ، انهما لرائعتان .ــ ثم اردف قائلا : أتجيد الرمي ؟

اجبت وقد سرني ان الحديث مسَّ ، في آخر الامر موضوعا قريبا الى نفسي :

ــ بشكل ممتاز ، لن اخطئ التسديد على ورقة اللعب من على بعد ثلاثين خطوة ، بمسدسات اعرفها بالطبع .

ردَّت الكونتيسة بمظهر الاهتمام الشديد :

ـ أحقا ؟ وانت ، يا صاحبى ، هل ستصيب ورقة اللعب من على بعد ثلاثين خطوة ؟

أجاب الكونت :

ـ سنجرب فى وقت ما ، فى زمانى لم يكن رمى رديئا ؛ ولكن منذ اربعة اعوام وانا لم امسك مسدسا بيدى .

فقلت ملاحظا :

ـ اوه . فى هذه الحال أراهن على ان سيادتك لن تصيب ورقة اللعب حتى من على بعد عشرين خطوة . فان المسدس يتطلب تمرينا يوميا . وانا اعرف ذلك من تجربتى . كنت أُعتبر فى فوجى من بين احسن الرماة . وصادف ذات مرة ان قضيت شهراً كاملا دون ان امسك مسدسا : فقد كانت مسدساتى فى التصليح . فما رأى سيادتك ؟ فى اول مرة اعود فيها للرمى اخطأت اصابة زجاجة على بعد خمس وعشرين خطوة اربع مرات متتاليات . وكان عندنا ضابط من الفرسان برتبة نقيب ثاقب الذكاء ، فكِه شهد الحادث ؛ فقال لى : اظن يدك ، يا اخ ، لا تستطيع ان تصوب على زجاجة . لا ، يا صاحب السيادة ، لا يجوز ان تستهين بهذه التمارين ، والا فستنسى الرماية كليا . ان احسن رام صادف ان التقيت به كان يمارس الرماية كل يوم ثلاث مرات قبل الغداء على اقل تقدير . لقد

كان ذلك عادة له مثـــل كأس الفودكا قبل الطعام .

كان الكونــــت والكونتيسة مسرورين لانطلاق لساني . سألني الكونت :

ـ كيف كان يرمي ؟

ـ على هذا النحـــو ، يا صاحب السيادة : كان يحدث ان تحط ذبابة على حائط . اراك تضحكين يا كونتيسة ؟ انه لحق قسما بالله . كان يرى ذبابة فيصرخ : يا كوزكا ، آليَّ بالمسدس ! فيأتي له كوزكا بمسدس محشو . ويرمي ، ويسحـــــق الذبابـــة في الحائط .

قال الكونت :

ـ هذا شيء مذهل ! ما اسم هذا الرجل ؟

ـ سيلفيو ، يا صاحب السيادة .

وثب الكونت من مكانه وهتف :

ـ سيلفيو ؟ هل كنت تعرف سيلفيو ؟

ـ وكيف لا اعرفه ، يا صاحب السيادة ، وقـــد كنا صديقين . قبلناه في فوجنا اخا ورفيقا . وها هي خمسة اعوام تمضي دون أن اسمع خبرا عنه . اذن ، فقد كنت تعرفه ، يا صاحب السيادة ؟

ـ أعرفه ، أعرفه جيدا . ألم يخبرك . . . ولكن لا ، لا أظن ؛ ألم يخبرك عن حادث رهيب جدا ؟

ـ عن الصفعة التي وجهها اليه شاب طائش في

حفلة رقص ، أليس عن ذلك ، يا صاحب السيادة ؟

ـ ولم يقل لك اسم هذا الشاب الطائش ؟

ـ لا ، يا صاحب السيادة ، لم يقل ... آه ! يا صاحب السيادة ـ استدركت انا ، وقد حدست الحقيقة وتابعت قولي ـ اعذرني ... لم اكن اعرف ... ألست انت ؟ ..

ردّ الكونت بهيئة انسحاق بالغ :

ـ انا هو . اما هذه اللوحة المصابة فانها ذكرى آخر لقاء لنا ...

قالت الكونتيسة :

ـ آه ، يا عزيزي . بحق الرب لا تتحدث ، فان سماعها سيرهبني .

اعترض الكونت قائلا :

ـ لا ، ساروي كل شيء ؛ فهو يعرف كيف اهنت صديقه ، فليعرف ايضا كيف ثار سيلفيو مني .

قدم الكونت لي مقعدا ، فأصغيت الى هذه القصة بفضول متيقظ .

«تزوجت قبل خمسة اعوام ، وقضيت الشهر الاول the honey-moon * هنا ، في هذه القرية . وانا مدين لهذه الدار باحسن لحظات حياتي ، وبواحدة من اقسى ذكرياتي .

ذات مساء خرجنا سوية ممتطيين فرسين .

---

* شهر العسل . (بالانجليزية .)

ولسبب ما حرن فرس زوجتي ؛ فذعرت ، وسلمتني المقود ، وسارت الى البيت ماشية . سبقتها وانـــــا راكب . رأيت في الفناء عربة سفـــــر . أُخبرت بان شخصا يجلس في المكتب في انتظاري لم يرد ان يعلن عن اسمه ، بل قال ان له شأنا معي . دخلت هذه الغرفة ، ورأيت في الظلام رجلا مغبرا وقد اطلق لحيته . كان يقف هنا الى جانب الموقد . تقدمت منه مجاهدا لأتذكر ملامحـــــه . قال لي بصوت مرتجف : «ألم تعرفني ، يا كونت ؟» . هتفت : «سيلفيو !» واعترف بانني أحسست بان شعر رأسي يقف . مضى الرجـــــل يقول : «تماما . ما زلت مستحقا لي بطلقة . وقـــــد جئت ومسدسي محشو . فهل انت مستعد ؟» كان مسدسه يبرز من جيبه الجانبي . ذرعت اثنتي عشرة خطوة ، ووقفت في الزاوية هناك ، سائلا اياه ان يطلق قبل أن تعود زوجتي . تباطأ . طلب ان يشعل الضوء . فأوقدت الشموع . اوصدت الباب ، وأمرت بان لا يدخل احد وطلبت اليه مرة اخرى ان يطلق . اخرج المسدس من جيبه ، وصوبه ... عددت الثواني ... كنت افكر فيها ... وفاتت اللحظة رهيبة ! انزل سيلفيـــــو يده . وقال : «يؤسفني ان المسدس غير محشو بنوى الكرز ... الرصاصة ثقيلة . ويبدو لي انْ ما بيننا ليس مبارزة ، بل قتلا : انا غير متعود على ان اصوب على اعزل . فلنبدأ من جديد ، ولنلق

قرعة لنرى من سيطلق آولا» . ودار رأسى ... يبدو انى لم اوافق ... واخيرا حشونا مسدسا آخر ؛ لفً قصاصتين ، ووضعهما فى القبعة ، نفس القبعـــة التى اصبتها فى تلك المرة . وسحبت الرقم الاول مرة اخرى . وقال بتلك البسمة الساخرة التى لن انساهـــا أبدا : «انت ، يا كونت ، سعيد بشكل شيطانى» . انا لا افهم ماذآ حصل لى ، وباية طريقة استطاع ان يجبرنى على ذلك ... ولكننى اطلقت ، وأصبت هذه اللوحة (واشار الكونت باصبعه الى اللوحة المثقوبة ، وكان وجهه ملتهبا كالنار ؛ وكانت الكونتيسة اكثر شحوبا من منديلها . اما آنا فلم استطع ان اكتم صيحـــــــــة استغرابى) .

ومضى الكونت يقول :

ــ اطلقت ، وحمدا لله لم أصب الهدف ؛ عندئذ أخذ سيلفيو ... (كان فى تلك اللحظة رهيبا حقـــا) يصوب نحوى . وفجأة فُتح الباب . ودخلت ماشا الغرفة راكضة ، وتعلقت برقبتى زآعقـــة . وأعاد حضورها الىً كل شجاعتى . قلت لها : «يا عزيزتى ، أحقا لا ترين اننا نمزح ؟ فكيف ذعرتِ ! اذهبـــى ، واشربى قدحا من الماء ، وعودى الينا . وساقدم لك صديقا قديما ورفيقا» . ظلت ماشا غير مصدقة وقالت مخاطبة سيلفيو المرعب : «خبرنى هل زوجى صادق فى قوله انكما تمزحان ؟» آجابها سيلفيو : «انه يمزح

دائما ، يا كونتيسة . ذات مرة وجّه لى صفعة مزاحا ، ومزاحا اصاب قبعتى هذه ، ومزاحا اخطأ اصابتى هذه اللحظة . والآن واتتنى رغبة فى ان أمزح ...» وبهذه الكلمة اراد ان يصوّب علىّ ... بحضورها ! آرتمت ماشا على قدميه . صرخت انا بجنون : «انهضى ، ماشا ، عيب ! اما انت ، ايها السيد ، أفلا تكف عن الهزء بامرأة مسكينة ؟ هل ستطلق النار ام لا ؟» أجاب : «لا ، لا آطلق . هذا يكفينى . لقد رأيت اضطرابك ، ووجلك . وجعلتكَ تطلق علىّ النار . هذا يكفينى . ستتذكرنى . واتركك وضميرك» . وعندئذ خرج ، ولكنه توقف عند الباب ، ونظر الى اللوحة التى آصبتها ، واطلق عليها النار دون ان يصوب تقريبا ، واختفى . أُغمى على زوجتى ، ولم يجرأ الناس على ايقافه ، بل راحوا يحدقون فيه مذعورين . خرج الى مقدمة البيت ، ونادى على الحوذى ، وغادر قبل ان أعود الى وعىّ» .

صمت الكونت . وعلى هذا النحو عرفت نهاية القصة التى اذهلتنى بدايتها فى تلك المرة . ولم التق ببطلها . ويقال ان سيلفيو كان يقود فصيلة من الاتيريين * فى حركة الكسندر ابسيلانتى ، وقتل فى معركة قرب سكوليانى .

---

* نسبة الى اتيريا وهى جمعية سرية برئاسة الكسندر ابسيلانتى هدفها تحرير اليونان . (الناشر .)

عاصفة ثلجية

الخيول تخب على الاكوام الثلجية ،
وتدوس الثلج العميق . . .
وهناك ، فى ناحية ، كنيسة
تبدو وحيدة .

. . . .

وفجاة تهب عاصفة ثلجية ؛
وينثال الثلج ندفا كبيرة ؛
ويصفر غراب أسود بجناحيه ،
فوق الزلاجة ؛
والانين النبوئى ينذر بالأسى !
والخيول عجلى
تنظر فى المدى الداجى بحدة ،
رافعة اعرافها . . .

جوكوفسكى

فى نهاية عام ١٨١١ ، فى عهدنا المشهود ، كان يعيش فى ضيعة نينارادوفو الطيب الذكـــــر غفريلا غفريلوفيتش ر . . . وكان مشهورا فى منطقته بحسن الضيافة ، وطيب العشرة ؛ وكان الجيران يترددون عليه لياكلوا ، ويشربوا ، ويلعبوا مع زوجته البوستون * بخمسة كوبيكات . وكان البعض ياتى ليمتـــع نظره

* نوع من انواع لعب الورق . (المترجم .)

بابنته ماريا غفريلوفنا ، الفتاة الهيفاء ، الشاحبة ، ابنة السبعة عشر ربيعا . وكانت تعتبر عروسا غنية ، وكثيرون أرادوها لهم او لابنائهم .

وكانت ماريا غفريلوفنا قد تربّت على الروايات الفرنسية ، فكانت ، بالنتيجة ، عاشقة . وكان الذى اختارته لنفسها ضابطا بائسا برتبة ملازم ثان جاء يقضى اجازته فى قريته . وطبيعى ان الشاب كان يلتهب بنفس العاطفة . ولما احس والدا محبوبته بهواهما المتبادل حرما على ابنتهما حتى التفكير به ، اما هو فقد استقبل اسوأ مما يُستقبل به مُحلّف متقاعد .

كان عاشقانا يتبادلان الرسائل ، ويلتقيان كل يوم خلسة فى دغل اشجار الصنوبر ، او قرب الكنيسة الصغيرة القديمة . وهناك كانا يتعاهدان على الوفاء لحبهما آلى الأبد ، ويندبان القدر ، ويستعرضان مختلف الفروض . وبتراسلهما واحاديثهما على هذه الصورة توصلا (وهذا شيء طبيعى) الى هذه الفكرة : اذا كان أحدنا لا يستطيع العيش بدون الآخر ، وارادة الوالدين القاسيين تقف دون رفاهنا ، أفلا يجوز لنا تجاوز هذه الارادة ؟ وطبيعى ان هذه الفكرة الموفقة خطرت فى ذهن الفتى اول ما خطرت ، وراقت كثيرا لخيال ماريا غفريلوفنا الرومانسى .

حلّ الشتاء ، وانقطعت لقاءاتهما . الا ان

رسائلهما صارت انشط . وكان فلاديمير نيقولايفيتش يتوسل فى كل رسالة آن تستجيب له ، وتتزوجه سرا ، وأن يعيشا فى الخفاء فترة من الزمن ، وبعد ذلك يرتميان على اقدام والديهما ، اللذين سيتأثران اخيرا ، طبعا ، بحبهما البطولى الطويل وتعاسة العاشقين ، وسيقولان لهما بالتأكيد : يا ولدينا ! تعالا الى حضنينا .

ترددت ماريا غفريلوفنا كثيرا ، ورفضت العديد من خطط الهرب . ووافقت آخر الأمر . كان عليها فى اليوم المحدد الا تحضر العشاء ، وان تختلى فى غرفتها متعذرة بالصداع . وكانت وصيفتها على علم بما دُبِّر ، فكان عليهما ، كليتهما ، آن تخرجا الى الحديقة خلال مدخل البيت الخلفى ، وتجدا وراء الحديقة زلاجة مهياة لنقلهما الى قرية جادرينو ، على بعد خمسة فراسخ من نينارادوفو ، وهناك تتوجهان توا الى الكنيسة ، حيث يكون فلاديمير فى انتظارهما فيها .

فى عشية اليوم الحاسم لم تنم ماريا غفريلوفنا طوال الليل ؛ فقد جمعت حاجاتها ، وصرت ثيابها وفساتينها ، وكتبت رسالة طويلة الى فتاة رقيقة القلب هى صديقتها ، وأخرى الى والديها . ودعتهما بارق العبارات ، واعتذرت لفعلتها بقوة الحب العارمة ، وانهتها بانها تعتبر اسعد لحظة فى حياتها هى تلك التى

سيتاح لها فيها أن ترتمى على اقدام والديها العزيزين . وختمت كلتا الرسالتين بختم تولا الذى رسم عليـــه قلبان متحاببان مع عبارة معتبرة . والقت نفسها على الفراش قبيل الفجر ، وغلبها النعاس : الا ان الاحلام الرهيبة كانت توقظها بلا انقطاع . مرة تراءى لها ان اباها اوقفها ما ان جلست فى الزلاجة لتذهب لعقـــد قرآنها ، وانه جرها على الثلج بسرعة مؤلمة ، والقاها فى غيهب مظلم لا قرار له ... وأنها طارت بسرعـــة وقلبها متجمد جمـــدا لا يوصف . ومرة اخرى رأت فلاديمير مطروحا على العشب ممتقعـــا مدمى . كا ، وهو يحتضر ، يتضرع اليها بصوت نافذ ان تسرع الى الكنيسة وتتزوجه ... واحلام آخرى شوهاء لا معنى لها مرقت أمامها متتابعة . وفى آخر الامر نهضت اكثر شحوبا من المعتاد ، وبصداع حقيقى . لاحظ ابوها وامها اضطرابها ، فتمزق قلبها بحنانهما الرقيـــق وباسئلة لا تنتهى : ماذا بك ، يا ماشا ؟ هل انت عليلة ، يا ماشا ؟ حاولت ان تهدئهما ، وان تبدو مرحة ، ولم تستطع . وجاء المساء . وعصرت قلبها فكرة أنها ستقضى آخر يوم بين عائلتها . فكانت الحياة لا تكاد تدب فيها : ودّعت بسرها جميع الاشخاص ، جميع الاشياء المحيطة بها . قـُدّم العشاء ؛ وبدأ قلبها يخفق بشدة . اعلنت بصوت مرتجف انها لا تريد ان

تتعشى ، وأخـــذت تـــودع اباهـــا وأمهـــا . قبّلاهـــا ، وباركاها بالدعـــاء كالعادة : وكادت تنفجر باكية . وحين عادت الى حجرتها ارتمت على مقعد ، وانهمرت دموعها . توسلت اليها وصيفتها ان تهدأ ، وتتشجع . كان كل شيء مهيأ . بعد نصف ساعة كان على ماشا ان تغادر الى الابد بيت الابوة ، وغرفتها ، وحياتها الهادئة ، حياة آنسة ... في الخارج كانت عاصفة ثلجية . كانت الريح تعول . وصفاقات النوافذ تهتز وتصفق . وبدا كل شيء لها وعيدا ، ونذيراً منحوسا . وسرعان ما هدأ كـــل شيء في البيت ، ونام . لفت ماشا جسمها بشـــال ، وارتدت معطفا سميكا ، ووضعت بيدها علبة مجوهراتهـــا ، وخرجت الى مدخل البيت الخلفي . حملت الوصيفـــة وراءها صرتين . خرجت الفتاتان الى الحديقـــــة ، والعاصفة الثلجية لم تهدأ ؛ وهبّت الريح في وجهيهما وكأنها تجاهد لتوقف الآثمـــة الصغيرة . وصلتا الى نهاية الحديقة بعد لأى . وكانت الزلاجة في الطريـــق بانتظارهما . كانت الخيول من شدة البرد لا تستقر في مكان واحد . وكان حوذي فلاديمير يروح ويجيء امام عريش العربة ممسكا بالخيول الجامحة . ساعد الآنسة ووصيفتها على الجلوس في الزلاجة ، ووضع الصرتين والعلبة ، وامسك بالرسن . فانطلقت الخيول . اما نحن

فلنعد الى عاشقنا الشاب بعد ان سلمنا الآنسة لعناية القدر وفن تيريشكا الحوذى .

قضى فلاديمير اليوم كله فى رواح ومجىء . فى الصباح كان عند قس جادرينو ، واقنعه بعد جهد جهيد . ثم ذهب ليبحث عن شهود من بين اصحاب الاطيان المجاورين . وكان اولَ من توجه اليه ضابطُ فرسان متقاعد فى الاربعين من العمر يدعى درافين ، وقد قبل عن طواعية قائلا ان تلك المخاطرة تذكره بالزمن القديم ، وملاعب الفرسان . واقنع فلاديمير على ان يبقى عنده للغداء مؤكدا ان ايجاد شاهدين آخرين امر سهل . وبالفعل ظهر بعد الغداء بوقت قصير مسّاح الارض شميت بشاربيه ومهمازيه ، وابن رئيس شرطة القضاء ، وهو فتى فى السادسة عشرة كان قد دخل فوج الخيالة الخفيفة قبل فترة وجيزة . وافق هذان على اقتراح فلاديمير ، بل وأقسما له على انهما مستعدان للتضحية فى سبيل حياته . عانقهما فلاديمير شديد الغبطة ، وذهب الى بيته ليأخذ أُهبته .

كان الغسق قد هبط منذ وقت طويل . أرسل فلاديمير حوذيه الأمين تيريشكا مع زلاجته «ترويكا» * وتعليمات مسهبة مفصلة ، وطلب ان

* ترويكا بالروسية عربة تجرها ثلاثة خيول .
(المترجم .)

تجهز له زلاجة صغيرة يجرها حصان واحد ، وأتجه لوحده ، وبدون حوذي ، الى جادرينو ، حيث كان يجب ان تصل اليها ماريا غفريلوفنا ايضا فى غضون ساعتين . كانت الطريق مألوفة له ، وهى لا تستغرق اكثر من عشرين دقيقة .

ولكن ما كاد فلاديمير يترك طرف القرية الى الخلاء ، حتى هاجت الريح ، وهبت عاصفة ثلجية عاتية لم تدعه يرى اى شيء . وفى لحظة واحدة اختفت الطريق ؛ وتوارت معالم الاشياء ، فى ظلمـــــة كدرة مصفرة تطايرت خلالها ندف الثلج البيضاء ، وآنطبقت السماء على الارض . ووجد فلاديمير نفسه فى ارض فضاء ، وحاول عبثا ان يعود الى الطريق ؛ كان الحصان يسير خبطَ عشواء ، فيغوص تارة فى كومة ثلج ، ويقـــع اخرى فى حفرة . وكانت الزلاجة تنقلب كثيرا . جاهد فلاديمير ان يلتزم الاتجاه الصحيـــح . ولكن بـــدا له ان اكثر من نصف ساعة قد آنقضى ، ولم يصل بعد الى حرش جادرينو . ومضى نحو عشر دقائق أُخر ؛ والحرش لم يلح بعدُ لعينيه .كان فلاديمير يسير فى حقل تتخلله وهدات عميقة . ولم تهدأ العاصفـــــة الثلجية ، ولم تتكشف السماء . وأخذ الحصان يتعب ، وتصبب العرق من جسمه مدرارا رغم انه كان يغوص الى النصف فى الثلج من لحظة الى اخرى .

وفى آخر الامر عرف فلاديمير انـــه لا يسير فى الجهة المقصودة ، فتوقف . وشرع يفكر ، ويتذكر ، ويتروى ، وتيقن انه كان عليه ان يتجه يمينا . سار الى اليمين . وكان حصانه لا يكاد يسير . وكان قد أمضى اكثر من ساعة ، وهو فى الطريق . وكان ينبغى ان تكون جادرينو على مسافة غير بعيدة . ولكنه ظل يسير ، ويواصل السير ، وما للحقل من آخر . توالت اكوام الثلج والوهدات ؛ والزلاجة تنقلب من لحظة الى اخرى ، فكان يرفعها باستمرار . ومضى الوقت ، واخذ فلاديمير يقلق قلقا شديدا .

وفى آخـــــر الامر لاحت معالم شىء فى جانب . انعطف فلاديمير نحوه . ولما اقترب رأى حرشا . وفكر فى نفسه : حمدا لله ، قـَرُب المكان الآن . سار بمحاذاة الحرش آملا ان يعثر فى اللحظة التالية على الطريق المألوف ، او يدور حول الحرش . وكانـــت جادرينو تقع وراء الحرش مباشرة . وبعد قليـــــل اهتدى الى الطريق ، ودخل فى عتمة اشجار عرّاهـــا الشتاء . الريح هنا لم تكن قادرة على ان تستبد ، وكان الطريق ممهدا ، وردت بعض الحيويــــــة الى الحصان ، وهدأ فلاديمير .

الا انه ظل يسير ، ويسير ، وجادرينو لم تكن على مرأى البصر ، والحرش بلا آخـــــر . وأدرك فلاديمير

بذعر انه دخل غابة غير معروفة له . وتملكه اليأس . وراح يسوط الحصان . انطلق الحيوان المسكين فى عَدْو سريع ، ولكنه سرعان ما تباطأ ، وبعد ربع ساعة تحول الى المشى ، رغم كل ما بذلـــه فلاديمير اليائس من جهد .

واخذت الاشجار تقل شيئا فشيئــــا ، وخرج فلاديمير من الغابة ، وجارينو لم تكن على مرأى البصر . لا بد ان الليل قد قارب الانتصاف . وطفرت الدموع من عينيه . سار خبط عشواء . وقـــــد هدأ الجو ، وتبددت السحب ، وانداح امامه سهل منبسط مفروش ببساط ابيض متموج . كان الليل قد صفا كثيرا . ورأى غيرَ بعيد عزبة صغيرة تتألف من أربعة او خمسة بيوت . سار فلاديمير فيها ، ونزل من الزلاجة عند اول بيت فيها ، وهرع الى نافذة ، وأخذ يطرقها . وبعد بضع دقائق ارتفعت الصفاقة الخشبية ، وأخرج شيخ لحيته الشيباء :

ــ ما حاجتك ؟

ــ هل جادرينو بعيدة ؟

ــ المسافة حتى جادرينو ؟

ــ نعم ، نعم ، هل هى بعيدة ؟

ــ ليست كثيرا ، زهاء عشرة فراسخ .

3—1009

امسك فلاديمير بشعره لدى سماعه هذا الجواب ، وجمد مثل رجل حكم عليه بالموت .

تابع الشيخ قوله :

ـ من اين انت ؟

لم تكن فى نفس فلاديمير رغبة فى ان يرد على اسئلة . قال :

ـ هل فى وسعك ، ايها الشيخ ، ان تحصل لى على خيول تأخذنى الى جادرينو ؟

اجاب الشيخ :

ـ لا خيول عندنا .

ـ وهل لى ان اجد دليلا على الاقل ؟ سأدفع له ما يشاء .

قال الشيخ واطلق الصفاقة :

ـ انتظر . سأبعث ولدى معك ، وسيدلك .

أخذ فلاديمير ينتظر . وقبل ان تنقضى دقيقة شرع يطرق من جديد . ارتفعت الصفاقة . وظهرت اللحية :

ـ ما حاجتك ؟

ـ اين ولدك ؟

ـ سيخرج الآن . انه يلبس حذاءه . هل انت تشعر ببرد ؟ ادخل وتدفأ .

ـ شكرا ، اسرع فى ارسال ولدك .

صرّ الباب ، وخرج فتى يحمل عصا ، وسار فى المقدمة مشيرا تارة ، واجدا اخرى الطريق الذى غطته اكوام الثلج . سأله فلاديمير :

ــ كم الساعة ؟

اجاب الفلاح الفتى :

ــ سيطلع الفجر عن قريب .

ولم ينبس فلاديمير بعد ذلك بكلمة واحدة .

صاحت الديكة ، وتنورت الدنيا حين وصلا الى جادرينو . كانت الكنيســـــة مقفلـــة . دفع فلاديمير للدليل ، وذهب الى القس . فى فناء بيته لم تكن زلاجته «ترويكا» هناك . وما من خبر كان فى انتظاره !

ولكن لنعد الى العائلة الطيبة فى نينارادوفو ، ولنر ماذا حدث هناك .

لا شىء .

استيقظ العجوزان ، وخرجا الى غرفة الجلوس . غفريلا غفريلوفيتش فى طرطـــــور المنام وسترة من الفانيلة . وبراسكوفيا بيتروفنا فى جلباب منزلى مبطن بالقطن . وجُلِب السماور ، وارسل غفريلا غفريلوفيتش الوصيفة لتسأل ماريا غفريلوفنا عن صحتها ، وكيف قضت ليلتها . وعادت الوصيفة معلنة ان الآنسة نامت نوما سيئا ، ولكن حالها احسن الآن ، وانها ستأتـــى بعد قليل الى غرفة الجلوس . وهذا ما كان ، فقد فُتح الباب ، واقبلت ماريا غفريلوفنا تحى اباها وامها .

سأل غفريلا غفريلوفيتش :

ـ كيف رأسك ، يا ماشا ؟

اجابت :

ـ احسن ، يا ابى .

قالت براسكوفيا بيتروفنا :

ـ ربما سممك السخام بالأمس ، يا ماشا .

اجابت ماشا :

ـ ربما ، يا أمى .

وأنقضى النهار بخير . الا ان حالة ماشا قد ساءت فى الليل . فأرسلوا الى المدينة لاستدعاء الطبيب . ووصل الطبيب عند المساء ، ووجد المريضة فى هذيان . وتبين انها مصابة بحمى حادة ، وبقيت المريضة المسكينة على شفا القبر اسبوعين .

لم يكن احد فى البيت يعلم بمشروع الهروب . أُحرقت الرسالتان اللتان كانت قد كتبتهما فى عشية الهرب ، ولم تخبر وصيفتها احدا بشىء خوفا من غضب السيد والسيدة . والتزم القس ، وضابط الفرسان المتقاعد ، ومساح الارض المشورب ، والفارس الشاب من الخيالة الخفيف جانب الرزانة . وليس دون مقابل . اما الحوذى تيريشكا فلم يحدث ان افضى بشىء زائد عن اللزوم ، حتى وهو سكران . وهذا كتم السرَّ اكثرُ من نصف دزينة من المتواطئين . الا ان ماريا غفريلوفنا

نفسها افشت السر فى هذيان مستديم . ولكن كلماتها كانت متنافرة جدا ، حتى ان امها التى لم تغادر فراشها لم تستطع ان تفهم منها الا ان ابنتها كانت متيمـــة بفلاديمير نيقولايفيتش ، وان الحب ، ربمـــا ، كان السبب فى مرضها . وتشاورت مع زوجها ، ومع بعض الجيران ، وفى آخر الامر انتهـــى الجميـع الى قرار بالاجماع هو ان هذا كان حظ ماريا غفريلوفنا ، على ما يبدو ، وان الانسان يتزوج مَنْ كُتِبَ لـــه ان يتزوجه وان الفقر ليس نقيصة وان الانسان يعيش مع انسان وليس مع ثروة ، وما شابه ذلـــك . واحكام الاخلاق قد تكون مفيدة فائدة مذهلة فى الاحوال التى نكون فيها غير قادرين على ان نبتكر تبريرا لانفسنا .

وخلال ذلك أخذت الآنسة تتماثل الى الشفاء . وظل فلاديمير منقطعا عن بيت غفريلا غفريلوفيتش فترة طويلة . قرروا ان يُستدعوه ويبلغوه بالخبر السار المفاجئ : الموافقة على الزواج . ولكن كم كانت دهشة اصحاب ضيعة نينارادوفو عظيمة حين تلقوا منه فى الرد على دعوتهم رسالة شبه جنونية ! فقد أبلغهم ان قدمه لن تطا عتبة دارهم ابدا ، وطلب ان ينسوا البائس الذى يبقى الموت الامل الوحيد له . وبعد عدة ايام عرفوا ان فلاديمير قد رحل الى الجيش . وكان ذلك فى عام ١٨١٢ .

ظلوا زمنا طويلا يكتمون هذا الخبر عن ماشا الناقهة . ولم تكن ماشا تذكر فلاديمير قط . وبعد بضعة اشهر وجدت اسمه فى عداد مَنْ أبلوا بلاء حسنا قرب بورودينو وجرحوا جراحا بليغة . فاغمى عليها : وخشي اهلها ان تعود الحمى اليها . الا ان الاغماء ، والحمد لله ، لم يخلف عواقب .

ونزلت بها فاجعة اخرى . فقد قضى غفريلا غفريلوفيتش نحبه ، وخلفها وريثة وحيدة للضيعة كلها . الا ان الميراث لم يُسرّ عنها ، فشاطرت براسكوفيا بيتروفنا التعيسة مصابها عن اخلاص ، مُقسِمة اليمين على الا تفارقها ابدا . وتركت كلتاهما نينارادوفو ، موطنَ الذكريات الاليمة ، وسافرتا لتعيشا فى ضيعة ن . . . .

وفى هذه الضيعة ايضا حام الخطاب حول الآنسة الحلوة الثرية ، الا انها لم تعط احدا منهم اى امل . كانت امها تقنعها احيانا بان تختار لها صاحبا ؛ الا ان ماريا غفريلوفنا كانت تهز رأسها ، وتغرق فى تفكير . وكان فلاديمير قد فارق الدنيا ، فقد توفى فى موسكو عشية هجوم الفرنسيين . وصارت ذكراه مقدسة عند ماشا ؛ وعلى اقل تقدير حرزت على كل شيء يذكرها به : الكتب التى قرأها ، ورسومه ، والنوطات والاشعار التى استنسخها لها . وعندما عرف الجيران بكل ذلك ،

اعجبوا ببقائها على العهد ، وانتظروا بفضول البطل الذى لا بد ان ينتصر ، اخيرا ، على الوفاء المفجـــع لارتميزا * العذراء .

وفى غضون ذلك انتهت الحرب مكللة بالمجد ، وعادت افواجنا مـــن خارج الوطـــن . وخرج الناس لاستقبالها . وعزفت الموسيقى أناشيد البلدان المغلوبة عليها : Vive Henri-Quatre ** والحـــان الفالس التيرولية ، ومعزوفات من اوبرا جوكوندا . والضباط الذين خرجوا فى الحملة ، وهم صبيان تقريبا ، عادوا وقد نضجت رجولتهم فى جو الحرب ، وهم يعلقـــون النياشين فى صدورهم . وكان الجنود يتحدثون فيمـــا بينهم مرحين ، تتخلل كلامهم كلمات ألمانية وفرنسية من حين لآخر . فيا له من زمن لا ينسى ! زمن المجد والفرح الفاخر ! ما اشد خفقان القلب الروسى حين كان يسمع كلمة **وطن** ! وما أعذب دموع اللقاء ! وبأى اجماع كنا نربط بين مشاعر الفخر الشعبى والحـــب نحو القيصر ! ثم اية لحظة عظيمة كانت للقيصر !

---

* ارتميزا هى ارملة القيصر موزول فى هليقرنـــاس (اليونان القديمة ، القرن الرابع قبل الميلاد) كانت تعتبر رمزا للزوجة الوفية . (**الناشر** .)

** عاش هنرى الرابع . (**بالفرنسية** .)

كانت النساء ، النساء الروسيات ، آنذاك لا يُضارعن . اختفت برودتهن المألوفة . وكانت نشوتهن فتانة حقا ، حين كن يهتفن **مرحى !** لدى استقبالهن الظافرين .

والقين القلنسوات فى الهواء .

ومَنْ من الضباط آنذاك لا يقربانه كان مدينا للمرأة الروسية بافضل واثمن جائزة ؟ . .

فى ذلك الزمن الزاهى كانت ماريا غفريلوفنا وامها تعيشان فى ولاية ك ...، فلم تريا كيف احتفلت العاصمتان بعودة القوات . الا ان الفرحة العامة فى الاقضية والقرى ربما كانت اشد . فان ظهور ضابط فى تلك المناطق كان مهرجانا حقيقيا له ، والمعشوق فى ثياب مدنية سيء الحظ الى جواره .

كنا قد ذكرنا ان ماريا غفريلوفنا ، رغم برودتها ، كانت محاطة بالخُطّاب كالعادة . ولكن الجميع اضطروا الى التراجع حين ظهر فى حصنها العقيد الجريح بورمين من سلك الفرسان ، وقد علق فى عروته وسام غيورغى ، وران على وجهه **شحوب لطيف** ، كما قالت الاوانس هناك . كان فى نحو السادسة والعشرين من العمر . وحضر فى الاجازة الى ضيعته المجاورة لقرية ماريا غفريلوفنا . وقد فضلته ماريا غفريلوفنا كثيرا

على الآخرين . كان استغراقها المعتـــاد يزايلهـــا فى حضرته . لا يصح ان يقال انها كانت تغازله ؛ ولكن لو لاحظ الشاعرسلوكها لقال :

* Se amor non è, che dunque? ...

كان بورمين ، فى واقع الحال ، شابا لطيفا جدا . وكان له ذلك العقل الذى يعجب النساء : عقل يتســم بالرزانة والملاحظة ، دون اى ادعاء ، مع مسحة من الدعابة غير المكترثة . وكان سلوكه مع ماريا غفريلوفنا بسيطا وعلى السجية . الا انه كلما قالت قولا او فعلت شيئا كانت روحه وبصره يتابعانها . كان ذا مزاج هادئ متواضع ، الا ان اشاعة سرت تؤكد انه كان فى احـد الاوقات ماجنا مسرفا ، ولم يضر ذلك به فى نَظر ماريا غفريلوفنا التى كانت (مع جميع الشابات عامة) تغفر الشقاوات التى تنم عن جرأة الرجل وتوقده .

ولكن اكثر . . . اكثر ما شحذ فضولها وخيالها (اكثر من رقته ، واكثر من عذوبة حديثه ، واكثر من شحوبه اللطيف ، واكثر من ذراعه المشدودة) هو صمت هذا الفارس الشاب . انها ما كانت لتستطيع ان تفكر انه قد اعجب بها كثيرا ؛ ومن المحتمل انه هو ايضا ، بما وهب من عقل وخبرة ، ما كان يستطيع ان يغفل انها

---

* ان لم يكن حبا فما هو اذن ؟ (بالايطالية .)

كانت تخصه بعنايتها ، فكيف لم تره حتى الآن راكعا على قدميها ، ولم تسمع منه بوحا لها بالحب ؟ ماذا كان يمنعه ؟ الوجل الذى لا ينفصل عن الحب الحقيقى ، ام هى الانفة او دلال زير نساء ؟ كان ذلك لغزا لها . بعد ان تروت فى الامر قررت ان الوجل هو السبب الوحيد لذلك . وعزمت على تشجيعه باهتمام شديد ، وحتى بالرقة ، اذا اقتضت الظروف . وأعدت له تدبيرا غير متوقع تماما ، وانتظرت بنفاد صبر لحظة المكاشفة الرومانسية . والسر ، مهما يكن نوعه ، يثقل على قلب المرأة دائما . وأتت عملياتها العسكرية بالنجاح المطلوب : على الاقل ، سقط بورمين فى استغراق ، وكانت عيناه السوداوان تصوبان على ماريا غفريلوفنا نارا حامية حتى بدا ان اللحظة الحاسمة وشيكة الوقوع . واخذ الجيران يتحدثون عن الزفاف ، وكأنه امر مفروغ منه ، وفرحت براسكوفيا بيتروفنا الطيبة بان ابنتها عثرت اخيرا على عريس لائق .

وذات مرة كانت العجوز جالسة وحدها فى غرفة الجلوس تستخير ورق اللعب ، حين دخل بورمين الغرفة ، وسأل فى الحال عن ماريا غفريلوفنا . اجابت العجوز «انها فى الحديقة . اذهب اليها ، وسانتظركما انا هنا» . خرج بورمين ورسمت العجوز علامة الصليب ، وفكرت مع نفسها : يبدو ان الامر سينتهى اليوم !

وجد بورمين ماريا غفريلوفنا تحت شجـــــرة صفصاف عند البركة ، وفي يديها كتاب ، وقد ارتدت فستانا ابيض ، مثل بطلة روائية حقيقية . وبعـــد الاسئلة الاولى كفت ماريا غفريلوفنا عن مجاذبـــة الحديث عامدة ، لتزيد بذلك الارتباك المتبادل الذى لا يمكن التخلص منه الا بمصارحة مفاجئة حاسمة . وهذا ما حصل : فان بورمين ، وقد شعر بحراجـــة موقفه ، اعلن انه كان يتحين منذ وقت طويل فرصة ان يفتح قلبه لها ،وطلب ان تصغى اليه لحظة . اغقلت ماريا غفريلوفنـــا الكتـــاب ، واطرقت إمارة على الموافقة .

قال بورمين : «انـــا احبك ، متيّم بك ...» (توردت ماريا غفريلوفنا ، وزادت من اطراقـــة رأسها .) «تصرفت بلا حذر ، وانا استسلـــم لعادة حلوة ، عادة ان أراك واسمع صوتك كل يوم ...» (تذكرت ماريا غفريلوفنا رسالة St.-Preux * الاولى .) «والآن فات الاوان لمقاومة نصيبى ؛ ذكراك ، صورتك الفريدة الحبيبة ستكون منذ اليوم عذابا وفرحـــا لحياتى . ولكن بقى علىّ ان اقوم بواجب صعب ، ان اكشف لك عن سر رهيب ، وان اضع بيننا عقبـــة

* سانت-بريه . (بالفرنسية .)

منيعة . . .» افلت من ماريا غفريلوفنا بحيوية :
«انها كانت موجودة دائما . وما كان فى وسعى ان اكون
زوجتك قط . . .» أجابها بخفوت صوت : «أعرف ،
أعرف انك كنت تحبينه ولكن موته وثلاثة اعوام من
الحزن . . . يا ماريا غفريلوفنا الطيبة الحبيبة ! لا
تحاولى ان تحرمينى من عزائى الاخير : «التفكير بانك
من الممكن ان توافقى على اسعادى لو لا . . . اسكتى ،
بحق الرب ، اسكتى . انك تعذبيننى . نعم ، انا أعرف ،
أشعر بان من الممكن ان تكونى لى ، ولكننى أتعس
مخلوق . . . انا متزوج !»

حدقت ماريا غفريلوفنا فيه منذهلة .

وتابع بورمين كلامه :

ـ انا متزوج ، متزوج منذ اربعة أعوام ، وانا
لا أعرف مَنْ زوجتى ، ولا اين هى ، وهل سالتقى بها
يوما ما !

هتفت ماريا غفريلوفنا :

ـ ماذا انت قائل ؟ ما اغرب ذلك ! تابع
كلامك ؛ وسأخبرك فيما بعد . . . تابع ، ارجوك .

قال بورمين :

ـ فى بداية عام ١٨١٢ هرعت الى فيلنو ، حيث
كان فوجى . وذات مساء وصلت الى المحطة فى ساعة
متأخرة ، فطلبت ان تعد الخيول سريعا ، واذا بعاصفة

ثلجية مريعة تهب فجأة . فنصحنى المراقب والحوذية بان اتريث . فأستجبت لكلامهم ، الا ان قلقا غامضا استبد بى ، كأن شخصا كان يدفعنى دفعا . وفى غضون ذلك لم تهدأ العاصفة الثلجية ؛ ولم اصطبر ، وطلبت ثانية ان تعد الخيول ، وخرجت فى قلب العاصفة . عنّ للحوذى ان يسير بمحاذاة النهر الذى كان يجب ان يختصر طريقنا مسافة ثلاثة فراسخ . كانت شواطئه مخفية ، وفات الحوذى بالموضع الذى كان يجب ان نخرج منه الى الطريق ، وبذلك وجدنا انفسنا فى ناحية غريبة . كانت العاصفة لم تهدأ بعد ، ولمحت ضوءا ، فطلبت منه ان يتجه اليه . ودخلنا قرية ، ورأينا الضوء مشتعلا فى كنيسة خشبية . وكانت الكنيسة مفتوحة ، ووراء السياج بعض الزلاجات . وكان الناس يسيرون فى رواق الكنيسة . وصاحت عدة اصوات «الى هنا ! الى هنا !» . طلبت من الحوذى ان يقترب . قال لى احد الناس : «عجبا اين ضعت ؟ العروسة فى غيبوبة ، والراهب لا يعرف ماذا يفعل . وكنا نهم بان نعود ادراجنا . اسرع» . قفزت من الزلاجة صامتا ، ودخلت الكنيسة المضاءة بشمعتين او ثلاث ضوءا باهتا . كانت فتاة تجلس على مصطبة فى ركن من الكنيسة مظلم ؛ وكانت فتاة اخرى تفرك لها صدغيها . قالت هذه «حمدا لله أنك جئت اخيرا .

كادت الآنسة تموت» . واقترب القس العجـــوز منى سائلا «قل لى هل نبدأ ؟» اجبت انا فى ذهول «ابدأ ، ابدأ ، يا ابانا» . وانهضوا الفتاة . فرأيتها جميلة ... نزق مبهم لا يغتفر . . . وقفت الى جنبها امام مقرأ الكتاب المقدس ؛ وكان القس على عجالة من أمره ؛ وكان ثلاثة رجال ووصيفـــة يسندون العروســـة ، وينشغلون بها وحدها . وعُقِد قراننا . وقالوا لنا : «تبادلا القبل» . حولت زوجتى الىَّ وجهها الشاحب . وهممت بتقبيلها . . . واذا بها تصرخ «ياه ، ليس هو ! ليس هو !» ، وأُغمى عليها . سدد الشهود علىَّ عيونهم المذعورة . استدرت ، وخرجت من الكنيسة ، دون أن يعترضنى احد ، والقيت نفسى فى العربـــة ، وصحت «انطلق !»

صاحت ماريا غفريلوفنا :

ـ يا إلَهى ! وانت الا تعرف ماذا حصـــل لزوجتك المسكينة ؟

اجاب بورمين :

ـ لا أعرف ، لا أعرف اسم القرية التى تزوجت فيها ، ولا اتذكر المحطة التى جئت منها . فى ذلـــك الوقت لم أُول اعتبارا كبيرا لشقاوتى الآثمة حتى أننى غفوت بعد مغادرتى الكنيسة ، واستيقظت فى صباح اليوم التالى ، وانا فى المحطة الثالثة . والخادم الذى

كان معى آنذاك مات اثناء الحملة ، ولهذا فليس لى حتى امل العثور على تلك التى عبثت معها هذا العبث القاسى ، فانتقمت الآن هذا الانتقام القاسى .

قالت ماريا غفريلوفنا ، وهى تمسك يده :

ـ يا إلـَهى ، يا إلـَهى ! اذن ، كنت انت ! وانت لا تعرفنى ؟

شحب بورمين ... وارتمى على قدميها ...

صانع التوابيت

ألسنا نرى فى كل يوم توابيت
والعوالم الهرمة المتهاقة ؟
(من قصيدة **درجافين** «الشلال» .)

القيت الامتعة الاخيرة العائدة لصانع التوابيت ادريان بروخوروف فى عربة النعش ، وجرجر الفرسان الهزيلان نفسيهما للمرة الرابعة من شارع بسمانايا الى شارع نيكيتسكايا ، حيث انتقل صانع التوابيت بكل أهله . بعد ان اغلق دكانه ، وعلق على البوابة اعلانا يعلن فيه ان البيت معروض للبيع وللايجار ، سار ماشيا الى سكنه الجديد . واذ كان صانع التوابيت المسن يقترب من البيت الصغير الاصفر الذى ظل طويلا يداعب خياله ، حتى اشتراه اخيرا بمبلغ لا يستهان

به ، شعر بدهشة ان قلبه لم يفرح . عبر العتبة الجديدة عليه ، ورأى مسكنه الجديد فى فوضى ، فتحسر على كوخه المتداعى ، حيث كان كل شيء خاضعا لأدق نظام خلال ثمانية عشر عاما ؛ واخذ يشتم ابنتيه ، والخادمة على بطئهن ، وراح يساعدهن بنفسه . وبعد قليل استقر النظام واحتل صوان الايقونات ، ودولاب للاوانى ، ومنضدة ، واريكة ، وسرير اركانها المعينة فى الحجرة الخلفية ؛ ووضعت فى المطبخ وغرفة الجلوس مصنوعات رب البيت : توابيت من مختلف الالوان وشتى الحجوم، ودواليب تضم قبعات حداد، وعباءات، ومشاعل . وعلقت فوق البوابة لافتة تصور إله الحب الضخم والمشعل منقلب فى يده ، وقد كتب عليها : «هنا تباع وتبطن توابيت من مختلف الانواع ، بسيطة وملونة ، كما تؤجر التوابيت وتصلح التوابيت القديمة» . خرجت الفتيات الى حجرتهن ، وطاف صانع التوابيت فى بيته ، وجلس عند النافذة وامر ان يعد السماور .

يعرف القارئ المطلع أن شكسبير ووالتر سكوت كليهما صورا فى مؤلفاتهما حفارى القبور اناسا مرحين اصحاب نكتة ، لكى يثير هذا التناقض خيالنا على نحو اشد . واحتراما للحقيقة لا نستطيع نحن ان نجاريهما ، ونحن مضطرون الى الاعتراف بان خلق صانع توابيتنا

كان يتفق تمام الاتفاق مع مهنته الكئيبة . كان ادريان بروخوروف فى العادة جهم الاسارير ، غارقا فى افكاره . فكان لا يخرج عن الصمت الا حين يوبخ ابنتيه ، عندما كان يجدهما تنظران فى النافذة الى المارة دون عمل ، او حين يطلب ثمنا فاحشا على مصنوعاته من اولئك الذين حلت بهم مصيبة (واحيانا لذة) الاحتياج اليها . وهكذا كان ادريان ، على عادته ، غارقا فى تأملاتــه الكئيبة ، وهو جالس عند النافذة يرشف القدح السابع من الشاى . كان يفكر فى المطر المدرار الذى اصاب ، قبل اسبوع ، موكب تشييع عميد متقاعد ، عند بوابة المدينة تماما . ومن جراء ذلك انكمشـــت عباءات كثيرة ، وتجعدت قبعات عديدة . وكان يتوقع مصاريف لا محيص عنها ، لان مخزونه القديم من الحلل الجنائزية كان فى حالة يرثى لها . وكان يأمل ان يقتطع الضرر من التاجرة العجوز تريوخينا ، التى كانت على حافــة الموت منذ عام تقريبا . الا ان تريوخينا توفيت فى شارع رازغولاى ، وكان بروخوروف يخشى ان يتكاسل ورثتها ، رغم وعدهم ، فلا يرسلون فى طلبه من هذه المسافة الطويلة ،وان يتعاملوا مع اقرب مقاول اليهم .

وقطعت هذه الافكارَ ثلاثُ ضربات **فرانماسونية** * مباغتة على الباب . سأل صانع التوابيت : «من هناك ؟» فُتح الباب ودخل الى الحجرة رجل يمكن ان يعرف ، من النظرة الاولى ، انه حِرفى المانى ، واقترب من صانع التوابيت بمظهر مرح ، وقال بلغة روسية لا نستطيع حتى الآن ان نسمعها دون ان نضحك : «العذر ، يا جارى الطيب ، العذر على ازعاجك . . . رغبت ان اتعارف معك فى وقت اسرع . انا اسكاف ، واسمى غوتليب شولتس ، وأسكن قبالتك من الشارع ، فى ذلك البيت الصغير المقابل لنوافذك . وغدا سأحتفل بعيد زواجى الخامس والعشرين ، وانا ادعوك وابنتيك الى تناول طعام الغذاء عندى كا صدقاء» . وقبلت الدعوة قبولا حسنا . دعاه صانعُ التوابيت الاسكاف الى احتساء قدح من الشاى . وسرعان ما اخذ الرجلان يتجاذبان الحديث الودى بفضل مزاج غوتليب شولتس المنبسط . سأل ادريان : «كيف شغل حضرتك ؟» اجاب شولتس : «بين بين . لا يمكننى ان اشكو . رغم ان بضاعتى ليست مثل بضاعتك ، طبعا . فالحى يستطيع ان

* نسبة الى الكلمة الفرنسية لجمعية عالمية سرية بهذا الاسم . والضربات الثلاث على الباب احدى شعائر هذه الجمعية . **(المترجم .)**

يستغنى عن الحذاء ، بينما الميت لا غنى له عـــن تابوت » . فلاحظ ادريان قائلا : « نـِعـْمَ الحق . ولكن اذا كان الحى لا يستطيع ان يشترى حذاء ، ويستطيع ، وأرجو المعذرة ، ان يمشى حافيا ، فان الميت الفقير سيحصل لنفسه على تابوت بالمجان » . واستمر الحديث بينهما بهذه الصورة بعض الوقت حتى نهض الاسكاف اخيرا ، وودعّ صانع التوابيت معيدا عليه دعوته .

وفى تمام الساعة الثانية عشرة من اليوم التالى خرج صانع التوابيت وابنتاه من باب سيـــاج البيت المشترى حديثا ، واتجهوا الى جارهم . وانا لا اريد ان اصف لا القفطـــان الروسى الذى ارتداه ادريـــان بروخوروف ، ولا الزى الاوروبى الذى ارتدته اكولينا وداريا ، متخليا فى هذه الحال عن العادة المتبعة لدى الروائيين اليوم . وافترض ، على كل حال ، انْ ليس من فضول القول ان يُذكر ان كلتـــا الآنستين كانت ترتدى قبعـــة صفراء ، وحذاء احمر ، وكانت هذه زينتهما فى الاحتفالات وحدها .

كانت شقة الاسكاف الصغيرة غاصة بالضيوف ، ومعظمهم حرفيون المان مع زوجاتهم ومعاونيهم . ولم يكن حاضرا من الموظفين الروس غير شرطى كشـــك خفارة ، هو الفنلندى يوركو ، كانت لـــه قدرة على كسب ود رب البيت بشكل خاص ، رغم ضآلة رتبته .

وقد خدم خمسة وعشرين عاما فى نفس الرتبة باخلاص وانصاف مثل شخصية ساعى بريد لبوغوريلسكى . وكان حريق عام ١٨١٢ قد أتى على كشكه الاصفر ايضا بعد ان قضى على العاصمة * . ولكن ما ان طُرِد العدو حتى ظهر فى مكانه كشك جديد رمادى له اعمدة صغيرة بيضاء على الطراز الدورى . وعاد يوركو ثانية يروح ويجىء بالقرب منـــه **مسلحا ببلطة حربية ، ومزوَّدا بسترة جوخ** . وكان يعرف طائفـــة كبيرة من الالمان الذين كانوا يعيشون بالقرب من بوابـــة نيكيتسكيه ، بل وكان بعضهم يصادف ان يقضى عنده ليلة الاحد على الاثنين . تعرف ادريان عليه فى الحال ، كشخص قد يحتاج اليه عاجلا او آجلا ، وحينما دُعِى الضيوف على المائدة ، جلسا سويـــة . وكان السيد والسيدة شولتس وابنتهما لوتخن ، وهى فى السابعة عشرة يتغدون مع الضيوف ، ويقدمون اليهم اطبـــاق الطعام ، وفى الوقت ذاته يساعدون الطباخة فى الخدمة . صبت الجعة بغزارة . وأكل يوركو ما يشبع اربعة اشخاص ؛ ولم يكن ادريان باقل منه أكلا ؛ وخجلت ابنتاه ؛ وصار الكلام بالالمانية يزداد صخبا من ساعة

---

* يقصد موسكو فى حريق ١٨١٢ اثنـــاء حملـــة نابليون . (**المترجم** .)

الى اخرى . وفجاة طلب رب البيت انتباه الحضور ، وهتف بالروسية وهو يفتح سداد زجاجة مختومة : «فى صحة زوجتى الطيبة لويزا !» وارسل نبيذ كالشمبانيا زبده . وقبّل المضيف برقة وجه زوجته الغض ، وهى فى الاربعين من عمرها ، وشرب الضيوف فى صخب نخب صحة لويزا الطيبة . وهتف المضيف ، وهو يفتح سداد الزجاجة الثانية : «فى صحة ضيوفى الطيبين !» وشكره الضيوف ، وهم يفرغون كؤوسهم من جديد . وبعد ذلك اخذت الانخاب تتوالى واحدا بعد الآخر . شربوا نخب صحة كل ضيف على حدة ، وشربوا نخب موسكو ، ومجموعة من المدن الالمانية ، وشربوا نخب اتحادات الحرفيين مجموعة ، وعلى حدة ، وشربوا نخب الصناع ، واعوان الصناع . وشرب ادريان بحماس ، وغلبه المرح حتى أقترح بنفسه نخبا من الانخاب المازحة . وفجأة رفع احد الضيوف ، وهو خباز سمين ، قدحه ، وهتف : «فى صحة الذين نعمل لهم ، unserer Rundleute! * » وحظى الاقتراح بفرح واجماع ، مثل جميع الانخاب . وأخذ الضيوف يتبادلون التحيات . الخياط للاسكاف ، والاسكاف للخياط ، والخباز لكليهما ، والجميع للخباز ، وعلى

* زبائننا . (**بالالمانية .**)

هذا المنوال . وهتف يوركو وسط هذه التحيـــات مخاطبا الجالس الى جنبـــه : «اذن ؟ اشرب ، يا صاحبى ، فى صحة موتاك» . وقهقه الجميع . ولكن صانع التوابيت اعتبر نفسه قد أُهين ، وتجهمً . ولم يلاحظ احد ذلكَ ، وأستمر الضيوف فى شربهم ، ولم ينهضـــوا من المائدة الا حين دقت اجراس الكنائس تدعو الى صلاة المساء .

تفرق الضيوف فى ساعة متأخرة ثملين فى جزئهم الاعظم . وأمســـك الخباز السمين ومجلد الكتب الذى كان وجهه

مثل سفر مجلد بجلد أحمر ،

يوركو ، وحملاه من تحت ابطيه الى كشكه ، مراعين فى الوقت ذاته المثل الروسى القائل : الدين يُرد بمثله . وعاد صانع التوابيت الى بيته سكران وغضبان . وناقش بصوت مسموع : «ما الذى يجعل مهنتى اســـوأ من الاخريات ؟ وهل صانع التوابيت صنو الجلاد حقا ؟ لماذا اضحك هؤلاء الكفار ؟ أحق ان صانع التوابيت مضحك الاعياد ؟ وددت ان ادعوهم لحفلـــة تدشين بيتى الجديد ، وأولم لهم وليمـــة فاخـــرة ، ولكن لم يحصل ، لا يهم ! سأدعو الذين اعمل لهم : الموتى المؤمنين» . قالت الخادمـــة التى كانت تخلع حذاءه

آنذاك : «ما هذا ، يا صاحبى ؟ ما هذا السخف ؟ استغفر الرب ! تدعو الموتى لتدشين البيت ! يا لها من نزوة !» فأستمر ادريان يقول «والرب العظيم ، سأدعوهم ، فى يوم غد بالذات . ارجوكم ، يا اصحابى البررة ، غدا سأولم لكم فى المساء ، اضيفكم على ما يُرزق الرب» . وبهذه الكلمة أوى صانع التوابيت الى السرير ، وسرعان ما شخر .

وأُوقظ ادريان والظلام ما يزال متلبدا . فقد كانت التاجرة تريوخينا قد قضت نحبها فى نفس الليلة ، وهرع رسول من وكيلها على فرس ليبلغ ادريان النبأ . ولقاء ذلك قدم له صانع التوابيت عشرة كوبيكات ليشرب الفودكا ، واسرع هو فى ارتداء ملابسه ، واستأجر عربة وتوجه الى شارع رازغولاى . كان شرطى قد وقف عند باب المتوفية ، والتجار رائحون وغادون مثل غربان تشممت فطيسة . وكانت المتوفاة مسجّاة على منضدة ، صفراء كالشمع ، ولكن لم يشوهها التعفن بعد . وكان الاقارب والجيران واهل البيت يتزاحمون حولها . وكانت النوافذ كلها مفتوحة ؛ والشموع مضاءة ؛ والقسس ينشدون التراتيل . اقترب ادريان من ابن اخى تريوخينا ، وهو تاجر شاب يرتدى سترة عصرية طويلة ، واعلن له ان التابوت ، والشموع ، وغطاء التابوت ، ولوازم الدفن الاخرى

سترسل له فى الحال على اكمل وجه . شكره الوريث ذاهلا ، بعد ان قال انه لا يماحك فى السعر ، وانه سيعتمد على ضميره فى كل شىء . فأقسم صانع التوابيت ، كعادته ، على انه لن يأخذ زيادة ؛ وتبادل نظرة ذات دلالة مع الوكيل ، وانصرف لشأنه . وقضى النهار كله بين رواح ومجىء من شارع رازغولاى الى بوابة نيكيتسكيه ؛ ولما حلّ المساء كان قد دبرّ كل شىء ، وقفل راجعا الى بيته ماشيا بعد ان صرف سائق عربته . كان الليل مقمرا ، ووصل صانع التوابيت بوابة نيكيتسكيه سالما . وعند كنيسة خميس الصعود ناداه صاحبنا يوركو ، وبعد ان عرف انه صانع التوابيت تمنى له ليلة سعيدة . كان الوقت متأخرا ، وكان صانع التوابيت يقترب من بيته ، حين أحس فجأة بان شخصا يدنو من باب بيته الخارجى ، ويفتحه ، ويختفى فيه . فكر ادريان مع نفسه «ما معنى هذا ؟ مَنْ هو بحاجة الىّ بعد ؟ ام ذاك لص تتسلل الىّ ؟ ام العشاق يأتون الى ابنتىّ الحمقاوين ؟ محتمل !» وفكر صانع التوابيت ان يستصرخ بصاحبه يوركو لينجده . وفى تلك اللحظة اقترب شخص آخر من الباب ، وهمّ بالدخول ، الا انه توقف حين رأى رب البيت يركض ، وخلع قبعته المثلثة . وبدا وجهه لادريان مالوفا ، ولكنه لم يلحق لعجالته ان يمعن

النظر فيه . قال ادريان لاهث الانفاس : «اهلا ومرحبا بكم فى دارى . ادخل ، ارجوك» فقال الرجل بصوت خافت : «لا حاجة الى المجاملة ، يا صـــاح ، سر فى المقدمـــــة ، ودلّ الضيوف على الطريق !» ولم يكن ادريان بحاجة الى مجاملة قط . كان الباب مفتوحا ، فأرتقى ادريان الدرج ، والرجـــل وراءه . وخيل الى ادريان ان اناسا يطوفون فى الحجرات . وفكر مــع نفسه «يا للعجب !» واسرع فى الدخول ... واذا برجليه تخونانه . كانت الحجرة مملوءة بالموتى . وكان القمر من خلال النافذة ينير وجوههـــم الصفراء والزرقاء ، وافواههم الغائرة ، وعيونهم المربدة نصف المفتوحـــة ، وانوفهم البارزة ... وعرف ادريان فى شخوصهم مذعورا اولئك الذين دفنهم بمساعيه ، وكان الرجل الذى دخل معه هو العميد الذى دفن اثناء المطر المدرار . واحاطوا جميعا ، نساء ورجالا ، بصانـــع التوابيت محيين مرحبين ، ما خلا فقيرا واحدا كان قد دفنه مجانا قبل وقت قصير لم يقترب منه حييا خجلا من اسماله ، وظل واقفا فى الزاوية وديعا . اما الباقون فكانوا يرتدون ألبسة لائقة : المتوفيـــات معتمرات بقلانس ذات شرائط ، والموظفون الموتى ببزاتهـــم الرسمية ، الا انهم بلحى غير مشذبة ، والتجـــار فى قفاطين الاعياد . قال العميد نيابة عن الحضور :«ها

انت ترى ، يا بروخوروف ، انّنا نهضنا لدعوتك ؛ ولم يبق فى الدار غير الذين لا حول لهم ، والذين تفسخوا كليا ، ولم يبق غير العظم بلا جلد ، وحتى بين هؤلاء لم يصطبر احدهم ورغب فى ان يزورك ...» وفى هذه اللحظة انسل هيكل عظمى صغير من خلال الحشد ، واقترب من ادريان . كانت جمجمته تبتسم لصانـــع التوابيت ابتسامة رقيقـــة . وكانت مزق من الجوخ الاخضر اليانع والاحمر والكتان الرث تتدلى عليـــه ، وكأنها على عصا ، وعظام قدميه تطقطق فى حذاء ركوب طويل ، مثل يد هاون فى هاون . وقال الهيكل العظمى : «انت لم تعرفنى ، يا بروخوروف ، أتذكر رقيب الحرس المتقاعد بيتر بيتروفيتش كوريلكين ، الذى بعت له فى عام ١٧٩٩ اول تابوت من صنعك وقلت إنه من خشب البلوط بينما هو من الصنوبر ؟» وبهذه الكلمة بسط الميت له ذراعيه العظميتين ، الا ان ادريان جمع قواه ، وصرخ ، ودفعـــه . ترنّح بيتر بيتروفيتش ، ووقع متهافتا قطعا قطعا . سرت بين الموتى همهمة الاستياء ، ووقفوا جميعا يذبون عن شرف صاحبهم ، وانهالوا على ادريان بالشتائم والوعيد ، وخارت عزيمة رب البيت المسكين ، الذى اصمه صياحهم ، وكاد يسحق ، فوقع هو ايضا على عظام رقيب الحرس المتقاعد ، وفقد وعيه .

كانت الشمس قد اضاءت منذ وقت طويل السرير الذى كان يرقد عليه صانع التوابيت . وفى آخر الامر فتح عينيه ، ورأى الخادمة امامه تنفخ فى السماور . وتذكر ادريـــان بذعر كل احداث الامس . وكانت تتراءى فى خياله تريوخينـــا ، والعميد ، والرقيب كوريلكين بشكل باهت . وأنتظر صامتاً ان تبدأ الخادمة بالحديث معه ، وتبلغه بعواقب مغامرات البارحة .

قالت اكسينيا ، وهى تقدم له المبذل :

ـ نمت نوما طويلا ، يا ادريان بروخوروفيتش . زارك جارك الخياط ، وجاء شرطى الخفارة فى الكشك القريب ليبلغك ان اليوم هو عيد ميلاد رئيس مركز الشرطة فى منطقتنا ، ولكن رحت نائمـــا فلم نرد ان نوقظك .

ـ هل جاء احـــد الىّ من بيت المرحومـــة تريوخينا ؟

ـ مرحومة ؟ أحق انها ماتت ؟

ـ يا لك من حمقاء ! ألم تساعدينى انت البارحة فى الاعداد لجنازتها ؟

ـ ما هذا الذى تقوله ؟ هل اصابك مس ، ام سكر البارحة لم يزايلك بعد ؟ اية جنازة كانت البارحة ؟ قضيت نهارك كله فى وليمة الالمانى ، وعدت سكران ،

وارتميت فى السرير ، ونمت حتى هذه الساعة ، وقد حلَّ الضحى .

فغمغم صانع التوابيت فرحا :

ـ حقا !

اجابت الخادمة :

ـ مؤكد .

ـ اذن ، قدمى الشاى سريعـــا ، ونادى على ابنتىَّ .

ناظر المحطة *

موظف من درجة دنيا
دكتاتور لمحطة الخيول .

(من قصيدة « المحطة » **للامير فيازيمسكى .)**

مَنْ لم يلعن نظار المحطات ، ومن لم يتبادل السباب معهم ؟ ومَنْ لم يطلب منهم ، فى ساعة غضب ، سجل الشكاوى ليسجل فيه شكواه غير المجدية على الاستبداد ، والغلظة والتقصير ؟ ومَنْ لا يعتبرهم غيلان الجنس البشرى ؟ ومع ذلك فسنكون منصفين ، ونحاول ان نتفهم وضعهم ، وربما سنحكم عليهم حكما اكثر هوادة . ما هذا الذى يسمى ناظر المحطة ؟ انه شهيد حقيقى من الدرجة الرابعة عشرة حصنته وظيفته من الضربات الجسدية فقط ، وحتى

* المقصود فى ذلك محطة خيول . **(المترجم .)**

هذا ليس دائما (مستشهدا بضمير قرائى) . وما هى
وظيفة هذا الدكتاتور ، كما يسميه الامير فيازيمسكى
مازحا ؟ أليست اشغالا شاقة حقيقية ؟ لا راحة فى
نهار ولا فى ليل . المسافر يصب كل غضبه الـــذى
تجمع خلال السفر المضجر على ناظر المحطة . والطقس
لا يطاق ، والطريق وعرة ، والسائق عنود ، والخيول
لا تجر ، ولكن ناظر المحطة هو المذنب . والمسافر ،
اذ يدخل بيته البائس ، ينظر اليه ، وكأنه ينظر الى
عدو ؛ ولطيف لو استطاع ان يتخلص بسرعة من هذا
الضيف غير المدعو ؛ ولكن المعاذ بالله ! اذا لا توجد
خيول ؟.. اية شتائم ، واية تهديدات تنصب على
رأسه ! وهو فى المطر وفى الوحل مضطر الى ان يركض
متنقلا من بيت الى بيت ، يخرج من البيت الى الرواق
فى زمهرير الشتاء اثناء العاصفة الثلجية والصقيـــع
القارس ليستريـــح لدقيقـــة مـــن الزمن من صياح
النازل المحنّق ودفعاته . وحين يأتى جنرال يقـــدم
ناظر المحطة المرتجف الخيول الاخيرة ومن بينها تلك
الخيول السريعة المعدة خاصة لسعاة الحكومة . ويغادر
الجنرال دون كلمة شكر . وبعد خمس دقائق يرن
جرس !.. واذا بساعى الحكومة يلقى على طاولته
امرا باستبدال الخيول !.. عندما نتروى بكل ذلك
جيدا ، تمتلىٔ قلوبنا بالألم الصادق ، بدلا من الغيظ .
ثم لنقل بعض الكلمات الاخرى : خلال عشرين عامـــا

متوالية طوَّفت فى روسيا فى كل حدب وصـــوب ؛ وعرفت طرق السفر البريدية كلها تقريبا . وتعرفت على بضعة اجيال من سائقى العربات ؛ واكاد اعرف كل الحوذية فى وجوههم ، ونادرا ما لم اتعامل مع احد من نظار محطة . وانا آمل ان انشر ذخيرتى الطريفة من مشاهداتى فى اسفارى فى وقت ليس بالبعيد ؛ واكتفى الآن بالقول ان فئة نظار المحطات تُصوَّر اكــذب تصوير لدى الرأى العام . ان نظار المحطات هؤلاء المفترى عليهم هم ، فى جوهر الامر ، اناس وديعون خدومون بالطبيعة ، ميالون الى العشرة ، متواضعون فى مطامحهم فى الاحترام ، وغير مسرفين فى حب المال . ومن احاديثهم (التى ينفر منها السادة المسافرون مع الأسف) يمكن استخلاص الكثير من الاشياء الطريفـــة والتهذيبية . اما بالنسبة لى ، فانا اعترف بانى افضل حديثهم على احاديث موظف مـــن الدرجة السادسة ، ذاهب فى مهمة رسمية .

من الممكن الحدس بسهولة ان لى اصحابا مـــن فئة نظار المحطات المحترمة . والحق ان ذكرى واحد منهم عزيزة علىَّ . وقد شاءت الظروف ذات يوم ان تقرب بينى وبينه ، وانا اود الآن ان احدث القـــراء الافاضل عنه .

فى شهر ايار من عام ١٨١٦ كان علىَّ ان أمرَّ

عبر ولاية س ... ، فى طريق مهدم الآن . وكنت فى وظيفة صغيرة ، فكنت اسافر فى عربة استبـــدال فى المحطات . كنت ادفع أجرة استبدال حصانين . وتبعا لذلك كان نظار المحطات يرفعون الكلفة معى ، فغالبا ما كنت آخذ بالعراك ما كنت اعتبره حقا لى . ولما كنت شابا حاد المزاج كنت احنق على دناءة ناظـــر المحطة وجفائه حين كان هذا يعطى الخيول المعدّة لى لتشد الى عربة موظف من الطبقة الراقية . كما بقيت زمنا طويلا غير متعود على ان يتخطانى خادم فطن عن قصد ليقدم الطعام الى من هم اعلى رتبة منى اثنـــاء الغداء على مائدة الحاكم . واليوم يبدو لى هذا وذاك من طبيعة الاشياء . وفى الواقع ماذا سيكون معنا لـــو استبدلت العادة المتعارف عليها القائلة : **المنزلة حسب الرتبة** بأخرى من مثل **المنزلة حسب العقل** ؟ وايـــة مناقشات ستنشأ ! وبمن سيبدأ الخدم فى تقديـــم الطعام ؟ ولكن لاعد الى قصتى .

كان النهار حارا . وعلى بعد ثلاثة فراسخ مـــن محطة ب ... بدأت السماء ترذ رذاذا ، وبعد بضع دقائق كان المطر المدرار قد بللنى الى آخر خيط فى ملابسى . وعند وصولى الى المحطة كان اول شغل لى هو استبدال ملابسى باسرع وقت ، والثانى طلب احضار الشاى . صاح ناظر المحطة : «يا دونيـــا ! اعدى

5—1009

السماور ، ثم اذهبى لاحضار القشطة » . وبهذه الكلمات خرجت من وراء الحاجز فتاة فى حوالى الرابعة عشرة ، وركضت الى الرواق . بهرنى جمالها . فسألت ناظر المحطة : « أهذه ابنتك ؟ » اجاب بقدر كاف من الزهو : « انها ابنتى . ثم انها مدبرة ، خفيفة الحركة ، مثل المرحومة امها تماما » . وبعد ذلك أخذ يسجل الامر الذى احمله لاستبدال الخيول ، واخذت انا انشغل بالتطلع الى الصور التى كانت تزين مسكنه المتواضع ، والنظيف فى الوقت ذاته . وهى صور تصور قصة الابن الضال : فى الصورة الاولى الشيخ الموقّر فى طرطور ومبذل منزلى وهو يفسح الطريق لشاب بادى الانفعال ، عجولا فى تلقى بركاته وكيس النقود . والصورة الثانية تصور بخطوط ساطعة سلوك الفتى الداعر : فهو جالس الى مائدة محاطا باصدقاء مزيفين ونساء مستهترات . وفى اخرى الفتى الذى بذر ثروته فى رداء خشن وقبعة مثلثة يرعى الخنازير ، ويقاسمها الطعام ؛ وقد ارتسم على وجهه الحزن العميق والندم . واخيرا صورت عودته الى ابيه ؛ الشيخ الطيب فى نفس الطرطور والمبذل المنزلى يهرع للقياه : الابن الضال العائد راكع على ركبتيه ؛ وفى المشهد يظهر الطاهي ينحر عجلا سمينا ، والاخ الكبير يسأل الخدم عن سبب هذا الفرح . وقرأت تحت كل صورة اشعارا

المانية معتبرة . وكل ذلك قد انطبع فى ذاكرتى حتى اليوم ، مثلما انطبعت القدور بزهورها المنزليــــة ، والسرير بستارته الزاهية ، وغير ذلك من الاشيـــــاء التى احاطت بى آنذاك . وأرى ، وكأنـــه الآن ، رب البيت نفسه ، وهو رجل فى الخمسين من العمر ، غضا نشيطا ، وسترته الطويلـــة الخضراء تتدلى عليها ثلاث مداليات فى اشرطة ناصلة اللون .

وقبل ان أنتهى من دفع الأجرة لسائقى القديـــم عادت دونيا تحمل السماور . ومن النظرة الثانيـــــة لاحظت المليحة الصغيرة التأثير الذى تركته فىَّ ؛ غضت عينيها الزرقاويين الكبيرتين ؛ واخذت اتحدث اليها ، فكانت تردُّ دون أيما تهيب ، مثل فتاة رأت الدنيا . قدمت لابيها قدح شراب ، ولها كوب شاى ، واخذنا ، ثلاثتنا ، نتجاذب اطراف الحديث ، وكأننا اصحاب منذ زمان .

كانت الخيول قد اعدت منذ وقت طويل ، وما زلت لا اجد فى نفسى الرغبة فى فراق ناظر المحطـــة وابنته . وفى آخر الأمر توادعت معهمـــا ، فتمنى لى الاب سفرا ميمونا ، ورافقتنى الابنة الى العربـــة . توقفت فى الرواق ، وسألتها ان تأذن لى بتقبيلها . وافقت دونيا ... وفى وسعى ان أعدد الكثير من القبل:

منذ ان دابت عليها ،

ولكن لم تخلف واحدة غيرها فى نفسى مثل هذه الذكرى الممتعة طوال هذا الزمن .

انقضت عدة اعوام ، قادتنى الظروف الى ذلك الطريق نفسه ، والى تلك الاماكن ذاتها . تذكرت ابنة ناظر المحطة العجوز وسررت من فكرة رؤيتها مـرة اخرى . ولكن فكرت فى احتمال ان يكون ناظر المحطة العجوز قد استبدل بشخص آخر ، ومن المحتمل ان تكون دونيا قد تزوجت . والى جانب ذلك فكرت فى ان يكون هذا او تلك قد وافاه الاجل ، فدنوت مـن المحطة ب ... بتوجس حزين .

توقفت الخيول عند مبنى البريد الصغير ، ودخلت انا الغرفة ، وتعرفت فى الحال على الصور التى تحكى قصة الابن الضال العائد ؛ وكانت الطاولة والسريـر يقفان فى مكانيهما السابقين ؛ الا ان النوافـذ كانت خالية من الزهور المنزلية ، وكان البلى والاهمـال يشيعان فى كل شىء . كان ناظر المحطة ينـام تحت فروة خروف ؛ وقد ايقظه قدومى ؛ فرفع جسمـه قليلا ... لقد كان هو سامسون فيرين نفسه ؛ ولكن لشدّ ما شاخ ! بينما كان يتهيأ ليسجل امر استبدال الخيول تمعنت انا فى شيبه ، وفى الغضون العميقة على وجهه غير الحليق ، وفى الظهر المحدودب ، وانـا لا اتمالك نفسى عجبا من ان تستطيـع ثلاثة اعوام او

اربعة ان تحول رجلا جمّ النشاط الى عجوز هرم . سألته : «هل عرفتنى ؟ نحن متعارفان منذ زمان» . اجاب جهما : «من المحتمل . فان الطريق هنا كبيرة ، وكثيرون من المسافرين نزلوا عندى» . فأردفت اسأله : «كيف صحة ابنتك دونيا ؟» تعبّس العجوز ، واجاب : «الله يعلم» . قلت : «اذن ، فقد تزوجت ؟» تظاهر العجوز بانه لم يسمع سؤالى ، وواصل قراءة الامر همسا . كففت عن اسئلتى ، وطلبت ان يعد الشاى . وبدأ حب الاستطلاع يضايقنى ، فأملت ان يفك الشراب عقدة لسان صاحبى العجوز .

ولم اكن على خطأ . فان العجوز لم يرفض القدح الذى قدمته له . ولاحظت ان الشراب صفّى عبوس وجهه . وفى القدح الثانى صار طلق اللسان . تذكرنى او تظاهر بذلك ، وعرفت منه القصة التى شغلتنى فى وقتها ، وتأثرت بها . بدأ حديثه :

«اذن ، فانت تعرف ابنتى دونيا ؟ ومَنْ لم يعرفها ؟ آه ، دونيا ، دونيا ! اية فتاة كانت ! كان كل مسافر يثنى عليها الوان الثناء ، ولا يعيبها فى شىء . كانت السيدات يقدمن لها الهدايا ، منديلا مرة ، وقرطين مرة اخرى . وكان السادة من المسافرين يتعمدون التوقف متظاهرين بانهم يريدون تناول الغذاء ، او العشاء ، وهم فى واقع الامر لا يرومون غير

اطالة النظر اليها . وصاحب المقام ، مهما يكن مغضبا ، يهدأ فى وجودها ، ويتحدث معى بلطف . صدقنى ، ايها السيد ، ان السعاة ورسل الحكومة المستعجلين كانوا يتحدثون معها نصف ساعة . كان البيت يقوم عليها : فهى تنظف ، وتُطهى ، وتنجز كل شىء . اما انا ، العجوز الاحمق ، فكنت اديم النظر اليها واكحل ناظرى برؤياها . فقد كنت عظيم الحب لابنتى دونيا ، كثير المداعبة لها ، فأية حياة كانت لها ؟ ولكن الدعوات لا ترد مصيبة ، وما هو مكتوب لك لا محيص لك عنه » . وهنا أخذ يقص عليه مصيبته بالتفصيل .ـ فى امسية شتائية قبل ثلاثة اعوام ، بينما كان ناظر المحطة يخطط كتابا جديدا ، وابنته تخيط لها ثوبا وراء الحاجز ، وصلت عربة ترويكا ، ودخل المسافر الغرفة فى قبعة جركسية ، ومعطف عسكرى ، ملتفا فى لفاح ، وطلب ان يجهز بالخيول . كانت الخيول كلها خارجة فى سفر . ولما سمع المسافر بهذا الخبر رفع صوته وسوطه . الا ان دونيا ، وقد الفت هذه المشاهد ، خرجت من وراء الحاجز ، وتوجهت الى المسافر سائلة اياه فى لهجة رقيقة هل يرغب فى ان يصيب طعاما ؟ وكان لظهور دونيا اثره المألوف . زال غضب المسافر ، ووافق على انتظار الخيول ، وطلب ان يحضر له العشاء . خلع قبعته المبللة

الشعثاء ، وحلّ اللفاح ، ونزع المعطف ، فبدا شابا ، فارسا رشيقـــا ذا شاربين اسوديـــن . ونــزل فى بيت ناظر المحطة ، وشرع يتحدث معه ومع ابنته بمرح . قُدِّم العشـــاء ، وفى غضون ذلك وصلت الخيول ، وامر ناظر المحطة بالاّ يقدم لها العلف ، وان تشد الى عربة المسافر فى الحال . ولكن لـدى عودته رأى الشاب راقدا على تخت خشبى دون وعى تقريبا : فقد اصيب بتوعك ، بسبب صداع طــرأ عليه ، وكان من غير الممكن ان يتابع سفره ... ما العمل ! تنازل ناظر المحطة له عن سريره ، وكان ينبغى ، اذا لم تتحسن صحة المريض ان يُرسل فى اليوم التالى لاستدعاء الطبيب من س ...

فى اليوم التالى كانت حالة الفارس اسوأ . وقد سافر خادمه على حصان الى المدينة لاستدعاء الطبيب . عصبت دونيا رأس المريض بمنديل مبلل بالخل ، وجلست عند سريره ومعها خياطتها . كان المريض فى حضرة ناظر المحطة يتأوه ، ولا يكاد ينبس بكلمـــة واحدة ، الا انه شرب قدحين من القهوة ، وطلب ، وهو يتأوه ، ان يعد الغداء له . ولم تبتعد دونيا عنه . كان بين لحظة واخرى يطلب ان يشرب شيئا ، فكانت دونيا تجلب له قدح شراب الليمون الذى اعدتـــه بنفسها . كان المريض يبلل شفتيه ، وفى كل مرة عندما

يعيد فيها القدح كان يضغط بيده الضعيفة على يـــد دونيا ، إمارة على الامتنان . ووصل الطبيب عنـــد الغذاء . جسّ نبض المريض ، وتحدث معه بالالمانية ، واعلن بالروسية انه يحتاج الى الهدوء فقط ، وبعد مضي يومين او نحوهما ليستطيع ان يواصل السفر . سلّمه الفارس خمسة وعشرين روبلا لعيادته ، ودعاه الى تناول طعام الغذاء . وافق الطبيب ، وأكل كلاهما بشهية كبيرة ، واحتسيا زجاجة نبيذ ، وافترقـــا واحدهما راض عن الآخر كثيرا .

انقضى يوم آخر ، وشفى الفارس تماما . كان فى غاية المرح ، وقد تمازح بلا انقطاع تارة مع دونيا ، وتارة مع ناظر المحطة ؛ وصفر الحان اغنيات ، وتحدث مع المسافرين ، وسجل فى سجل البريد اوامرهـــم فى التزود بالخيول ، وقد احبه ناظر المحطة كثيرا حتى انه أسف لفراق نزيله اللطيف فى اليوم الثالث . كان اليوم يوم الاحد ، ودونيا تتهيأ الى القداس . وقدمت للفارس عربة السفر . فتوادع هذا مع ناظر المحطة ، بعد ان اغدق له فى أجرة المبيت والطعام ، وتوادع مع دونيا ، ودعا الى ان يصحبها الى الكنيسة التى كانت تقع فى طـــرف القرية . وقفت دونيا فى حيرة مـــن أمرها ... فقال لها ابوها : «ما الذى تخشينه ؟ فان السيد الجليل ليس ذئبا ، ولن ياكلك . فأركبى معه

الى الكنيسة » . جلست دونيا فى العربـــة الى جانب الفارس ، وقفز الخادم الى مقعد عند الحوذى ، وصفر الحوذى ، وانطلقت الخيول تعدو .

لم يدرك ناظر المحطة المسكين كيف استطاع ان يسمح لابنته دونيا بالسفر مع الفارس ، وكأنما ألمت به غشاوة ، وطرأ شيء على عقله . وما هى الا نصف ساعة حتى أخذ قلبه يستشعر خيفة ، واستولى عليه قلق شديد افقده صبره ، فخرج بنفسه الى القداس . ولما اقترب من الكنيسة رأى الناس قد انصرفـــوا ، ولكنه لم ير دونيا داخل السياج ، ولا فى مدخـــل الكنيسة . فدخل الكنيسة مسرعا : كان القس يغـــادر المحراب ، والشماس يطفىء الشموع ، وامرأتـــان عجوزان ما تزالان تصليان فى احد الاركان ، الا ان دونيا لم تكن فى الكنيسة . وبعد جهد عـــزم الاب المسكين على ان يسأل الشماس عما اذا كانت تحضر القداس ، فاجاب هذا انها لم تكن موجودة . عاد ناظر المحطة الى البيت وهو بين الموت والحياة . ولم يبق له غير أمل واحد ، هو ان دونيا ، ربما دفعها هوس الفتيات الشابات ، الى ان تركب العربة الى المحطة التالية حيث كانت تعيش عرًابتها . فأنتظر ، بقلق أليم ، عودة «الترويكا» التى سمح لها بركوبها . ولم يَعُدْ الحوذى . وفى آخر الامر ، عند المساء عـــاد

لوحده سكران يحمل نبأ قتّالا : «غادرت دونيا تلك المحطة مواصلة السفر مع الفارس» .

ولم يتحمل العجوز المصيبة ؛ فرقد مريضا فى الحال على نفس السرير الذى كان الخادع الشاب يرقد عليه فى عشية الحادث . وفطن ناظر المحطة ، وهو يزن الامور الآن ، الى ان الفارس كان يتمارض . واصيب المسكين بحمى شديدة ، فنُقل الى س ... ، وعين فى مكانه شخص آخر بصورة موقتة . وعالجه نفس الطبيب الذى جاء لمعالجة الفارس . وقد أكد لناظر المحطة ان ذلك الشاب كان معافى ، وانه قد فطن الى نيته السيئة آنذاك ، الا انه لزم الصمت خوفا من سوطه . فهل كان هذا الالمانى يقول الحق ، ام كان يريد فقط ان يتباهى ببعد نظره ؟ الا ان ذلك لم يخفف الوطأة على المريض المسكين قدر شعرة . فما كاد يتماثل للشفاء حتى طلب من رئيس دائرة البريد فى س ... اجازة لمدة شهرين وخرج ماشيا ليبحث عن ابنته دون ان يقول لاحد شيئا عن نيته . وقد عرف من سجلات السفر ان النقيب مينسكى سافر من سمولينسك الى بطرسبورغ . وروى الحوذى الذى قاد عربته ان دونيا كانت تبكى طوال الطريق ، رغم انها ، على ما يبدو ، سافرت برغبتها . وفكر ناظر المحطة : «لعلّى ساعود بابنتى الضالة الى البيت» . وبهذه

الفكـــرة وصل الى بطرسبورغ ، ونزل فى فـــوج اسماعيلوف ، فى بيت ضابط متقاعد كان يخدم معه ، وشرع فى بحثه . وسرعان ما علم ان النقيب مينسكي فى بطرسبورغ ، ويقيم فى حانة ديموتوف . فعزم ناظر المحطة على ان يذهب اليه .

وصل الى حجرة الانتظار فى شقته فى الصبـــاح الباكر ، وطلب ان يبلغ سيادته بان جنديا قديما يود مقابلته . فأبلغه الخادم العسكرى ، وهو ينظف حذاء معلقا على سند ، ان السيد نائم ، وانه لا يستقبل احدا قبل الحادية عشرة . خرج ناظر المحطة وعاد فى الوقت المحدد . طلع مينسكى اليه بنفسه فى مبذله البيتى ، وطاقية حمراء وساله : «ما حاجتك ، ايها الاخ ؟» شرع قلب العجوز يغلى ، ترقرقت الدموع فى عينيه . فلم يستطع الا ان يقول بصوت مرتجف : «سيادتك ! . . اصنع معروفا لله ! . . .» حدق مينسكى به سريعا ، واحمر ، وامسكـــه من يده ، وقاده الى مكتبـــه ، واغلق البـــاب وراءه . تابـــع العجوز قـــوله : «سيادتك ! .. عفا الله عما سلف . فأرجع لى ابنتى المسكينة دونيا ، على الاقل . فقد استمتعت بها . فلا تهلكها عبثا» . فقال الشاب فى غاية الارتباك «ما حصل لا تستطيع دفعه . انا مذنب ازاءك ، وسعيد فى ان اسالك المغفرة ؛ ولكن لا تظن اننى قادر على تـــرك دونيا . اقسم لك انها ستكون سعيدة . فما حاجتك

اليها ؟ انها تحبني ، وقد نسيت وضعها السابق . لا انت ولا هي تنسى ما حصل » . وبعد ذلك دسّ شيئا في كمه ، وفتح الباب ، ورأى ناظر المحطة نفسه في الشارع دون ان يدرى .

لبث طويلا دون حراك ، ثم رأى خلف طرف كمه لفّة ورق . اخرجها ، وبسطها فاذا هي بضع اوراق نقدية متجعدة من فئة الخمسة والعشرة روبلات . واغرورقت عيناه بالدموع مرة اخرى ، دموع الحنق ! كوّر الاوراق في يده ، ورماها ارضا ، وسحقها بكعب حذائه ، وانصرف . . . سار بضع خطوات ، وتوقف ، فكر مع نفسه . . . وعاد . . . الا ان الاوراق النقدية لم تكن موجودة . هرع شاب حسن الهندام الى عربة أجرة ، حين رآه ، وجلس فيها وهتف بعجالة : « انطلق ! . . » ولم يلاحقه ناظر المحطة . وقرر التوجه الى داره في محطته ، الا انه ودّ قبل ذلك ان يرى ابنته المسكينة دونيا مرة واحدة على الاقل . ولاجل ذلك عاد مرة اخرى الى مينسكى بعد يومين ، الا ان الخادم العسكرى قال له بحدة ان السيد لا يستقبل احدا ، وأخرجه بصدره من غرفة الانتظار ، وصفق الباب في اثره . وقف ناظر المحطة برهة ثم أخرى ثم انصرف .

في مساء ذلك اليوم كان يسير في شارع ليتينايا بعد ان صلى في كنيسة « جميع الحزانى » . وفجأة

انطلقت امامه عربة صغيرة مترفة ، ولمح ناظر المحطة مينسكى فيها . توقفت العربة امام دار من ثلاثة طوابق ، عند المدخل تماما ، ونزل الفارس منها الى المدخل راكضا . وومضت فكرة هنيئة فى ذهن ناظر المحطة . عاد ، وتوازى مع الحوذى ، وسأله : «لمن الحصان ، يا اخ ؟ أليس صاحبه مينسكى ؟» اجاب الحوذى : «نعم ، ولكن ما غرضك ؟» قال ناظر المحطة : «ان سيدك امرنى بان اوصل مذكرة الى صاحبته دونيا ، ولكننى نسيت اين تسكن» . - «انها تسكن هنا ، فى الطابق الثانى . لقد تأخرت بمذكرتك هذه ، يا أخ . انه الآن بنفسه معها» . فردّ ناظر المحطة ، وقلبه يخفق خفقانا لا يوصف : «لا حاجة لذلك . شكرا على كلامك ، وسأقوم أنا بشأنى» . وبهذه الكلمة راح يرتقى السلم .

كانت الابواب مقفلة ؛ فدق الجرس ، ومضت بضع ثوان فى انتظار أليم . وقلقل المفتاح فى القفل . وفُتح له الباب . سأل : «هل افدوتيا سامسونفنا تقيم هنا ؟» اجابت الخادمة الشابة : «هنا ، فما حاجتك اليها ؟» ودون ان يجيب دخل ناظر المحطة الصالة . صاحت الخادمة فى اثره «ممنوع ، لا يجوز . عند افدوتيا سامسونفنا ضيوف» . الا ان ناظر المحطة لم يصغ لها ، وواصل سيره . كانت الغرفتان الاولى

والثانية مظلمتين ، والثالثة مضاءة . تقدم من الباب المفتوح ، وتوقف . كان مينسكى يجلس غارقا فى افكاره فى هذه الغرفة المرتبة ترتيبا رائعا . وكانت دونيا الرافلة بكل مظاهر الترف والموضة تجلس على مسند مقعده كما تجلس راكبة الفرس على سرج انجليزى . كانت ترمق مينسكى برقة ، وتفتل خصلاته السود المتجعدة على اصابعها اللامعة بالاحجار الكريمة . يا لناظـــــر المحطة المسكين ! ان ابنته لم تبـــــد له قط بهذه الروعة . وجد نفسه يمتع بصره بها دون ان يدرى . وسألت هى دون ان ترفع رأسها : «مَنْ هناك ؟» . وبقى هو على صمته . رفعت دونيا رأسهـــــا حين لم تتلق جوابا ... وسقطت على البساط صارخة . هب مينسكى المذعور ليرفعها ، وفجأة وقع بصره على ناظر المحطة العجوز واقفا عند الباب ، فترك دونيا ، وتقدم نحوه ، مرتجفـــــا من الغيظ قائلا له وهو يكز على اسنانه : «ماذا تريد ؟ لماذا انت تتلصص علىّ فى كل مكان كقاطع طريق ؟ ام تريد ان تذبحنى ؟ اخرج من هنا !» وأمسك العجوز من تلابيبه بيده القوية ، وأخرجه دافعا اياه على السلم .

وصل العجوز الى مقره . واشار عليه صديق له بان يرفع شكوى ؛ الا ان ناظر المحطة فكَّر مليًّا ، وهزَّ ذراعه رفضا ، وقرر ان يتخلى عن الامر . وبعد

يومين خرج من بطرسبورغ عائدا الى محطته ، واخذ يزاول واجبه من جديد . وختم ناظر المحطة روايته قائلا : «وهذه هى السنة الثالثة وانـــــا اعيش بدون دونيا ، وليس لى عنها علم ولا خبر . والله يعلم أهى حية ام ميتة . فان كل شيء يحدث . وليست هى اول ولا آخر مَنْ أغواهن هذا المسافـــــر الماجن الذى استمتع بها زمنا ، ثم نبذها . وفى بطرسبورغ الكثيرات من خفيفات العقل هؤلاء . اليوم يرفلـــن فى الاطلس والمخمل ، وغدا يكنسن الشارع مع حثالة الخمارات . وعندما افكر احيانا بان دونيا ايضـــــا ربما تسقط هناك ، اتحمل الخطيئة ، واتمنى لها الموت ...»

هذه هى قصة صاحبى ، ناظر المحطة العجوز ، القصة التى قطعتهـــــا الدموع غير مرة ، فكان يمسح الدموع بطرف ردائه بشكل مؤثر ، مثل شخصيـــة تيرينتش الحريص فى قصيدة ديمترييف الرائعة . وكانت هذه الدموع يثيرها ، لحد ما ، الشراب الذى احتسى منه خمسة اقداح خلال رواية قصته ؛ الا انها على اية حال اثرت فى قلبى تأثيرا شديدا . وعندما فارقت ناظر المحطة لبثت زمنا طويلا غير قادر على نسيانه ، مطيلا التفكير فى دونيا المسكينة ...

وقبل فترة ليست بالبعيدة تذكرت صاحبى ، وانا مسافر عبر منطقة س ... ، فعرفت ان المحطـة

التي كان يديرها قد خربت . ولم يستطع احد ان يرد ردا مقبولا على سؤالي : « اما زال ناظر المحطة العجوز حيا؟ » فعزمت على زيارة الناحية التي أعرفها ، واستأجرت خيولا وانحدرت الى قرية ن ...

كان ذلك خريفا . وكانت السماء ملبدة بسحب رمادية ؛ والريح الباردة تهب من الحقول المحصودة ، نازعة الاوراق الحمراء والصفراء من الاشجار المقابلة في طريقها . وصلت الى القرية عند غروب الشمس ، وتوقفت عند مبنى البريد . خرجت امرأة بدينة الى الرواق (المكان الذي قبلتني فيه دونيا المسكينة) واجابت عن اسئلتي ان ناظر المحطة العجوز توفي منذ عام ، وان بيته يحتله الآن مُخمر بيرة ، وهي زوجته . أسفت على سفري غير المجدي ، وعلى سبعة روبلات انفقتها عبثا . سألت زوجة مخمر البيرة : « ما سبب وفاته ؟ » ـ « أدمن الخمرة ، يا حضرة » . ـ « وأين دفن ؟ » ـ « وراء حدود القرية ، قرب زوجته . » ـ « هل من الممكن ان أُدل على قبره ؟ » ـ « ولِمَ لا ؟ يا فانكا ، كفى لعبا مع القطة . ودلّ السيد على المقبرة ، وأره قبر ناظر المحطة » .

وبهذه الكلمة خرج اليّ صبي رث الثياب ، أحمر الشعر ، ذو عين واحدة ، وفي الحال قادني الى خارج القرية .

سألته فى الطريق :

ـ هل كنت تعرف المرحوم ؟

ـ كيف لا اعرفه ! لقد علمنى نحت المزامير . وكان (الله يرحمه !) يخرج من الخمـــارة ، ونحن فى اثره ، ونقول : «يا جد ، يا جد ، أعطنا بندقـــا !» فكان يلقى لنا بالبندق . كان يلاعبنا احيانا كثيرة .

ـ والمسافرون ، الا يتذكرونه ؟

ـ المســافرون قليلون الآن . ليس الا المحلّف يمر خطفا ، ولا شأن له فى الموتى . وفى الصيف مرّت سيدة ، وسألت عن ناظر المحطـــة العجوز ، وزارت قبره .

سألته بلهفة : اية سيدة ؟

اجاب :

ـ سيدة بارعة الجمال ، جاءت راكبة عربـــة تجرها ستة خيول ، ومعها ثلاثة اطفال ومرضعة وكلب صغير . وما ان ابلغوا بان ناظر المحطة العجوز مات ، حتى انفجرت باكية ، وقالت للاطفال «اجلسوا بهدوء ، وانا ذاهبة الى المقبرة» . اردت مصاحبتها الى المقبرة . الا ان السيدة قالت : «انا اعرف الطريق» . واعطتنى خمسة كوبيكات فضية . يا لها من سيدة طيبة !..

وصلنا الى المقبرة . انها مكان أجرد ، غير مسيج ،

تتناثر فيه الصلبان الخشبية ، ولا توجد فيــه شجيرة واحدة . وانا لم أر ابدا مثل هذه المقبرة الموحشة .

قال لى الصبى وهو يقفز على كومة من الرمل ركز عليها صليب أسود عليه ايقونة نحاسية :

ـ هذا قبر ناظر المحطة العجوز ، ـ سألت :

ـ والسيدة جاءت الى هنا ؟

ـ جاءت . وراقبتها من بعيد . ارتمت هنا ، وظلت مرتمية وقتا طويلا . وبعد ذلك ذهبـت الى القرية ، ودعت قسا ، واعطته نقودا ، وانصرفت . أما أنا فأعطتنى خمسة كوبيكات فضية . سيدة رائعة !

وأعطيت للصبى خمسة كوبيكات ، ولم أسف على سفرتى ولا على الروبلات السبعة التى انفقتها .

ابنة السيد – الفلاحة

انك لجميلة ، يا حسناء ، فى كل الازياء .
(من قصيدة «الحسناء»
لبوغدانوفيتش .)

كانت ضيعة ايفان بتروفيتش بيرستوف تقع فى احدى ولاياتنا النائية . وقد خدم ايفان بتروفيتش فى شبابه فى الحرس ، واستقال فى بداية عام ۱۷۹۷ ، ورحل الى ضيعته ، ولم يخرج منها منذ ذلك الحين . كان متزوجا واحدة من بنات الاعيان المعدمين ، وقد توفيت اثناء الوضع ، حين كان خارجا فى صيد . وسرعان ما سرّى عنه انشغاله فى شؤونه الاقتصادية . بنى دارا وفق تصميمه الخاص ، وأقام له معملا للاجواخ ، وزاد مدخولاته ثلاث مرات ، وصار يعتبر نفسه اذكى انسان فى كل المنطقة ، ولم ينكر عليه ذلك

جيرانه الذين كانوا ينزلون عليه ضيوفا مع عوائلهم وكلابهم . كان فى أيام الاسبوع الاعتيادية يرتدى سترة مخملية ، وفى ايام الاعياد سترة طويلة من الجوخ المنسوج بيتيا ؛ وكان يسجل النفقات بنفسه ، ولم يقرأ غير جريدة «سيناتسكيه فيدوموستى» . وبوجه عام كان محبوبا ، وان كان يُعتبر معتدا بنفسه . شخص واحد لم يكن على وفاق معه ، هو غريغورى ايفانوفيتش مورومسكى ، جاره الجُنُب . وكان هذا نبيلا روسيا حقيقيا بذّر فى موسكو جانبا كبيرا من ثروته ، وترمل فى اثناء ذلك ، فرحل الى ضيعته الاخيرة ، حيث استمر على عبثه ، ولكن من نوع جديد ، هذه المرة . أقام حديقة انجليزية انفق عليها كل مدخولاته الباقية تقريبا . وكان سوّاس خيوله يرتدون ما يرتديه الجوكية الانجليز . وكانت لابنته وصيفة انجليزية . وكان يزرع حقوله على الطريقة الانجليزية :

ولكن القمح الروسى لا ينبت وفق هوى اجنبى

ورغم التقليل الكبير فى النفقات لم تزد واردات غريغورى ايفانوفيتش ؛ فوجد ، وهو فى الضيعة ايضا ، طريقة للدخول فى ديون جديدة ؛ ومع كل ذلك لم يعتبر رجلا خفيف العقل ، لانه اول صاحب

اطيان فى ولايتـه دبر ان يرهن الضيعـــة الى مجلس الوصاية ، وهى صفقة كانت تعتبر فى ذلك الوقت معقدة وجريئة للغاية . وكان بيرستوف اشد ضراوة من كل الذين يلومونه . فقد كانت الكراهية للاشياء الجديدة من مميزاته . فلم يكن يتحدث دون اكتراث عن هوس التنجلز عند جاره ، وكان يتسقّط الفرص فى كل لحظة لانتقاده . فاذا عرض اطيانه لاحد الضيوف ، فامتدح هذا حسن تدبيره أجاب ببسمة تهكمية ماكرة : « نعم ، ولكن ما عندى ليس كالذى عند الجـــار غريغورى ايفانوفيتش . ليس بنا حاجة الى هوس انجليزى ! ان نشبع على الطريقة الروسية » . وكانت هذه النكات وما شاكلها تنقل باجتهاد الجيران الى غريغورى ايفانوفيتش مع الزيادة والتفسيرات . وكان المتنجلز يتلقى النقد بنفاد صبر ، مثل صحفيينا . وقد اغتاظ ، ونعـــت المتجنىَّ عليه بالدب وعديم الثقافة .

كانت هذه علاقة الملاكين حين وصل ابن بيرستوف الى ضيعة ابيه . وكان قد تثقف فى جامعـــة ن ... ، وعزم على دخول الخدمة العسكرية ، الا ان اباه لـم يوافق على ذلك . وكان الشاب يشعر بانه غير قادر على الخدمة المدنية مطلقا . ولم يستجب أحدهما للآخر ، فصـــار الشـــاب الكسى يعيش كابن السيد ، وقد اطلق شاربيه على كل حال .

كان الكسي فى واقع الامر فتى ونِعمْ الفتى . ومن المؤسف حقا الا تَشِدً قده الممشوق بزة عسكرية ، وان يقضي شبابه منكبا على اوراق المعاملات فى احد المكاتب بدلا من ان يزهو على صهوة حصان . وكان الجيران يقولون بالاجماع ، وهم يرونه يجلّى بفرسه فى الصيد دون ان ينظر الى الطريق ، انه لن يصلح لان يكون رئيس مكتب حسنا . وكانت الاوانس يرمقهنه ، وبعضهن يتطلعن اليه معجبات . الا ان الكسى لم يكن يوليهن كبير اهتمام ، فأعتبرن السبب فى انعدام تجاوبه علاقة حب . وفى الواقع كانت الايدى تتناقل نسخة من عنوان احدى رسائله : **الى اكولينا بتروفنا كوروتشكينا ، فى موسكو ، مقابل دير الكسييف ، فى بيت النحاس سافيليف ، مع الرجاء الشديد لايصال الرسالة الى أ . ن . ر .**

ان الذين لم يعيشوا فى الارياف من قرائى لا يستطيعون ان يتصوروا اية فتنة تتحلى بها آنسات الارياف هؤلاء ! انهن ، وقد نشأن على نقاء الهواء ، فى ظلال بساتين التفاح ، يستقين معرفتهن عن الدنيا والحياة من الكتب . والتوحد ، والفراغ ، والقراءة تنمى فيهن مبكرا مشاعر واهواء غير معروفة لحسناواتنا المستطيرات الالباب . فان رنين جرس بالنسبة للآنسة الريفية ما هو الا مغامرة ، والسفر الى مدينة قريبة

بمثابة عهد من عهود الحياة ، وزيارة ضيف تترك ذكرى طويلة واحيانـــاً لا تمحى . وبالطبـــع فى مقدور كل انسان ان يضحك من بعض غرائبهن ، الا ان نكات الملاحظ السطحى لا تستطيع ان تقضى على فضائلهـن الجوهرية ، وأهمهـــا تميُّز الشخصيـــة ، الاصالــة (individualité) التى لا وجود للعظمـــة الانسانيـــة بدونها ، حسب رأى جان-بول . قد تتلقى النساء فى العواصم تعليما افضل ، الا ان سراة الناس يصقلون الشخصية سريعا ، ويجعلون النفوس متشابهة كثيرا ، مثل اغطية الرأس . وهذا القول لا يقال استنكارا الا ان Nota nostra manet * ، كما يكتب احد المعلقين القدامى .

ومن السهل تصور الأثر الذى لا بد ان يتركـه الكسى فى محيط اوانسنا . وكان اول من ظهر امامهن حزينا خائب الظن ، واول من تحدث لهن عن المسرات المفقودة ، وعن شبابه الذابل ؛ وفضلا عن ذلك كان يضع فى اصبعه خاتما اسود عليه صورة رأس ميت . وكل هذه الاشياء تبدو جديدة للغاية فى تلك الولاية . وقد جنت الاوانس به جنونا .

ولكن آكثر مَنْ انشغلت به من الفتيات كانـت

---

* ملاحظتنا تبقى سارية المفعول . **(باللاتينية .)**

ابنة صاحبى المتنجلز ليزا (او بيتسى كما كان يسميها غريغــورى ايفانوفيتش عادة) . وكان الابــوان لا يتزاوران . فلم تكن قد رأت الكسى بعد . بينما لم يكن للجارات الشابات جميعهن الا الحديث عنه . كانت في السابعة عشرة من العمر . وكانت عيناها السوداوان تبعث حيوية فى وجهها الأسمر البديع جدا . وكانـت الابنة الوحيدة لابيها ، والمدللة لهذا السبب . كانـت خفتها ونزواتها المتكررة تعجب اباهــا ، وتسلم الى القنوط مربيتها مس جاكسون ، وهى آنسة فى الاربعين من العمر متمسكة بالاصـول ، كانت تتبودر ، وتخط حاجبيها بالكحل ، وتعيد قراءة « باميلا » * مرتين فى العام ، وتحصل لقاء ذلك على الفى روبل ، وتموت من السأم فى **روسيا البربرية هذه** .

كانت ليزا موضع عناية ناستيا ، وهي فتاة اكبر سنا منها ، الا انها كانت تماثل الآنســة فى نزقهــا الشديد . وكانت ليزا تحبها كثيرا ، وتكشف لها كـل اسرارها ، وتتدارس معها خيالاتها ، وباختصـــار ، كانت ناستيا فى قرية بريلوتشينو شخصية أهم بكثير من كاتمة اسرار فى تراجيدية فرنسية .

---

* « باميلا او الفاضلــة المجازاة » روايـــة للكاتب الانجليزى ريتشاردسون . **(الناشر .)**

قالت ناستيا ذات مرة وهي تعين ليزا على ارتداء ملابسها مخاطبة غريغورى ايفانوفيتش :

ـ سيدى ، ائذن لى اليوم بالخروج للضيافة .

ـ مأذونة . ولكن الى اين ؟

ـ الى عائلة بيرستوف فى توغيلوفو . فاليوم عيد قديس زوجة الطباخ ، وقد زارتنا يوم امس لتوعدنا الى الغداء .

قالت ليزا :

ـ هكذا اذن ! السيدان متخاصمان ، والخـــدم يتضايفون .

فردت ناستيا :

ـ لا شأن لنا بالسادة ! ثم انني خادمتـــك ، وليست خادمة ابيك . وانت حتى الآن لم تتخاصمى مع الشاب بيرستوف . فليتخاصم الشيخان فيما بينهما ، اذا كان هذا يسرهما .

ـ حاولى ، يا ناستيا ، أن ترى الكسى بيرستوف ثم اخبريني جيدا أى مظهر له ، واى انسان هو .

وعدتها ناستيا ، فانتظرت ليزا عودتها نهـارا كاملا بنفاد صبر . وجاءت ناستيا فى المساء . وقالـت وهى تدخل الغرفة :

ـ يا ليزافيتا غريغوريفنـــا ، رأيت الشـــاب بيرستوف . اشبعت بصرى به ، فقد قضينا النهار كله سوية .

ـ كيف هذا ؟ حدثيني بالترتيب .

ـ حسنا ، ذهبنا انا ، وانيسيا يغوروفنا ، ونينيلا ودونكا ...

ـ حسنا ، أعرف . وبعد ذلك ؟

ـ حسنا ، سأقص كل شيء بالترتيب . وصلنا في وقت الغداء تماما . كانت الغرفة مكتظة بالناس . كان هناك ضيوف من اهالي قريتي كولبينو وزاخاريفو ، وزوجة الوكيل وبناتها ، ومن قرية خلوبينو ...

ـ حسنا ! وبيرستوف ؟

ـ على مهلك . وجلسنا الى المائدة . زوجة الوكيل في المقعد الاول ، وانا الى جانبها ... وامتعضت بناتها ، واى شأن لي بهن ...

ـ آه ، يا ناستيا ، ما اضجرك في تفاصيلك التي لا تنتهي !

ـ وما اضيق صدرك ! حسنا ، وخرجنا من وراء المائدة ... وقد بقينا حوالي ثلاث ساعات ، وكان الغداء رائعاً ؛ والحلويات مهلبية على الطريقة الفرنسية ، زرقاء ، وحمراء ، ومخططة ... حسنا ، خرجنا من وراء المائدة ، وطلعنا الى الحديقة نلعب الغماية ، وهنا ظهر الشاب بيرستوف .

ـ صحيح ؟ صحيح انه لطيف ؟

ـ لطيف بشكل مذهل ، ويمكن ان يقال انه

بارع الجمال . اهيف القد ، مديد القامـــة ، متورد الخدين تماما ...

ـ أحق ؟ بينما كنت اتصور وجهه شاحبا . اذن ؟ كيف بدا لك ؟ حزينا وساهما ؟

ـ ما هذا الكلام ؟ انا لم أر فتى مفعما بالحيوية مثله منذ ان عرفت الدنيا . دخل فى عقله ان يلعـــب معنا الغماية .

ـ يلعب معكن الغماية ! غير ممكن !

ـ ممكن جدا ! ثم فكر بشيء آخر . اذا امسك بواحدة فى اللعبة قبـَّلها .

ـ انت حرة فى كلامك ، يا تاستيا ، ولكنى لا اصدق .

ـ صدقى او لا صدقى ، فانا لا اكذب . خلـَّصت نفسى منه بالكاد . قضى النهار كله يلعب معنا هكذا .

ـ وكيف يقولون انه عاشـــق ، ولا ينظر الى واحدة ؟

ـ لا اعرف ، ولكنه أطال النظر فىَّ كثيرا ، وفى تانيا ايضا ، ابنة الوكيل ... ، وفى باشا من كولبينو ، وعلىَّ اللعنة اذا تأذت واحدة من مثل العابث .

ـ هذا غريب ! وماذا يقول عنه اهل بيته ؟

ـ يقولون انه سيد رائع ، كثير الطيبة ، جم المرح . خصلة واحدة فيه غير جميلة ، هو انه يحب

مغازلة البنات كثيرا . ولكن ذلك ليس عيبا فى رأيى ، سيهدأ مع الزمن .

قالت ليزا متحسرة :

ــ كم أود لو اراه !

ــ وهل ذلك بحاجة الى عناء ؟ فان توغيلوفو ليست بعيدة عنا ، مسافة ثلاثة فراسخ فقط . ما عليك الا ان تتمشي فى تلك الناحية ، او تركبى فرسا ، وستلتقين به بالتأكيد . انه يخرج كل يوم فى الصباح الباكر ومعه بندقية للصيد .

ــ لا ، غير لائق . قد يظن اننى الاحقه . ثم ان ابوينا متخاصمان ، ولا يجوز لى ان اتعارف معه ... ولكن ، اتعرفين ماذا ، يا ناستيا ؟ سأتزيا بزى الفلاحة !

ــ حقا . ارتدى ثوبا سميكا ، وسرفانا * ، واذهبى الى توغيلوفو غير خائفة ، وأنا اتعهد لك بالا يفوتك بصر بيرستوف .

ــ وانا اجيد التحدث بلهجة اهل هذه الناحية بشكل طيب . آه ، يا ناستيا ، يا حبيبتى ناستيا ، ما اروعها من فكرة ! ــ وآوت ليزا الى مضجعها ، وقد عقدت العزم على ان تنفذ فكرتها المازحة .

---

* رداء بلا اردان . (المترجم .)

في اليوم التالى بدأت بتنفيذ خطتها ، ارسلت مَنْ يشترى لها من السوق قماشا كتانيا سميكا ، وقطعـــة من منسوج الصين القطنى الازرق ، وازرارا نحاسية ، وفصّلت لنفسها ، بمساعدة ناستيا ، ثوبا وسرفانا ، وأجلست كل وصيفاتها لخياطتهما ، وفى المساء كان قد اعد كل شىء . قاست ليزا زيهـــا الجديد ، واعترفت امام المرآة بانها لم تبد قط بهذا المنظر الحسن فيما سلف من الايام . كررت دورها ، وحيّت منحنية انحناءة واطئة وهى سائرة ، وهزّت رأسها بعد ذلك عدة مرات ، وتكلمت كلام الفلاحات ، وضحكت ، مغطيـــة وجهها بكمها ، واستحقت رضى ناستيا التام . شىء واحد كان يصعب عليها : حاولت ان تسير فى الفناء حافية الا ان العشب النابت وخز قدميها الرقيقتين ، اما الرمل والحصى الدقيق فكانا يبدوان فوق مستوى احتمالها . وقد ساعدتها ناستيا فى ذلك ايضا : اخذت قياس قدم ليزا ، وهرعت الى الحقل نحو الراعى تروفيم ، وأوصت على نعلين على ذلك القياس . وفى اليوم التالى استيقظت ليزا قبل انفلاق الفجـــر . كان اهل البيت جميعا ما يزالون نياما . وكانت ناستيـــا تنتظر الراعى وراء البوابة . وارتفع بوق الراعى ، وامتد قطيع عبر القرية قرب دار السيد . وعندما مرّ تروفيم امام ناستيا سلمها النعلين الصغيرين المبرقشين ،

وتسلم منهـــا نصف روبل مكافأة . تزيت ليزا بزى الفلاحة بهدوء ، وهمست لناستيا بتعليماتها بخصوص مس جاكسون ، وخرجت الى المدخل الخلفى للبيت ، وركضت الى الحقل عبر الحديقة المحيطة بالدار .

كان الشروق يلمع فى المشرق ، وبـــدت صفوف ذهبية من الغيوم تنتظر الشمس ، مثل رجال الحاشية فى انتظار السلطان . وملأت السماء الصافية ، وطراوة الصباح ، والندى ، والنسيم ، وزغردة الطيور قلب ليزا بفرح طفولى . وكانت تبدو ، وهى فى خوف من لقاء شخص يعرفها ، وكأنها تطير وليست تسير . هدأت ليزا من سيرها ، وهى تقترب من الحرش الواقع على حدود اطيان أبيها . هنا كان عليها ان تنتظر الكسى . وكان قلبها يخفق خفقانا شديدا لسبب لا تدريه . الا ان الخوف الذى يصاحب نزواتنا الصبوية هو الجزء الرئيسى من فتنتها . دخلت ليزا فى عتمة الحرش . حياً الفتاةَ حفيف الحرش الخافت المتماوج . هدأ مرحها . وشيئا فشيئا استسلمت لحلم حلو . فكرت ... ولكن هل من الممكن ان نُحدد بدقة ما فكرت به آنسة فى السابعة عشرة ، وهى وحيدة فى الحرش ، فى الساعة السادسة من صباح ربيعى ؟ وهكذا سارت مفكرةً ، فى طريق مظللة من كلا الجانبين باشجار عالية ، وإذا بكلب صيد رائع ينبح عليها فجأة . ذعرت ليزا ، وصرخت .

وفى تلك اللحظة صدر صوت : .. tout beru, Sbogar, ici *
وخرج صياد شاب من وراء دغل . قال لها : « لا تخافى يا حسناء ، فكلبتى لا تعض » . كانت ليزا قد استعادت جأشها بعد الخوف ، واستطاعت ان تستغل الظرف فى الحال . وقالت وهى تتظاهر بشيء من الخوف وشيء من الخجل : « كلا ، يا سيد ، اخاف . انها خبيثة ، وستهجم مرة اخرى » . وخلال ذلك أخذ الكسى (والقارئ قد عرفه) يتفرس بالفلاحة الشابة . وقال لها : « سأرافقك ، اذا كنت خائفة . اتسمحين لى بالسير الى جنبك ؟ » اجابت ليزا : « ومن يمنعك ؟ حسب ما تريد ، والطريق عام » — « من اين انت ؟ » — « من بريلوتشينو ، انا ابنة الحداد فاسيلى ، خارجة لجمع الفطر (وكانت ليزا تحمل سلة فى حبل) — « وأنت ، السيد ؟ من ضيعة توغيلوفو ؟ » اجاب الكسى : « بالضبط . انا خادم السيد الشاب » . وكان الكسى يريد ان يساوى بينهما . الا ان ليزا نظرت اليه ، وضحكت . قالت : « انت تكذب . ليست امامك حمقاء . ارى انك السيد نفسه » . — « ولماذا تظنين ذلك ؟ » — « من كل شيء » — « مثلا ؟ » — « ولكن كيف لا يُفرّق بين السيد وخادمه ؟ » اللباس يختلف ، والكلام يختلف وللكلبة

---

* توبو ، سبوغار ، الى هنا . (بالفرنسية .)

اسم اجنبى» . وكانت ليزا من ساعة الى اخرى تعجب الكسى . وكان قد اعتاد ان يتصرف مع القرويات الطيبات ببساطة . فهمَّ بمعانقتها ؛ الا ان ليزا صدَّت عنـــه ، واتخذت فجأة هيئة صارمة باردة ، حتى ان الكسى ، رغم ان ذلك اضحكه ، احجم عن مواصلة تطاولاته . قالت ليزا بوقار «إذا كنـــت تريـد ان نكون صديقين فى المستقبل ، فلا تخرج عن الحدود ، ارجوك» . سألها الكسى مقهقها : «ومن علمك هذه الحكمة ؟ أهى ناستيا التى اعرفها ، وصيفة سيدتك ؟ بهـــذه الطرق ينتشر التهذيب اذن !» شعرت ليزا بأنها خرجت عن دورها ، فأصلحت أمرها فى الحال . قالت : «ومــــاذا تظن ؟ أتحسب اننى لم اكن فى بيت سيد قط ؟ أكيد اننى سمعت ورأيت كل شىء . على كل حال ، الكلام معك يمنعنى من جمع الفطر . فاذهب ، ايها السيد ، فى جهة ، ولأذهب انا فى جهة اخرى . اذن ، مع السلامة ...» همت ليزا بالانصراف ، فأمسكها الكسى من يدها : «ما اسمك ، يا روحى ؟» اجابت ليزا محاولة ان تنزع اصابعها من يد الكسى : «أكولينا . اطلقنى ، ايها السيد ، فقد آن لى ان اعود الى البيت» . ــ «حسنا ، يا صاحبتى أكولينا ، سازور اباك فاسيلى الحداد ، بالتأكيد» . فاعترضـــــت ليزا : «كيف هذا ؟ من أجل المسيح لا تأت . اذا عرف اهلى اننى تكلمت مـــع سيد فى الحرش

لوحدى ، فستصيبنى أذية . سيضربنى ابى فاسيلى الحداد حتى الموت » . – « ولكنني اود ان نلتقي ثانيـــــة » – « سآتى الى هنا ، مرة اخرى ، فى وقت ما ، لاجمـــع الفطر » . – « متى ؟ » – « غدا ، اذا اردت » . – « يا عزيزتى أكولينا ، وددت لو اشبعك قُبـُلا ، ولكننى لا اجــرؤ . اذن ، غدا ، فى مثــــل هذا الوقت ، أليس كذلك ؟ » – « نعم ، نعـــم » . – « ألا تخدعيننى ؟ » – « لا اخدعك » . – « اقسمى لى » . – « أُقسم بالجمعـــة المقدسة » .

افترق الشابان . خرجت ليزا من الغابة ، واجتازت الحقل ، وانسلت الى البستان ، ثم اندفعت الى مزرعة الدواجن ، حيث كانت ناستيا فى انتظارها . وهنـــــاك استبدلت ملابسها ، مجيبة بذهول عن اسئلة كاتمـــة اسرارها ، ودخلت غرفة الجلوس . كانت المائـــــدة مصفوفة ، وطعام الفطور معدا ، ومس جاكسون وقد تبودرت على عادتها ، وادخلت جسمها فى مشد ، تقطع رقائق من الخبز . امتدحها ابوها على نزهتهـــا الباكرة قائلا : « ليس هناك ما يناسب الصحة مثل الاستيقاظ فى الفجر » . وبعد ذلك ضرب بعض الامثلة على طول العمر مستقاة من المجلات الانجلزية ، قائلا ان جميع الذين يعيشون اكثر من مائة عام لم يكونوا يتعاطون الفودكا ، وكانوا يستيقظون عند الفجر شتاء وصيفا . ولم

تصغ ليزا اليه . كانت تعيد فى ذهنها جميع ملابسات اللقاء الصباحى ، كل حديث أكولينا مع الصياد الشاب . واخذ ضميرها يعذبها . كان عبثا ان تعترض على نفسها بنفسها ، وان لا يخرج حديثهما عن حدود اللياقة ، وان يعجز عبثها عن ان يأتى باية نتيجة . كان ضميرها يتذمر اشد من عقلها . وكان الوعد الذى اعطته ليوم غد اكثر ما كان يقلقها . فعزمت كليا على ان تنكث بقسمها السامى . ولكن اذا خاب الكسى فى انتظارها ، فقد يذهب الى القرية ليبحث عن ابنة الحداد فاسيلى ، أكولينا الحقيقية ، الفتاة البدينة المجدرة ، وبهذه الطريقة يكتشف لعبتها النزقة . وفزعت ليزا من هذه الفكرة ، وقررت فى الصباح التالى أن تظهر ثانية فى الحرش ممثلة دور أكولينا .

كان الكسى ، من جانبه ، مفتونا ، فقد قضى النهار كله يفكر بصاحبته الجديدة ؛ وفى الليل ، واثناء النوم لاحقت خياله صورة الحسناء السمراء . وما كاد الفجر ينفلق حتى كان مرتديا ثيابه . ولم يصرف وقتا لتعبئة بندقيته ، وخرج الى الحقل مع كلبته الوفية سبوغار ، وجرى الى مكان اللقاء الموعود . انقضى نحو نصف ساعة فى انتظار لا طاقة له به ؛ وفى آخر الامر لمح السرفان الازرق يلمح بين مجاميع الشجيرات ، فانطلق للقاء أكولينا الحبيبة . كانت تبتسم لغبطة آمتنانه ؛

الا ان الكسي لمح اثار الجزع والقلق على وجهها فورا واراد ان يعرف سبب ذلك . اعترفت ليزا بان تصرفها بدا لها طائشا ، وانها ندمت عليه ، وانها فى هذه المرة لم ترد ان تنكث بوعدها ، ولكن هذا سيكون اللقـــاء الاخير ، وانها ترجوه ان يقطع تعارفهما الذى لن يؤدى الى شيء طيب . وطبيعى ان هذآ الكلام قيل باللهجة الفلاحية ؛ الا ان الأفكار والمشاعر غير المألوفة فى فتاة بسيطة ابهرت الكسى . فاستعمل كل ذلاقة لسانـــه ليصرف أكولينا عن نيتها ، وأكد لها برآءة مقاصده ؛ ووعدها بأنه لن يجترح اى سبب لندمها ، وانه سيطيعها فى كل شيء ، وتوسل اليها ان لا تحرمه من متعـــة واحدة ، وهي ان يلتقى بها على انفرآد ، على الأقل بين يوم ويوم ، او مرتين فى الاسبوع . كان يتكلم بلسان عاطفة صادقة ، وفى تلك اللحظة كان عاشقا حقا . اصغت ليزا اليه صامتة . واخيرا قالت : «عِدْنى بان لا تبحث عنى فى القرية أبدا ، او تستفسر عنى . عدنى بان لا تبحث عن مواعيد معى غير التى اعينها انا» . اقسم الكسى لها بالجمعة المقدسة ، الا انها اوقفته بابتسامة وقالت : «لا اريد ان تقسم ، يكفينى وعدا منك فقط» . وبعد ذلك اخذا يتحدثان بود ، وهما يتمشيان سوية فى الغابة ، حتى قالت له ليزا إن آوان عودتها قد حان . وافترقا ، ولما بقى الكسى وحده ، لم يستطع ان يفهم

كيف استطاعت فتاة ريفية بسيطـــــة بعد لقائين ان تسيطر عليه هذه السيطرة الحقيقية . كان للقاءاته مع أكولينا سحـــــر الجدة بالنسبة له ، ورغم ان تعاليم الفلاحة الغريبة بدت له ثقيلة ، الا ان فكرة النكوث بكلمته لم تخطر على باله ، بله غير ذلك . ذلك لان الكسى ، بالرغم من خاتمه المسحور ، والتراسل السرى ، وخيبة الأمل الكئيبة ، كان فتى طيبا متوقدا ، ذا قلب صاف ، قادر على الاحساس بمتعة البراءة .

لو استجبت لرغبتى وحدها ، لوصفت بالتأكيد ، وبكل التفاصيل ، لقاءات الشابين ، وميلهما المتبادل المتعاظم ، وروح الثقة ، والمشاغل ، والاحاديث ، ولكننى اعرف ان الجمهور الاعظم من قرائى لا يشاركنى هذه اللذة . فان هذه التفاصيل ، بشكل عام ، لا بد ان تبدو مغرقة فى العاطفية ، ولهذا اغفلها ، واقول باختصار انه لم يمض شهران حتى كان فتاى الكسى متيما فى الحب الى حد الوله ، ولم تكن ليزا اقل انغمارا منه ، ولـــو كانت اكثر صمتا . وكان كلاهما سعيدا بالحاضر ، وقليل التفكير فى المستقبل .

وكانت فكرة الرباط الابدى كثيرا ما تخطر على باليهما . ولكن احدهما لم يتحدث بها الى الآخر قط . والسبب واضح : وهو ان الكسى مهما يكن تعلقه بحبيبته أكولينا ، كان يتذكر دائما المسافة القائمة بينه وبين

الفلاحة البائسة ؛ بينما كانت ليزا ترى اية كراهية قائمة بين والديهما ، ولم تستطع ان تأمل فى مصالحة متبادلة . وفضلا عن ذلك ، فان انفتها قد اضرمها بالخفاء أمل رومانطيقي مبهم فى ان ترى ، فى آخر الامر ، صاحب ضيعة توغيلوفو مرتميـــا على قدمى ابنـــــة حداد بريلوتشينو . واذا بحدث مهم كاد يغير العلائق فيما بينهما .

فى صباح بارد صاف (من تلك الصباحات الثرى بها خريفنا الروسى) خرج ايفان بتروفيتش بيرستوف ليتنزه على فرسه ، بعد ان اخذ معه للحيطة ثلاثة ازواج من كلاب الصيد ، وسائســـا ، وبعض الغلمان الخدم حاملين الخشخاشـــــات . وفى نفس الوقت كان غريغورى ايفانوفيتش مورومسكى ، وقد اغرته جودة الطقس ، قد أمر بان تُسرج فرسه المقصوصة الذيل ، وانطلق يعدو قرب ممتلكاته المتنجلزة . ورأى لدى اقترابه من الغابة جاره جالسا بأنَفَةٍ على صهـــوة حصانه فى سترة طويلة مؤطرة بفراء ثعلب ، ينتظر ارنبا كان الغلمان يخرجونه من الدغل بالزعيـــــق والخشخشة . لو كان غريغورى ايفانوفيتش قادرا على ان يتنبأ بهذا اللقاء ، لانعطف فى ناحية ، بالطبع ؛ الا انه وقع على بيرستوف مصادفة ، ووجد نفسه فجأة على بُعْد اطلاقة مسدس منه . فلا بدَّ مما ليس منه

بد . تقدم مورومسكى ، كرجل اوروبى مثقف ، نحو خصمه ، وحياه باحترام . وردّ بيرستوف التحيـــة بحماس دب مقيّـد ينحني **للسادة** حسب أمر مروضه . وفى تلك اللحظة قفز الارنب خارجا من الغابة ، وركض فى الحقـــــل . زعق بيرستوف والسائس باقصى مـــا تستطيعه حنجرتاهما ، واطلقا الكلاب ، وآنطلقا فى اثره لا يلويان على شىء . فزعت فرس مورومسكى التى لم تكن قد خرجت للصيد من قبل وانطلقت تعدو . ارخى مورومسكى العنان لها ، وكان يعتبر نفسه فارســـا ممتازا ، ورضى فى دخيلة نفسه بهذه المصادفة ، التى صرفته عن رجل يكره الحديث معه . الا ان الفرس حين وصلت الى وهدة لم ترها من قبل ، تنحت جانبا فجأة ، ففقد مورومسكى مكانه من السرج ، وهوى ثقيلا جدا على ارض متجمدة ، واستلقى لاعنا فرسه المقصوصة الذيل ، التى توقفت كمن افاق على نفسه ما ان احست بانها بدون راكبها . خبّ ايفان بتروفيتش على فرسه نحوه سائلا اياه هل اصيب بأذى . وخلال ذلك قاد السائسُ الفرس المذنبة ماسكا اياها مـــن لجامها . وساعد مورومسكى على امتطاء صهوتها . بينما دعاه بيرستوف اليه : ولم يستطع مورومسكى الرفض ، لانه احس بانه مدين ، وهكذا عاد بيرستوف

الى بيته مظفرا ، بعد ان اصطاد أرنبا ، وقاد خصمه جريحا ، ويكاد يكون اسير حرب .

تحدث الجاران بود كثير ، وهمـــــا يتناولان الفطور . طلب مورومسكى من بيرستوف عربة صغيرة ، لانه اعترف بانه ، لما لحقه من اذى ، غير قادر على الوصول الى بيته راكبا فرسه . رافقه بيرستوف حتى مدخل البيت ، اما مورومسكي فلم يغادر الا بعد ان أخذ منه عهدا بان يأتى فى اليوم التالى (مع الكسى ايفانوفيتش) ليتناول غداء وديا فى بريلوتشينو . وعلىٰ هذا النحو كان العداء القديم والمتأصل على وشك ان يزول بسبب ذعر الفرس المقصوصة الذيل .

هرعت ليزا للقاء ابيها غريغورى ايفانوفيتش وقالت مندهشة : «ما هذا ، يا بابا ؟ لماذا تعرج ؟ اين فرسك ؟ ولمن هذه العربة ؟» اجابهـــــا غريغورى ايفانوفيتش «انك لن تحزرى ، my dear» *، وروى لها ما حدث . لم تصدق ليزا اذنيها . ولم يدعها غريغورى ايفانوفيتش تفوق على نفسها معلنا ان بيرستوف الاب وابنه سيتغديان عنده غداً . قالت ليزا شاحبة اللون : «ما الذى تقوله ! بيرستوف الاب وبيرستوف الابن ! غدا سيتغديان عندنا ! لا ، لا يا ابى ، ليكن ما تريد

---

* يا عزيزتى . (بالانجليزية .)

ولكنى لن اظهر مهما يكن من شيء» . فاعترض الاب قائلا : «هل جننت ؟ متى اصبحت بهذا الحياء ؟ ام تضمرين عداوة موروثة ، مثل بطلـــة روائية ؟ كفى ، لا تتحامقى ...» ـ «لا ، يا بابا ، لن اظهر امام بيرستوف وابنـــه ولو أُعطيت كنوز الارض» . هزّ غريغورى ايفانوفيتش كتفيه ، وكف عن مجادلتها ، لانه كان يعرف ان التصادم معها لا يأتى بشيء ، وذهب ليستريح من نزهته المذكورة .

ذهبت اليزافيتا غريغوريفنا الى غرفتهــــا ، وأستدعت ناستيا . وتناقشت الاثنتان طويلا فى زيارة الغد . ماذا سيظن الكسى إذا عرف فى شخص الآنسة النبيلة المؤدبة صاحبته أكولينا ؟ وماذا سيكون رأيه فى سلوكها ، وأصولها وحجاها ؟ ومن جهة اخرى كانت ليزا تود كثيرا لو ترى الأثر الذى سيتركه فيه هذا اللقاء غير المتوقع ابدا ... وفجأة ومضت فكرة فى ذهنها افضت بها الى ناستيا فى الحال ، وسرت الفتاتان بها كلُقية ، ورأتا ان تنفذ حتما .

فى اليوم التالى سأل غريغورى آيفانوفيتش ابنته على مائدة الفطور اما تزال تنوى الاختفـــاء عن بيرستوف الاب وابنـــه ؟ اجابت ليزا : «بابـــا ، ساستقبلهما ، اذا كان هذا يروق لك ، ولكن على شرط هو انك لن توبخنى مهما اتخذت من زى ، ومهما اتيت

من عمل ، ولن تصدر منك اية امارة تنم عن دهشة او استياء» . قال غريغورى ايفانوفيتش ضاحكا : «مرة اخرى نزوآت ! حسنا ، حسنا ، موافق . افعلى ما تشائين ، يا مدللتى السوداء العينين» . وبهذه الكلمات قبلها من جبينها ، وانصرفت ليزا لتستعد .

فى تمام الساعة الثانية دخلت الفناء عربة من صنع معمل بيرستوف تجرها ستة خيول ، وسارت قرب دائرة العشب الشديد الخضرة . وخرج بيرستوف الكبير الى مدخل البيت يساعده خادمان ببزتيهما الرسميتين من خدم مورومسكى . وفى آثره وصل ابنه ممتطيا صهوة جواد ، ودخل معه الى غرفة الطعام ، حيث كانت المائدة معدة . استقبل مورومسكى جاريه على احسن ما تكون الرقة ، واقترح عليهما تفقد الحديقة ومأوى الدواجن قبل الغداء ، وقادهما عبر ممرات مكنوسة بعناية ، ومفروشة بالرمل . أسف بيرستوف فى قرارة نفسه على بذل الجهد والوقت فى نزوات غير مفيدة البتة ، الا انه التزم الصمت تأدبا . ولم يشاطر ابنه استياء ابيه المقتصد ، ولا آعجابا بالمتنجلز المغرور . وانتظر بنفاد صبر ظهور ابنة صاحب الدآر ، التى سمع عنها الكثير ، رغم ان قلبه ، كما نعرف ، كان مشغولا ، الا ان اى حسناء شابة كانت تملك الحق فى مداعبة خياله .

عادوا الى غرفة الطعام ، وجلسوا ثلاثتَهم . تذكر العجوزان الزمن الخالى ، ونوادر من زمن خدمتهما فى الجيش ، بينمـــــا راح الكسى يفكر فى الدور الذى سيلعبه فى حضور ليزا . وقرر ان السهوم البارد ، فى كل الاحوال ، احشم المواقف ، واستعد لذلك . فُتِح الباب ، فادار رأسه بقدر من عدم الاكتراث والتجرُّد الأَنوف كافٍ ، لا محالة ، ليثير قلب اى مغناج شديدة الغنج . ومن المؤسف ان الداخلة لم تكن ليزا ، بل مس جاكسون مبودرة مضغوطة بالمشدات ، مطرقة العينين ، ومنحنية قليلا تحيـــة للضيوف ، وضاعت حركة الكسى العسكرية الرائعة هباء . وما كاد يستعيد شتات قواه حتى فتح الباب ثانية ، ودخلت ليزا فى هذه المرة . نهض الجميع ؛ واخذ ابوها يقدم ضيفيه ، ولكنه توقف فجأة ، وعض شفتيه بعجالة . كانت ليزا ، ليزاه السمراء ، مبودرة الى اذنيها ، مكحلة باكثف مما تتكحل به مس جاكسون نفسها ؛ ومن شعرهـــــا الاصطناعى الذى كان اشرق لونا تناثرت خصلات مثل باروكة لويس الرابع عشر ، وبرز الردنان à l'imbécile * ، مثـــل قالب التنورة عنـــد

---

* بطريقة حمقاء . (بالفرنسية .)

Madame de Pompadour * ؛ وقد شدّ خصرها شدا قويا فكان مثل حرف „X„ ، وكانت جميع مجوهرات أمها التى لم تودع بعـــد فى دائرة الرهونات تتلألأ فى اصابعها ، وعلى نحرها ، واذنيها . لم يستطع الكسى ان يتعرف على صاحبته اكولينا فى هذه الآنسة النبيلة المضحكة اللامعة . انحنى ابوه على يدها الصغيرة ، فحذا حذوَه بأسى . وحين مسّ اصابعها الشاحبة خيل اليه انها ارتجفت . وخلال ذلك استطاع ان يلاحظ قدمها الصغيرة ، المعروضة عن قصـــــد ، والمحتذية حذاء يكشف عن منتهى الغنج . وجعله هذا يتسامح بعض الشىء عن سائر زيها . اما البودرة والكحل فانـــه لصفاء قلبه ، والحق يُقال ، لم يلحظهما فى النظرة الاولى ، وبعد ذلك لم تثر انتباهه . تذكر غريغورى ايفانوفيتش وعده ، فحاول الا يظهر دهشته ؛ الا ان عبث ابنته بدا له مسليا جدا فما كاد يستطيع ضبط نفسه . ولم يكن للانجليزية المتزمتة مزاج للضحك . فقد حدست ان الكحل والبودرة مسروقان من صوانها ، فشعت حمرة الأسى القرمزية من خلال بياض وجهها المصنوع . القت نظرات لاهبة على الطائشة الشابة ،

---

* السيدة دى بومبادور ، محبوبـــة الملك لويس الخامس عشر . (**الناشر .**)

التى تظاهرت بانها لا تلاحظها ، مؤجلة كل ايضاح الى وقت آخر .

جلسوا الى المائدة . وتابع آلكسى تمثيله دور الساهم الغارق فى افكاره . وتصنعت ليزا ، وتكلمت من خلال اسنانها ، بصوت مترنم ، وبالفرنسية فقط . وكان ابوها يطيل النظر اليها كثيرا ، غير فاهم بغيتها ، ولكن يحسب ذلك كله مسليـــــا جدا . واغتاظت الانجليزية واعتصمت بالصمت . وكان ايفان بتروفيتش وحده مرتاحا ، وكأنه فى بيته : أكل ما يشبـــــع شخصين ، وشرب كفايتَه ، وضحك على ضحكـــه ، وبمرور الوقت صار يتحدث بود متزايد ويقهقه .

وفى نهاية الأمر نهضـــوا من وراء المائدة ، وانصرف الضيفان . واطلـــق غريغورى ايفانوفيتش العنان للضحك والاسئلة . سأل ليزا : «لماذآ فكرت فى مخابثتهما ؟ أتعرفين ؟ كانت البودرة ملائمة لك حقا ، لا اريد ان اتدخل فى اسرار الزينة النسائية ، ولكن لو كنت فى مكانك لمضيت فى البودرة ، وطبيعى ليس بذلك الافراط ، بل أخف» . وكانت ليزا مفتونة بنجاح لعبتها . عانقت اباها ، ووعدت بان تفكر فى نصيحتـــه ، وركضت لتسترضى مس جاكسون التى وافقت بعد لاى على ان تفتح بابهـــا ، وتصغى الى تبريرها . آنها خجلت ان تظهر امام اناس غربـــاء

سمراء البشرة؛ ولم تجرأ على ان تطلب... ولكنها كانت واثقة من ان مس جاكسون الطيبة اللطيفة ستسامحها ... وهكذا ، وعلى هذا المنوال . ولما تأكدت مس جاكسون من ان ليزا لم تفكر فى الضحك منها ، هدأت ، وقبلت ليزا ، واهدت لها علبة من البودرة الانجليزية كامارة على المصالحة ، فتقبلتها ليزا مع ابداء الشكر الصادق .

والقارئ يحزر ان ليزا لم تتوان فى ان تظهر فى صباح اليوم التالى فى حرش اللقاء . وسألت الكسى على الفور : «كنت ، يا سيد ، عند اسيادنا يوم أمس ؟ ما رأيك بالآنسة سيدتنا ؟» . اجاب الكسى انه لم الناس ...» ـ «ماذا يقولون ؟» ـ «أحق ما يقولون يلحظها . فردت ليزا : «مؤسف !» فسأل الكسى : «ولماذا ؟» ـ «لانني آردت ان اسألك أحق ما يقول انني اشبه الآنسة ابنة سيدنا ؟»ـ«هراء ! انها بالنسبة لك اقبح القبح» ـ «آه ، ايها السيد ، من الخطيئة ان تقول ذلك . ان آنستنا بيضاء عصرية ! فكيف اقارن بها !» اقسم الكسى لها بانها احسن جميع الاوانس البيضاوات ، ولكى يطمئنها تماما راح يصف سيدتها باوصاف مضحكة جعلت ليزا تغرق فى الضحك من كل قلبها . وقالت متنهدة : «ومع ذلك وان كانت الآنسة مضحكة ، فانا بالنسبة لها بلهاء

أمية » . فقال الكسى « آه ، وجدت ما يحزن عليه ! اذا كنت تريدين علمتك القراءة والكتابة فى الحال » . قالت ليزا : « اذن لنحاول » ــ « تفضلى ، يا عزيزتى ، عسى ان نبدأ من الآن » . وجلسا . واخرج الكسى قلما من جيبه ، ودفتر جيب ، وحفظت اكولينا الابجدية بسرعة مذهلة . واعجب الكسى اعجابا لا نهايـــة له بسرعة ادراكها . وفى اليوم التالى ارادت ان تكتب ايضا. وبدأ القلم لا يطاوعها ، ولكن بعد بضع دقائق اخذت ترسم الحروف الابجدية على قدر كاف من الصحة . قال الكسى : « اية اعجوبة ! تدريسنا يسير اسرع مما يسير على نظام لانكستر » . وفى واقع الامر قرأت أكولينا قصة « ناتاليا ، ابنة البيار » * مقطعة الكلمات الى مقاطع ، مبدية بين الحين والآخر ملاحظات اذهلت الكسى عن جد ، وكتبت صفحة كاملة من الحكم المأثورة المأخوذة من هذه القصة .

ومضى اسبوع ، وجرى بينهما تراسل . اقيمت دائرة بريد فى تجويف شجرة بلوط عجوز . وقامت ناستيا سرا بواجب ساعى البريد . وكان الكسى يحمل الى هناك الرسائل المكتوبة بخط كبير ، ويجد كلمات محبوبته غير المستقيمة المكتوبـــة على ورق ازرق

---

* البيار ــ فئة اجتماعية عليا فى روسيا . (**المترجم .**)

بسيط . والظاهر ان أكولينا تعودت اكثر على تقويم العبارة ، وكان عقلها يتطور ويتهذب بشكل ملحوظ .

وخلال ذلك أخذت الصحبة الجديدة بين ايفان بتروفيتش بيرستوف وغريغوري ايفانوفيتش موروموسكي تقوى شيئا فشيئا ، وسرعان ما تحولت الى صداقة ، وفق هذه الملابسات : كثيرا ما فكر موروموسكي بأنه بوفاة آيفان بتروفيتش ستنتقل ضيعته كلها الى يد الكسي ايفانوفيتش ؛ وعلى هذا النحو يصبح الكسي ايفانوفيتش من اغنى اصحاب الاراضي في تلك الولاية ، ثم ليس هناك سبب يمنع الكسي من الزواج بليزا . اما بيرستوف العجوز فعلى الرغم من اقراره بوجود بعض الطيش في جاره (او الحماقة الانجليزية ، على حد تعبيره) ، فانه لم ينكر فيه بعض الخصال الحميدة ، ومن ذلك حسن تدبير نادر . كان غريغوري ايفانوفيتش موروموسكي يمت بصلة قربى قريبة للكونت برونسكي ، الرجل البارز والقوي البأس . وكان في مقدور الكونت ان يكون مفيدا جدا لالكسي ، اما موروموسكي فمن المحتمل (وهذا ما كان يفكر به بيرستوف) ان يسر بان يزوج ابنته بطريقة نافعة . كان كلا العجوزين يفكر بذلك على انفراد ، حتى جاء وقت ، في نهاية الأمر ، تكاشفا فيه ، وتعانقا ، ووعد احدهما الآخر بان يعالج الامر معالجة

مدروسة ، ثم اخذ كل واحد يسعى من جهته . وكانت امام موروسكى صعوبة ، هى ان يقنع ابنته بتسى ان تتعرف عن قرب بالكسى الذى لم تره منذ ذلك الغداء المشهود . وظهر ان احدهما لا يروق كثيرا للآخر ؛ أو على اقل تقدير لم يعد الكسى الى بريلوتشينو ، بينما لزمت ليزا غرفتها كلما تلطف ايفـــــان بتروفيتش بزيارتهما . وفكر غريغورى ايفانوفيتش ؛ ولكن اذا كان الكسى سيدأب على زيارتنا كل يوم ، فإن بيتسى ستقع فى غرامه لا محالة . فان ذلك من طبيعــــــة الاشياء . والزمن يسوى كل شىء .

كان ايفـــان بتروفيتش اقل قلقـــــا من نجاح مقاصدهما . فى ذلك المساء استدعى ابنه الى مكتبه ، واشعل غليونه ، وقال بعد برهة من الصمت : « لماذا كففت منذ زمان عن التحدث عن الخدمة العسكرية ، يا الكسى ؟ ام لم تعد بزة الفارس تفتنك ؟ .. » اجاب الكسى باحترام : « لا ، يا ابى ، ارى انك لا تريد أن ادخل فى سلك الفرسان ، وواجبى ان اطيعك » . ردً ايفان بتروفيتش : « حسنا ، انا أرى انك ابن مطيع ، وهذا ما يسليني : ولكنى انا ايضا لا اريد ان اقف دون ارادتك ، ولا اقسرك على الدخـــول ... الآن ... فى الخدمة المدنيـــة ؛ ولكن أنوى فى الوقـــت الحاضر تزويجك » .

سأل الكسى مندهشا :

ـ بمن ، يا ابى ؟

اجاب آيفان بتروفيتش :

ـ بليزافيتا غريغوريفنا موروموسكايا . عروسة ممتازة ، أليس كذلك ؟

ـ يا ابى ، انا لا افكر بالزواج بعد .

ـ انت لا تفكر . ولكننى فكرت لك واطلت التفكير .

ـ هذا شأنـــــك . مع ان ليزا موروموسكايا لا تعجبنى البتة .

ـ ستعجبك فيما بعد . اصبر تحب .

ـ انا لا اشعر باننى قادر على ان اهبها سعادتها .

ـ سعادتها ليست من شأنك . ماذا ؟ اذن ، على هذا النحو تحترم ارآدة الوالد ؟ طيب !

ـ حسب ما تشاء ، ولكن انا لا اريد ان اتزوج ، ولن اتزوج .

ـ ستتزوج والا فستحل عليك لعنتى ، امـــــا الضيعة ، فسأبيعها ، والله ، وأبذر النقـــود ، ولا يبقى لك شروى نقير ! سأمهلك ثلاثة ايام للتفكير ، وحتى ذلك الحين لا تجرأ على ان تقع أمام بصرى .

كان الكسى يعرف ان اباه اذا عزم على شيء فلن تستطيع ان تقلعه من رأســـــه على حد تعبير تاراس سكوتينين . ولكن الكسى فى طباعه كان شبيها بابيه .

ومن الصعب جدا ان تثنيه عن مرامه . أوى الى غرفته ، وراح يفكر فى حدود سلطة الوالد ، وفى ليزافيتا غريغوريفنا ، وفى وعد ابيه علنا بان يجعله معدما ، واخيرا فى أكولينا . ولاول مرة رأى بوضوح انه متيم بها ؛ وخطرت فى باله الفكرة الروائية فى الزواج بفلاحة ، والعيش بكدحه ، وكلما اطال التفكير فى هذا المسلك الحازم رأى فيه المزيد من التبصير . وكانت اللقاءات فى الحرش قد انقطعت بعض الوقت بسبب الطقس الممطر . كتب لأكولينا رسالة بأوضح خط ، وبألهب عبارة يعلمها بالدمار الذى يهددهما ، ويعرض لها يده فى الوقت ذاته . وقد حمل الرسالة فورا الى نقطة بريدهما فى شجرة البلوط ، واوى الى مضجعه راضيا عن نفسه كثيرا .

وفى بكرة الصباح التالى ذهب الكسى الى مورومسكى ثابتا على نيته ، ليكاشفه بصراحة . وأمل ان يثير نخوته ، ويستميله الى جانبه . أوقف حصانه امام مدخل قصر بريلوتشينو ، وسأل : «هل غريغورى ايفانوفيتش فى البيت ؟» اجاب الخادم : «لا ، لقد خرج غريغورى ايفانوفيتش منذ الصباح» . وفكر الكسى : «يا للأسف !» وسأل : «على كل حال ، هل ليزافيتا غريغوريفنا موجودة ؟» — «نعم» . وقفز الكسى من جواده ، وسلم المقود فى يد الخادم ، ودخل دون تبليغ سابق .

وفكر ، وهو يقترب من غرفة الجلوس : «سيتقرر كل شيء . وسيكاشفها» . ودخل ... وتوقف ! كانت ليزا ... لا ، ليست ليزا بل أكولينا ، السمراء الحبيبة أكولينا ، تجلس امام النافذة مرتدية ثوبا صباحيا ابيض وليس سرفانا ، تطالع رسالته . كانت مستغرقة فى القراءة حتى انها لم تسمع حركته وهو يدخل . ولم يستطع الكسى ان يكتم أهة الفرح . جفلت ليزا ، ورفعت رأسها ، وصرخت ، وهمت بالاختفاء . اندفع الكسى يمنعها . «أكولينا ، أكولينا ! ..» حاولت ليزا ان تحرر نفسها منه ... كررت متنحية :
* "Mais laissez-mai donc, monsieur; mais êtes-vous fou?" وكرر هو مقبلا يدها : «أكولينا ، يا صديقتى ، أكولينا» . ولم تدر مس جاكسون التى شهدت هذا المنظر ماذا يحدث . وفى تلك اللحظة فُتِح الباب ، ودخل غريغورى ايفانوفيتش . قال :

ــ أها ! يبدو ان قضيتكما منتهية تماما ...

والقراء سيعفوننى عن أمر زائد هو وصف حل العقدة .

نهاية قصص بيلكين

١٨٣٠

---

* اتركنى ايها السيد ، هل جننت ؟ (**بالفرنسية** .)

ملكة البستونى

ملكة البستونى تعنى
سوء طوية مضمرا .
كتاب الاحازير الحديث

١

وفى الايام الممطرة
كانوا يجتمعون
مرارا ؛
راهنوا ــ سامحهم الله ــ
من خمسين
الى مئة ،
وكانوا يربحون
ويسجلون
بالطباشير .
وهكذا ، فى الايام الممطرة ،
كانوا يزاولون
العمل .

ذات مرة كانوا يلعبون الورق عند ضابط حرس الفرسان ناروموف . وانقضى الليل الشتائى الطويل دون ان يلحظ . وجلسوا الى العشاء فى الساعة الخامسة صباحا . والذين ربحوا أكلوا بشهية عظيمة ؛ بينما

جلس الآخرون ساهمين وراء اطباقهم الفارغة . الا ان الشمبانيا ظهرت ، وانتعش الحديث ، واشترك الجميع فيه . سأل رب الدار :

ـ ماذا فعلت ، يا سورين ؟

ـ خسرت كالمعتاد . ينبغي الاعتراف بانني سيء الحظ . اراهن باعتدال ، ولا احتد أبدا ، ولا شيء يفقدنى توازنى . ومع ذلك أخسر !

ـ وأنت ؟ لا أراك تخضع للاغراء مرة ؟ ولم تقامر على ورقة مرتين ؟ ان صلابتك لتدهشنى .

قال احد الضيوف مشيرا الى مهندس شاب :

ـ هيرمان العجيب ! لم يمسك الورق فى يده منذ ان وَلد ، ولم يشترك فى رهان واحد قط ، ولكنه يجلس معنا حتى الساعة الخامسة صباحا ، ويشاهد لعبنا .

قال هرمان :

ـ يأسرنى اللعب بشدة . ولكننى لا استطيع ان اضحى بما هو ضرورى على أمل ان اكسب شيئا زائدا .

لاحظ تومسكي قائلا :

ـ هيرمان الماني ، اذن فهو مقتصد . وهذا كل ما فى الأمر . واذا كان ثمة شخص لا أفهمه فهو جدتى الكونتيسة آنا فيدوتوفنا .

سأل الضيوف :ـ كيف ؟ وماذا ؟
مضى تومسكى يقول :
ـ لا استطيع ان أفهم كيف لا تقامر جدتى !
قال ناروموف :
ـ وما الغرابة فى ان لا تقامر عجوز فى الثمانين ؟
ـ اذن ، فانتم لا تعرفون شيئا عنها ؟
ـ لا ، حقا ، لا شىء !
ـ أوه ، اذن فأسمعوا :

ينبغي ان تعرفوا أن جدتى كانت قد سافرت الى باريس قبل ستين عاما ، وكانت هناك ملكة صالونات ترتدى احدث الازياء . كان الناس يهرعون لالقاء نظرة على la Vénus moscovite * ، وكان ريشيلو يغازلها ، وتؤكد الجدة انه كاد يطلق النار على نفسه لقساوتها .

فى ذلك الزمن كانت النساء يلعبن لعبة ورق تسمى «فرعون» . وذات مرة لعبت فى البلاط ، بكلمة تعهد اعطتها لدوق اورليان ، فخسرت مبلغا كبيرا من المال . وحين وصلت الى البيت ، خلعت شامات الزينة من على وجهها ، وفكت قالب التنورة ، وابلغت جدى بخسارتها ، وطلبت منه ان يدفع المبلغ .

---

* فينوس الموسكوفية . (**بالفرنسية .**)

كان المرحوم جدى ، بقدرما أذكر ، من سلالة رئيس خدم لجدتى . وكان يخافها كما يخاف النار ، إلا أنه حين سمع بهذه الخسارة ، خرج عن اطواره ، وجلب الحسابات ، وبرهن لها على انهما انفقا خلال نصف عام نصف مليون ، وانهما لا يملكان فى ضاحية باريس ضيعة مثل ضيعتهما فى ضواحى موسكو ، أو ساراتوف ، ورفض دفع المال رفضا باتا . صفعته الجدة ، وذهبت لتنام وحدها اشارة على عدم غفرانها.

وفى اليوم التالى طلبت ان يستدعى زوجها مؤملة ان يكون عقابها البيتى قد أثر فيه ، الا انها وجدته على تصلبه . هذه اول مرة وصلت فيها معه الى النقاش والايضاح ، وفكرت فى ان تنخوه مبرهنة له بلطف بان هناك فرقا بين دين ودين ، وان هناك فرقا بين آمير وصانع عربات . وما من جدوى ! تمرد الجد . لا ، ولا غيرها ! ولم تعرف الجدة ماذا تفعل .

كانت الجدة على معرفة قريبة برجل رائع جداً . انتم سمعتم بالكونت سان-جرمان الذى تروى عنه الكثير من الاعاجيب . انتم تعرفون آنه كان يدعى بأنه اليهودى التائه أبدا ، ومخترع اكسير الحياة ، وحجر الفلاسفة ، الى غير ذلك . وكان الناس يضحكون منه كما يضحكون من مشعوذ ، بينما يقول كازانوفا فى مذكراته انه كان جاسوسا . بالمناسبة ، كان لسان-

جرمان ، رغم غموضه ، مظهر محترم جدا ، وكان فى مجتمع الناس رجلا جمّ الادب . وجدتى حتى الآن تهيم به حبا ، وتغضب اذا تحدث الناس عنه بغير احترام . كانت الجدة تعرف ان من الممكن ان تكون لسان-جرمان اموال طائلة . فقررت اللجوء اليه . كتبت له رسالة ، طلبت فيها ان يتوجه اليها على الفور .

وصل العجوز الغريب الاطوار فى الحال ، ووجدها فى بلوى مريعة . وصفت له بأحلك الالوان وحشية زوجها ، وقالت اخيرا ان كل أملها تضعه فى صداقته واريحيته .

وفكر سان-جرمان . ثم قال : «استطيع أن اقدم لك هذا المبلغ . ولكننى اعرف انك لن تهدئى حتى تعيدى لى المال . بينما لا أريد ان اشغلك فى هموم جديدة . هناك وسيلة أخرى ، وهى أنك تستطيعين ان تستردى المبلغ باللعب» . اجابت الجدة : «ولكن ، ايها الكونت الطيب ، قلت لك اننا لا نملك نقودا البتة» . فردّ سان-جرمان قائلا : «لاحاجة الى نقود ارجو أن تسمعى لى» . وعندئذ كشف لها السرّ الذى لوكشف لأى واحد منا لدفع له ثمنا غاليا ...

شدّد اللاعبون الشبان من اهتمامهم ، وأشعل تومسكى غليونه ، ومصّ مصات منه ، ثم استمر يقول :

فى ذلك المساء ذاته ظهرت الجدة فى فرسـاى au jeu de la Reine * . كان دوق اورليـان يوزع الورق . آعتذرت الجدة بعض الشىء عن عدم اتيانهـا بالفلوس المستحقة عليها ، ولفقت فى تبرير ذلك حكاية صغيرة ، وأخذت تقامر ضده . اختارت ثلاث ورقات ، وراهنت على الورقة الاولى ، ثم الثانية وبعدها الثالثة : فأربحتها الورقات الثلاث جميعا من الرهان الأول ، واستردت الجدة خسارتها تماما .

قال احد الضيوف :

ـ مصادفة !

وقال هيرمان :

ـ حكاية !

واضاف ثالث :

ـ لعله ورق مغشوش ؟

اجاب تومسكى برصانة :

ـ لا اظن ذلك .

قال ناروموف :

ـ عجبـاً ! ان لك جدة تحزر ثلاث اوراق متتالية ، وانت حتى الآن لم تتلق منها آسرارها ؟

اجاب تومسكى :

---

* لتلعب الورق عند الملكة . **(بالفرنسية .)**

ـ لا ، ابدا . كان لها اربعة ابناء ، من بينهم ابي . والاربعة جميعا مقامرون مدمنون ، ولم تكشف لأحد منهم سرها ، رغم ان ذلك ما كان ليكوز سيئا لهم ، وحتى لى . ولكن عمى الكونت آيفان ايليتش روى لى مؤكدا اقواله بكلمة شرف ، أن المرحوم تشابليتسكى ، ذلك الرجل الذى توفى فى فاقة ، بعد ان بذر الملايين ، خسر ذات مرة ، وهو شاب ، نحوا من ثلثمائة الف لزوريتش ، على ما اذكر . وآصابه اليأس . اشفقت عليه جدتى على نحو ما ، رغم انها كانت صارمة ازاء نزوات الشبان . واعطته الورقات الثلاث ليراهن عليها بالتوالى ، واخذت منه عهداً بان لا يعاود اللعب فى المستقبل . جاء تشابليتسكى إلى غالبه ، وجلس الاثنان للعب . راهن تشابليتسكى على الورقة الاولى بخمسين الف ، وربح من الرهان الأول ، وضاعف الرهان ثم ضاعف الرهان المضاعف حتى استرد خسارته ، وزيادة . . .

والآن حان وقت النوم ، الساعة السادسة إلا ربعا .

لقد شفّ الفجر حقا . اكمل الشبان احتساء اقداحهم ، وتفرقوا .

٢

* — Il paraît que monsieur est décidément pour les suivantes.
— Que voulez-vous, madame ? Elles sont plus fraîches.

حديث في مجتمع راق

كانت الكونتيسة العجوز ن ... جالسة في غرفة زينتها امام المرآة ، تحيط بها ثلاث فتيات . كانت احداهن تمسك بحُق الحمرة ، والثانية بعلبة دبابيس الشعر ، والثالثة بقبعة عالية ذات اشرطة بلون النار . كانت الكونتيسة لا تدعى لنفسها قط جمالا ذوى منذ زمان ، آلا انها ما زالت تحتفظ بكل عادات شبابها ، وتتمسك بأزياء السبعينيات بشدة ، وترتدى ملابسها بعناية وتستغرق في ذلك وقتا طويلا كما كانت تفعل قبل ستين عاما . وكانت الآنسة ربيبتها تجلس الى طرة التطريز عند النافذة .

دخل ضابط شاب وقال :

— مرحبــــــا يــــــا grand'maman * * ؛ bon jour, mademoiselle Lise * * * . لى رجاء عندك ، يا grand'maman .

---

* — يبدو انك تفضلين الوصيفات بشكل ثابت .
— ما العمـــل ، يا سيدتى ؟ انهن أكثر نضـــارة . **(بالفرنسية .)**

* * الجدة . **(بالفرنسية .)**

* * * صباح الخير ، يا آنسة ليزا . **(بالفرنسية .)**

ـ ما هو ، Paul ؟

ـ اسمحى لى بأن اقدم لك احـــــد أصحابى ، وان احضره لك في الحفلة الراقصة يوم الجمعة .

ـ احضره لي في الحفلة الراقصة ، وقدمـــــه لي هناك . هل كنت بالامس عند ك . . . ؟

ـ بالطبع ! وكان الجو مرحا جدا . رقصنا حتى الساعة الخامسة . وكانت يليتسكايا حلوة جداً !

ـ آه ، يا عزيزى ! أية حلاوة فيها ؟ أمــــا حلاوة جدتها الاميرة داريا بيتروفنا فكانت باهرة . . . بالمناسبة أظن أنها قد شاخت كثيرا ، هذه الاميرة داريا بيتروفنا ، أليس كذلك ؟

قال تومسكى شارد الفكر :

ـ كيف شاخت ؟ انها توفيت منذ سبعة آعوام تقريباً .

رفعت الآنسة رأسها ، وأومأت للشاب . فتذكر أنهم كانوا يخفون عن الكونتيسة العجوز وفاة اترابها ، فعض شفته . الا آن الكونتيسة قد سمعت الخبر الجديد عليها بكثير من عدم الاكتراث .

قالت :

ـ توفيت ! ولم أكن اعرف ! وقد منحنا سوية لقب وصيفتي شرف للقيصرة ، وعندما قدمنا اليها . . .

وقصت الكونتيسة لحفيدها قصتها للمرة المائة .

وقالت فيما بعد :

ـ والآن ، Paul ، ساعدنى على النهوض . اين علبة سعوطى ، يا ليزا ؟

واختفت الكونتيسة مع فتياتها وراء الستائر لتكمل زينتها . وبقى تومسكى مع الآنسة ليزافيتا ايفانوفنا التى سألت :

ـ من هذا الذى تريد ان تقدمه ؟

ـ ناروموف . هل تعرفينه ؟

ـ لا ! أهو عسكرى ام مدنى ؟

ـ عسكرى .

ـ مهندس ؟

ـ لا . من سلك الفرسان . ولماذا ظننت انه مهندس ؟

ضحكت الآنسة ، ولم تحرجوابا .

صاحت الكونتيسة من وراء الستائر :

ـ Paul! ارسل لى رواية جديدة ، فقط ان لا تكون من روايات اليوم ، ارجوك .

ـ ماذا يعنى grand'maman ؟

ـ اقصد رواية لا يخنق البطل فيها اباه ولا أمه ، ولا توجد فيها جثث غرقى . أنا اخاف من الغرق بفظاعة !

ـ لا توجد مثل هذه الروايات اليوم . ألا تريدين روايات روسية ؟

ـ وهل توجد روايات روسية حقا ؟ . . ارسل لى ، يا عزيزى ، أرسل لى ارجوك .

ـ اعذرينى ، grand'maman ، فأنا مستعجل . . . اعذرينى يا ليزافيتا ايفانوفنـــا . لماذا ظننت ان ناروموف مهندس ؟

وخرج تومسكى من غرفة الزينة .

بقيت ليزافيتا ايفانوفنـــا وحدهـــا . وضعت تطريزها ، وراحت تنظر خلال النافذة . بعد قليل ظهر ضابط شاب من وراء بيت فى ركن من جهة فى الشارع . توردت وجنتاها ، فعادت الى تطريزها ، وأحنت رأسها حتى القماشة . وفى تلك اللحظة دخلت الكونتيسة بكامل حلتها . قالت :

ـ أطلبى ، يا ليزافيتا ، ان تعد العربة . ولنخرج فى نزهة .

نهضت ليزافيتا من وراء طرة التطريز ، واخذت تجمع شغلها . صرخت الكونتيسة :

ـ ماذا بك ، يا عزيزتى ! صماء انت ! اطلبى ان تعد العربة فى الحال .

ـ الآن ! ـ ردت الآنســـة خافتـــة الصوت ، وركضت الى مقدمة البيت .

دخل خادم ، وقدَّم للكونتيسة كتبا من الأمير باقل الكسندروفيتش . قالت الكونتيسة :

ــ حسنــا ! انقل له شكرى . ليزافيتــا ، ليزافيتا ، الى اين انت ذاهبة ؟

ــ لارتداء ثيابى .

ــ انتظرى ، يا عزيزتى . اجلسى هنا . افتحى أول كتاب ، واقرئى بصوت عال ...

تناولت الآنســة كتابا ، وقرأت عدة سطور . قالت الكونتيسة :

ــ بصوت أعلى ! ماذا حلَّ بك ، يا عزيزتى ؟ هل فقدت صوتك ؟ .. انتظرى : حركى لى المقعد ، أقرب ! ..

قرأت ليزافيتــا ايفانوفنــا صفحتين أخريين . وتثاءبت الكونتيسة وقالت :

ــ اتركى هذا الكتاب ، يالسخافته ! ارسليه الى الأمير باقل مع كلمات شكر ... ولكن اين العربة ؟

نظرت ليزافيتا ايفانوفنا الى الشارع ، وقالت :

ــ العربة جاهزة !

قالت الكونتيسة :

ــ ولِمَ لم ترتدى ملابسك ؟ دائمــا يجــب انتظارك ! هذا شىء لا يطاق ، يا عزيزتى .

هرعت ليزا الى غرفتها . ولم تمض دقيقتان حتى أخذت الكونتيسة تدق الجرس بكل مالها من قوة . دخلت الفتيات الثلاث راكضات من باب ، والخادم من باب آخر . قالت لهم الكونتيسة :

ـ الا يستدعيكم هذا الجرس الطويل ؟ قولوا لليزافيتا ايفانوفنا انني فى انتظارها .

دخلت ليزافيتا ايفانوفنا تضع عليها رداء ، وترتدي قبعة .

قالت الكونتيسة :

ـ واخيرا ! يا عزيزتى ، أىّ هندام هذا ! ولِمَ ذاك ؟ .. مَنْ تغرين ؟ .. ولكن كيف الطقس ؟ يبدو أن هناك ريحا .

اجاب الخادم :

ـ لا توجد ريح ، يا صاحبة السيادة ، الجو ساكن جدا !

ـ انت دائما تطلق القول جزافا ! افتح كوة الشباك . وستجد انني على حق ! ثم فى الجو لذعة برد ! اعيدوا العربة ! لا نخرج ، يا ليزافيتا . ما كان لك ان تأخذى زينتك .

فكرت ليزافيتا ايفانوفنا : «تلك هى حياتى !»

كانت ليزافيتا ايفانوفنا ، فى الواقع ، مخلوقا تعيسا . يقول دانتى إن خبز الآخرين مرّ ، والدرجات

الى مدخل بيوت الآخرين شاقة الصعود . ومن يعرف مرارة التبعية أكثر من ربيبة العجوز الوجيهة ؟ لم تكن الكونتيسة * * * لئيمة النفس ، بالطبع ، ولكنها كانت صاحبة اهواء ، مثل امرأة دللتها الحياة الراقية ، شحيحة ، ومثقلة بأنانية باردة . مثل جميع كبار السن الذين كفوا عن الحب فى سنهم ، وابتعدوا عن حاضرهم . كانت تشترك فى كل بهرجات المجتمع الراقى ، وتجر نفسها الى الحفلات الراقصة ، حيث كانت تجلس فى ركن ، محمرّة ، مرتدية زيها القديم ، مثل زينة قبيحة ولازمة لقاعة الرقص ، يتقدم منها الضيوف القادمون بانحناءات شديدة ، كفريضة واجبة ، ثم لا يعود لاحد شغل بها . وكانت تستقبل المدينة كلها فى دارها ، مراعية قواعد صارمة لآداب السلوك ، غير عارفة احدا من وجهه . وكانت خادماتها العديدات وقد سمن وشبن فى غرفهن يفعلن كل ما طاب لهن ، يزاحم بعضهن بعضا فى نهب العجوز الآيلة الى الموت . كانت ليزافيتا ايفانوفنا المعذبة فى البيت . اذا صبّت الشاى وُبّخت على تبذيرها السكر ؛ واذا قرأت الروايات بصوت مسموع لِيمتْ على كل اخطاء المؤلف ؛ وإذا صاحبت الكونتيسة فى نزهاتها حُمّلت مسؤولية الجو والرصيف . وقد عُيّن لها مرتب لم تاخذه كاملاً قط ، وفضلاً عن ذلك كان يطلب منها ان

تلبس مثل الجميع ، أى مثل القليلين جدا . وفى المجتمع الراقى كانت تلعب دورا بائسا جدا . كان الجميـــع يعرفها ، ولا أحد يعير لها التفاتا . وكانت لا ترقص فى الحفلات الا لسد عوز فى عدد الراقصات vis-à-vis * وكانت السيدات يتأبطن ذراعها كلما احتجن للذهـاب لاصلاح زينتهن . كانت أبية النفس ، تحس بوضعهـا احساسا قويا ، وتجيل البصر حولها منتظرة منقـــذا بنفاد صبر ؛ الا ان الشبان الماكرين بغرورهم المتقلّب لم يكونوا يولونها اهتماما ، رغم انها كانت أرق مائة مرة من الاوانس الباردات الخبيثات اللواتى كان هؤلاء الشبـــان يتهافتون قربهن . وكم من مرة كانت تترك غرفـــة الجلوس المضجرة المترفة وتذهب لتبكي فى غرفتها البائسة ، حيث كان ورق الجدران ملصقا على الستائر الخشبية المتنقلة ، وحيث توجد خزانـــــة بادراج ، ومرآة صغيرة ، وسرير مصبوغ ، وحيـــث كانت شمعة شحم فى شمعدان نحاسى ترسل ضـــوءا باهتا .

وذات مرة ـ بعد يومين من المساء الموصوف فى مستهل القصة ، وقبل اسبوع من المشهد الذى توقفنا عنده ـ كانت ليزافيتا ايفانوفنا جالسة عند النافـــذة

---

* الزوج فى الرقص . (بالفرنسية .)

ومعها طرة التطريز وألقت نظرة عارضة على الشارع ، فرأت مهندسا شابا واقفا بلا حراك وقد سمّر عينيه فى نافذتها . اطرقت برأسها ، وعادت الى تطريزها ؛ وبعد دقائق خمس نظرت ثانية . فاذا بضابط شاب واقف فى نفس المكان . ولم تكن لهــا عادة التغنج للضبــاط العابرين ، فكفت عن النظر فى الشارع ، وطرزت زهاء ساعتين ، دون ان ترفع رأسها . وأُعلن للغداء . نهضت ، وشرعت تجمع تطريزها ، بعد ان القت نظرة عارضة الى الشارع ، فوقع بصرها عــلى الضابط مرة اخرى . بدا ذلك لها كثير الغرابة . بعد الغداء تقدمت من النافذة يساورها شيء من القلق ، الا انها لم تر الضابط ، وهكذا نسيته ...

وبعد يومين رأته مرة أخرى ، بينما كانت تخرج مع الكونتيسة لتستقل العربة . كان يقف عند المدخل تماما ، حاجبا وجهه بياقته من فراء القندس . كانت عيناه السوداوان تلمعان من تحت قبعته . ذعــرت ليزافيتا ايفانوفنا ، دون ان تدري السبب ، وجلست فى العربة منفعلة انفعالا يفوق الوصف .

عندما عادت الى بيتها هرعت الى النافذة ، ورأت الضابط واقفا فى مكانه مصوبا عينيه نحوها . ابتعدت يعذبها الفضول ، ويقلقها شعور جديد عليها تماما .

ومنذ ذلك الحين لم يمر يوم دون ان يظهر فيه الشاب فى الوقت المحدد تحت نوافذ دار الكونتيسة . ونشأت بينه وبينها روابط تلقائية . فكانت وهى جالسة عند النافذة تحس باقترابه ، فترفع رأسها ، وتنظر اليه نظرات تطول من يوم الى آخر . وكان الشاب يلوح ممتنا لها على ذلك : كانت ترى ببصر الشباب الثاقب التورد السريع يسرى فى خديه كلما تلاقت نظراتهما . وبعد اسبوع ابتسمت له ...

وعندما طلب تومسكى الاذن فى تقديم صاحبه للكونتيسة خفق قلب الفتاة المسكينة . الا انها ، بعد ان عرفت ان ناروموف ضابط فرسان ، وليس مهندسا ، أسفت على انها كشفت بسؤالها غير المتواضع سرها لتومسكى النزق .

كان هيرمان ابن المانى متروس خلّف له رأسمالا صغيرا . وكان هيرمان واثقا بشدة من ضرورة تثبيت استقلاله ، فلم يمس حتى الفوائد على ذلك الرأسمال ، وعاش على مرتبه وحده ، لا يبيح لنفسه ابسط نزوة . وكان ، الى ذلك ، كتوما ، محبا للعظمة ، نادرا ما وجد رفاقه فرصة للهزء باحتراسه المفرط . وكانت له عواطف قوية ، وخيال ملتهب ، الا ان صلابته كانت تقيه من ضلالات الشباب المألوفة . وهكذا ، مثلا ، رغم انه كان مقامرا في دخيلة نفسه الا انه لم يمسك ورق

اللعب مرة فى يده ، لأنه كان يعتبر وضعه المالى لـم يكن ليسمح له (كما قال هو) **بأن يضحى بما هو ضرورى على أمل ان يكسب شيئا زائدا** . بينما كان يقضى ليالى كاملة جالسا وراء موائد القمار يتابع بانفعال محموم تقلبات اللعب المختلفة .

وقد اثرت حكاية الورقات الثلاث تأثيرا قويـــا فى خياله ، ولم تزايل فكره طوال الليل . وفى مساء اليوم التالى فكر مع نفسه ، وهو يتجول فى بطرسبورغ : «ماذا لو كشفت لى العجوز عن سرها ! او حددت لى هذه الورقات الثلاث الرابحة ! لماذا لا اجرب حظى ؟.. اقـــدم نفسي لها ، واستثير عطفها ــ وربما اكـــون عشيقها ــ ولكن ذلك كله يتطلب وقتا ، وهى فى الثمانين من العمر ، وقد تموت بعد اسبوع ، بعد يومين !.. ولكن الحكاية نفسها ؟ .. هل يمكن تصديقها ؟ .. لا ! الاقتصاد ، والاعتدال ، وحب العمل هى ورقاتى الثلاث الرابحة ، وهى التى تضاعف رأسمالى ثلاثة وسبعـــة اضعاف ، وتهبنى الراحة والاستقلال !» .

وظل سارحا فى افكاره حتى وجد نفسه فى احـــد شوارع بطرسبورغ الرئيسيـــة ، امام دار على طراز قديم من العمارة . وكان الشارع محفوفا بالعربات ، بينما كانت عربات اخرى تتوالى على مدخـل بيــت مضاء . وبين اللحظة والاخرى تبرز من العربات ساق

ممشوقة لحسناء فى ريعان الشباب ، او يدمدم حذاء عسكرى طويل ، او يلوح جورب مخطط ، وحـــذاء دبلوماسى . وكانت معاطف الفراء والمماطر ترف مارة بالحاجب الوقور . توقف هيرمان .

سأل شرطيا يحرس فى كشك الزاوية :

ـ لمن هذه الدار ؟

اجاب الشرطى : للكونتيسة * * *

انفعل هيرمان انفعالا قويا . وتمثلت القصـــة العجيبة فى ذهنه مرة اخرى . اخذ يتمشى قرب الدار ، مفكرا فى صاحبتها ، وفى فراستها المذهلـة . وعاد فى ساعة متأخرة الى مأواه المتواضع ؛ واستعصى عليـــه النوم وقتا طويلا ، وحين غلبه حلـم بورقات اللعب ، والمائدة الخضراء ، وركامات الاوراق النقدية ، واكوام النقود الذهبية . راهن على الورقة الاولى ثم على الثانية ، والثالثة مضاعفا الرهان بثقة ، وراح يربح بلا انقطاع ، ويجرف نحوه الذهب ، ويطوى الاوراق النقديـــة فى جيبه . استيقظ متأخرا ، وتحسر على فقدانه لثروته الخيالية ، وعاد يجوب المدينة مرة اخرى ، حتى وجد نفسه ثانية امام دار الكونتيسة * * * . وبـــدا وكأن قوة خفية كانت تجذبه نحوها . توقف ، واخذ ينظر فى النوافذ . ولمح فى احداها رأسا ذا شعر اسود منكبا ، كما يبدو ، على كتاب او تطريز . وارتفع الرأس

قليلا ، ورأى هيرمان وجها غضا ، وعينين سوداوين . وقد حسمت هذه اللحظة مصيره .

٣

* Vous m'écrivez, mon ange, des lettres de quatre pages plus vite que je ne puis les lire.

تراسل

ما ان خلعت ليزافيتا ايفانوفنا رداءها وقبعتها حتى ارسلت الكونتيسة فى طلبها ، وآمرت ثانية بأن تعد العربة . وخرجتا لركوبها . وبينما كان خادمان يرفعان العجوز ، ويدخلانها باب العربة رأت ليزافيتا ايفانوفنا صاحبها المهندس عند العجلة تماما . خطف الشاب يدها خطفا التى لم تتمالك وعيها من الذعر ودس فيها رسالة ؛ ثم اختفى ، وبقيت الرسالة فى يدها . اخفتها وراء قفازها ، وطوال الطريق لم تسمع ، ولم تر شيئا . وكانت الكونتيسة قد تعودت توجيه الاسئلة فى العربة بين لحظة واخرى : من هذا الذى التقى بنا ؟ ما اسم

---

* انت تكتب لى ، يا ملاكى ، رسائل من اربع صفحات باسرع من الوقت الذى استغرقه فى قراءتها . (بالفرنسية .)

هذا الجسر ؟ ماذا كتب فى هذه اللافتة ؟ وكانت ليزافيتا ايفانوفنا تجيب هذه المرة بما يخطر ببالها ، ودون ترابط ، فاغضبت الكونتيسة .

ــ ماذا جرى لك يا عزيزتي ! صعقت ؟ اما انك لا تسمعيننى ، واما لا تفهمين ؟.. حمدا لله على اننى لا اتمتم ولم افقد عقلي بعد !

لم تستمع ليزافيتا ايفانوفنا اليها . وعندما عادت الى البيت ركضت الى غرفتها ، واخرجت الرسالة من وراء القفاز . كانت الرسالة مفتوحة . قرأتها ليزافيتا ايفانوفنا . انها رسالة غرام رقيقة كتبت بلهجة احترام ، واستقيت كلماتها كلمة كلمة من رواية المانية . الا ان ليزافيتا ايفانوفنا لم تكن تعرف الالمانية ، فكانت مسرورة بها جدا .

ولكن الرسالة التي قبلتها اقلقتها غاية القلق . فقد دخلت لاول مرة فى علاقات سرية وثيقة مع رجل شاب . افزعتها جرأته ، فوبخت نفسها على سلوكها غير الحذر ، ولم تدر ماذا تفعل : هل تكف عن الجلوس عند النافذة ، وتبرّد بعدم الاهتمام رغبة الشاب فى مواصلة الملاحقات ؟ هل ترد الرسالة الى صاحبها ؟ ام تجيب عنها ببرود وحزم ؟ ولم يكن عندها من تشاوره ، فلم تكن لها صاحبة ، ولا مرشدة . وقررت ليزافيتا ايفانوفنا ان تجيب عليها .

جلست الى منضدة الكتابة الصغيرة ، وتناولت الريشة والورقة ، واستغرقت تفكر . وبدأت رسالتها عدة مرات ، ومزقتها لان العبارات بدت لها اما مفرطة فى التسامح ، او مفرطة فى القساوة . واخيرا توفقت فى كتابة بضعة سطور بقيت راضية عنها . كتبت : «انا واثقة من ان نواياك صافيا ، وانك لم ترد اهانتى بفعل غير متروٍ ، الا ان تعارفنا لا يجوز ان يبدأ بهذه الطريقة . اعيد لك رسالتك وآمل ان لا اجد فى المستقبل سببا للشكوى من عدم احترام لا مبرر له» .

وفى اليوم التالى نهضت ليزافيتا ايفانوفنا من وراء طرة التطريز من جديد حين رأت هيرمان قادما ، وخرجت الى الصالة ، وفتحت كوة النافذة ، والقت الرسالة فى الشارع معوّلة على خفة الضابط الشاب . ركض هيرمان ، ورفعها ، ودخل حانوت حلويات . فضّ الختم ، فوجد رسالته وجواب ليزافيتا ايفانوفنا . وهذا ما كان يتوقعه ، وعاد الى البيت مشغولا جدا بمغامرته .

وبعد ثلاثة ايام حملت فتاة شابة سريعة العينين الى ليزافيتا ايفانوفنا مذكرة صغيرة من حانوت الازياء . فتحتها ليزافيتا ايفانوفنا بقلق ، متوقعة مطاليب فى تسديد دين ، فاذا هي تتعرف فجاة على خط هيرمان . قالت :

ـ اخطأت ، يا فتاة ، فهذه الرسالة ليست لى .

اجابت الفتاة الجسور ، وهى لا تخفى ابتسامة ماكرة :

ـ لا ، انها لك تماما ! تفضلى واكملى قراءتها !

مررت ليزافيتا ايفانوفنا عينيها على الرسالة . كان هيرمان يطلب موعدا .

ـ هـــذا غير ممكن ! ـ قالت ذلك ليزافيتـــا ايفانوفنا ، وقد افزعتها سرعة الطلب ، والطريقة التى استخدمها .

ـ هذه الرسالة لم تكتب لي ، حقا ! ـ ومزقت الرسالة مزقا صغيرة .

قالت الفتاة :

ـ اذا لم تكن الرسالة لكَ ، فلماذا مزقتها ؟ كنت ساعيدها الى مرسلها .

قالت ليزافيتا ايفانوفنا ، وقد احمرّت مـــن ملاحظة الفتاة :

ـ ارجوك ، يا آنسة ! لا تحملى لى رسائل فى المستقبل . ثم قولى لمرسلـــك : ينبغى عليـــه ان يخجل . . .

الا ان هيرمان لم يقف عند هذا الحد . فكانت ليزافيتا ايفانوفنا تتلقى منه رسالة كل يوم ، بهذه الصورة او بتلك . ولم تعد مترجمة من الالمانية . بل

دبجها هيرمان مدفوعا بالهوى ، وتحدث باللغة المتميز بها . وقد عبر فيها عن صرامة رغبته ، وفوضى خياله الجامح . ولم تعد ليزافيتا ايفانوفنا تفكر فى ردها ، فقد انتشت بها ، وصارت تجيب عليها ، وتزداد ردودها طولا ورقة يوما بعد يوم . واخيرا القت له من النافذة الرسالة التالية :

«اليوم تقام حفلة راقصة فى دار السفير ن ... وستكون الكونتيسة فيها وستبقى هناك حتى الساعة الثانية ليلا ، وهذه فرصة سانحة لك لرؤيتى على انفراد . ما ان تغادر الكونتيسة حتى يتفرق خدمها ، فى اغلب الظن ، ويبقى الحاجب فى الرواق ، ولكنه هو ايضا يأوى الى حجرته فى العادة . تعال فى الساعة الحادية عشرة والنصف ، وارتق السلم رأسا . فاذا وجدت احدا فى ردهة الانتظار فاستفسر عما اذا كانت الكونتيسة بالبيت . اذا اجابوا بالنفى فلا محيد لك من العودة من حيث اتيت . ولكنك فى اغلب الظن لا تجد احدا هناك . فان الوصيفات يلزمن مخدعهن ، وكلهن فى غرفة واحدة . اذا بلغت ردهة الانتظار استدر الى اليسار ، وسر الى الامام حتى تصل الى مخدع الكونتيسة . وفى المخدع ستجد بابين صغيرين : الأيمن يؤدى الى غرفة المكتب ، وهى غرفة لا تدخلها

الكونتيسة ابدا ، والأيسر يؤدى الى الممر ، وهناك يوجد سلم حلزونى ضيق يؤدى الى غرفتى » .

ارتعش هيرمان كنمر ، منتظرا الوقت المحدد . وفى الساعة العاشرة مساء كان قد وقف امـــام دار الكونتيسة . كان الطقس فظيعا ، فيه ريح ، والبرد الرطب يتساقط ندفا . وكانت المصابيح ترسل اضواء شاحبة ، والشوارع خالية . ويمر احيانا حوذى على فرسه الهزيل باحثا ببصره عن راكب متأخـــر . كان هيرمان يرتدى سترة من غير معطف ، غير شاعر بالريح ، ولا بالثلج . واخيرا احضرت العربة للكونتيســـة ، ورأى هيرمان الخادمين يرفعان العجوز المحدودبة من ابطيها ، وكانت ملفوفة بمعطف من فراء السمور ، وأبصر فى اثرها ربيبتها فى ممطر خفيف ، وقد تزين رأسها بزهور طبيعية . واطبق الباب . وجرت العربة ثقيلة على الثلج الهش . وأغلق الحاجب البـــاب ، وعتمت النوافذ . راح هيرمان يتمشى قرب الدار التى فرغت . تقدم من مصباح الشارع ، ونظر فى ساعته . كانت تشير الى الساعة الحادية عشرة والثلث . بقى تحت المصباح ، مثبتا بصره فى عقرب الدقائـــق ، منتظرا انقضاء الدقائق المتبقية . وعنـــد انتصاف الساعة الثانية عشرة بالضبط ، صعـــد هيرمان الى مدخل دار الكونتيسة ، ودخل الى الزواق المضـــاء

اضاءة قوية . ولم ير الحاجب . ارتقى هيرمان السلم ، وفتح باب ردهة الانتظار ، فرأى خادما نائما تحت مصباح على مقاعد قديمة وسخة . مرّ هيرمان به بخطوة خفيفة مصممة . كانت الصالة وغرفة الجلوس مظلمتين . وكان المصباح فى ردهة الانتظار يبعث فيها ضوءا باهتا . دخل هيرمان المخدع . كان سراج اناء ذهبى مضاء امام دولاب زجاجى مملوء بالايقونات القديمة ، بينما صفت قرب الجدران ، بتجانس موحش ، مقاعد افرشتها من الدمقس الحائل اللون ، وارائك فقدت طلاءها الذهبى ، ونُضدت عليها وسائد من الريش . وكانت الجدران نفسها مغلفة بورق جدران صينى . وعلقت على احد الجدران صورتان رسمتهما فى باريس الرسامة m-me Lebrun * . احداها تصور رجلا فى الاربعين من العمر ، متورد الخدين ، بادى السمنة فى بزة عسكرية يانعة الخضرة حليت بنجمة . والثانية تمثل حسناء شابة لها انف صقرى ، وشعر مسرح بنعومة عند الصدغين ، ووردة فى شعر مبودر . وفى جميع الاركان تماثيل لراعيات من الخزف الصينى ، وساعة حائطية من صنع Leroy **

---

* السيدة ليبران . (**بالفرنسية** .)

** ليروا . (**بالفرنسية** .)

الشهير ، وعلب ، ونماذج للعب الروليت ، ومراوح يدوية ، والعاب نسائية مختلفة ابتكرت فى نهاية القرن الماضى فى وقت واحد مع منطاد مونغولفيه ومغناطيسية ميسمر . دخل هيرمان وراء سدول المخدع ، فرأى وراءها سريرا حديديا صغيرا ، والى اليمين بابا يؤدى الى غرفة المكتب ، والى اليسار باب آخر يفضى الى ممر . فتحه هيرمان ، ورأى السلم الحلزونى الضيق المؤدى الى غرفة الربيبة المسكينة ... الا أنه عاد ودخل غرفة المكتب المظلمة .

مضى الوقت ببطء . وكان السكون يلف كل شىء . وفى غرفة الجلوس دقت الساعة معلنة الثانية عشرة . ثم عاد السكون مهيمنا . وقف هيرمان متكئا على الموقد البارد ، كان هادىء الاعصاب ، وقلبه يدق دقات منتظمة ، مثل قلب رجل عزم على شىء خطير ، ولكنه ضرورى . دقت الساعة الواحدة والثانية بعد منتصف الليل ، وسمع كركبة عربة صادرة من بعيد . استولى عليه قلق لا ارادى . ووصلت العربة ، وتوقفت . وسمع هبدة موطىء العربة وهو ينزل . وسرت حركة فى الدار . وتراكض الخدم ، وارتفعت اصوات ، واضيئت الدار . وهرعت الى المخدع ثلاث وصيفات عجائز ، ودخلت الكونتيسة والحياة تكاد تتخلى عنها ، والقت نفسها فى مقعد

عتيق . نظر هيرمان فى شق . مرّت ليزافيتا ايفانوفنا به ، وسمع خطواتها العجلى على درجات سلمها . وخامر قلبه شيء شبيه بتبكيت الضمير ، ثم خمد . وتحجر هيرمان .

أخذت الكونتيسة تنضو ثيابها امام المرآة . خلعوا قبعتها المزينة بالورود ، ورفعوا اللمة المستعارة المبودرة عن رأسها الاشيب المحلوق كليا ، انثالت الكلاّبات حولها كالمطر . وسقط ثوبها الاصفر المطرز بالفضة على قدميها المتورمتين . فكان هيرمان شاهد اسرار زينتها الكريهة ؛ واخيرا بقيت الكونتيسة فى قميص النوم والطاقية الليلية . فبدت فى هذا الزى الأكثر ملائمة لشيخوختها أقلّ فظاعة وبشاعة .

كانت العجوز ، مثل جميع الطاعنين فى السن ، تعانى من الارق . جلست على المقعد العتيق قرب النافذة فى لباسها الداخلى ، وصرفت الوصيفات . رفعت الشموع ، وبقى سراج الايقونات وحده ينير الحجرة . جلست الكونتيسة مصفرة بكليتها ، محركة شفتيها المرتخيتين ، مترنحة ذات اليمين وذات الشمال . وقد انعكس فى عينيها الكدرتين خواء تام من التفكير ؛ والذى يبصر بها يمكن ان يظن ان ترنح هذه العجوز المريعة لم يكن يتم بارادتها ، بل بتأثير كلفانية خفية .

وفجأة تغيّر هذا الوجه الميت على نحو لا يوصف . كفت الشفتان عن الحركة ، وردّت الحياة الى العينين . لقد كان يقف امام الكونتيسة رجل غريب .

قال الرجل بصوت واضح خافت :

ـ لا تفزعى ، بالله عليك ، لا تفزعى ! انا لا أريد ان اوذيك ، بل جئت اسألك معروفا .

نظرت العجوز اليه صامتة ، حتى بدا وكأنها لم تسمعه . تصوّر هيرمان انها صماء ، فانحنى حتى أذنها ، واعاد لها ما قاله . ظلت العجوز ملتزمة الصمت كما كانت . واصل هيرمان القول :

ـ انت تستطيعين ان تمنحينى هناء حياتى ، وهو لا يكلفك شيئاً . انا اعرف انك تستطيعين ان تحزرى ثلاث ورقات متتابعة فى اللعب . . .

توقف هيرمان . فهمت الكونتيسة ، على ما يبدو ، ما طلب منها ، وبدا وكأنها تبحث عن كلمات لترد عليه . قالت :

ـ ذلك كان مزاحا . اقسم لك ! ذلك كان مزاحا !

فاعترض هيرمان غاضبا :

ـ لا مزاح فى ذلك . تذكرى تشابليتسكى الذى ساعدته فى اعادة خسارته .

ارتبكت العجوز ، كما يبدو . وعبرت تقاطيع وجهها عن حركة قوية فى سريرتها ، الا انها سرعان ما غرقت ثانية فى جمودها السابق .

تابع هيرمان قوله :

ـ أفى وسعك ان تعينى لى هذه الورقات الثلاث الرابحة ؟

صمتت الكونتيسة ، ومضى هيرمان يقول :

ـ لمن تحرصين على سرك ؟ لأحفادك ؟ انهم اغنياء بدون ذلك ، وهم لا يعرفون للفلوس قيمة . ورقاتك الثلاث لا تعين مبذرا . فمَنْ لا يستطيع صيانة ميراث الاب يمت فقيرا على اية حال ، مهما تكن جهوده الشيطانية . وانا لست مبذرا ، واعرف قيمة الفلوس . ومعى لن تضيع ورقاتك الثلاث سدى !

توقف ، وانتظر جوابها مرتعشا . وصمتت الكونتيسة . ركع هيرمان على ركبتيه ، وقال :

ـ اذا كان قلبك قد عرف عاطفة الحب ، فى وقت ما ، واذا كنت تذكرين فرحته ، واذا كنت قد ابتسمت ، ولو مرة ، لبكاء طفل ساعة ولادته ، واذا تردد فى حناياك شىء انسانى يوما ما ، فانا اتضرع لك بمشاعر الزوجة ، العشيقة ، والأم ـ بكل ما هو

10—1009

مقدس فى الحياة بالاً ترفضى رجائى ! اكشفى لى عن سرك ! ما حاجتك اليه ؟ .. ربما هو مقرون بخطيئة مريعـــة ، بزوال النعيـــم الخالد ، بمؤامرة مـــع الشيطان ... فكرى فى أنك عجوز ، ولا تعيشين طويلا ، وانـــا مستعد ان القى خطاياك على كاهلى . فقط ان تكشفى لى عن سرك . فكِّرى فى ان سعادة انسان فى يديك ، وفى انى واولادى ، واحفادى ، واحفاد احفادى سنبارك ذكرك ، ونجله كشىء مقدس ...

ولم ترد العجوز بكلمة واحدة .

نهض هيرمان ، وقال صاكا على اسنانه :

ــ ايتهـــا الساحرة العجوز ! سأجبرك على ان تجيبى ...

وبهذه الكلمة اخرج مسدسا من جيبه .

ولدى رؤية المسدس سرى فى الكونتيسة للمرة الثانية احساس قوى . هزّت رأسها ، ورفعت ذراعها ، وكأنها تتقى الرصاصة ... ثم ارتدت الى الوراء ... وبقيت بلا حراك .

امسك هيرمان يدها ، وقال :

ــ كفـــاك طفولـــة . سأسألك للمرة الاخيرة : تريدين ان تعينى لى ورقاتك الثلاث ؟ نعم ، ام لا ؟

ولم تجب الكونتيسة . ورأى هيرمان انهـــا قد فارقت الحياة .

٤

* Homme sans moeurs et sans religion !
7 Mai 18...

تراسل

كانت ليزافيتا ايفانوفنا جالسة فى غرفتها ، وهى ما تزال فى كامل هندامها الاحتفالى ، مستغرقة فى أفكار عميقـــة . بعد ان وصلت الى البيت اسرعت فى صرف خادمتها الوسنى التى عرضت عليها خدماتها فى غير مــا رغبة ، وقالت انها ستخلع ثيابها بنفسها ، ودخلت غرفتها منفعلة ، آملة ان تجد هيرمان فيهـــا ، وغير راغبـــة فى ان تجده . وتأكدت من عدم وجوده من النظرة الاولى ، وحمدت القدر على العائق الذى حـــال دون لقائهما . جلست ، دون ان تخلع ثيابها ، وراحت تسترجع كل الظروف التى استدرجتهـــا الى هذا الحد البعيد ، وفى فترة قصيرة كهذه . لم تنقض ثلاثة اسابيع على رؤيتها الشاب من النافذة لأول مرة حتى صارت تتراسل معه ، بل وقدر ان يطلب منها موعدا ليليا ! وكانت تعرف اسمه لمجرد ان بعض رسائله كانت مذيلـــة

---

* انسان ليس له قواعد خلقية ولا شيء مقدس !
(بالفرنسية .)

بتوقيعه . فهى لم تتحدث اليه قط ، ولم تسمع صوته ، ولم تعرف عنه شيئا . . . حتى هذا المساء . انه لأمر غريب ! فى هذا المساء ، فى الحفلة الراقصة ، حين غضب تومسكى على الأميرة الشابة بوليناك ... ، التى لم تكن تتغنج له خلافا لعادتها ، أراد ان ينتقم منها مبديـا عدم اكتراث . فدعا ليزافيتا ايفانوفنا ، ورقص معها رقصة «المازوركا» الطويلـة . وكان ينكت طيلة الوقت على شغفها بالضباط المهندسين ، ويؤكد انه يعرف أكثر ممـا يمكن ان تتصور ، وكانت بعض نكاته مسددة بشكل موفق حتى ان ليزافيتا ايفانوفنا ظنت عدة مرات انه يعرف سرها . سألت ضاحكة :

ـ ممن تعرف كل ذلك ؟

اجاب تومسكى :

ـ من صاحب شخص معروف لك ، انسان رائع جدا !

ـ ومن هذا الانسان الرائع ؟

ـ اسمه هيرمان .

لم ترد ليزافيتا ايفانوفنا بشىء ، الا ان يديهـا ورجليها تثلجت ... تابع تومسكى قوله :

ـ ان هيرمان هذا شخصية روائية حقا ، وهو نابليونى المظهر بينما روحه روح ميفستوفيل وأظن ان ضميره يتحمل وزر ثلاثة مآثـم على الاقل . لشدّ ما شحب لونك ! ..

ـ عندى صداع ... ماذا قال لك هيرمان او ما اسمه ؟ ..

ـ هيرمان ساخط جدا على صاحبه ، ويقول لو كان فى مكان صاحبه لتصرف على نحو آخر ... ـ بل واظن ان له من ورائك مقصدا ، وعلى الاقل انه ليس بدون اكتراث يستمع الى آهات صاحبه العاشقة .

ـ ولكن اين رآنى ؟

ـ ربما فى الكنيسة ، اثناء النزهة ! .. اللـه يعلم ! ربما فى غرفتك ، اثناء نومك : انه قادر على ذلك ...

وقطعت ثلاث سيدات اقبلن عليهما باسئلة ـ oubli ou regret? * ـ حديثه الذى صار يثير فضول ليزافيتا ايفانوفنا بشكل معذب .

وكانت السيدة التى اختارها تومسكى للرقص هى الاميرة م ... نفسها . وقد استطاعت ان تتكاشف معه ، بعد ان دارت فى الرقص دورة زائدة ، وحامت حول مقعدها مرة زائدة . ولما عاد تومسكى الى مكانه ما عاد يفكر فى هيرمان ، ولا فى ليزافيتا ايفانوفنا . وكانت ترغب رغبة اكيدة فى ان تصل ما انقطع من الحديث ، الا ان رقصة «المازوركا» قد انتهت ، وبعد قليل من الوقت غادرت الكونتيسة العجوز .

---

* نسيان او أسف . (بالفرنسية .)

لم تكن اقوال تومسكى غير ثرثرة مصاحبة لرقصة «المازوركا» الا انها نفذت عميقا فى نفس الحالمة الفتية . وكانت الصورة التى رسمها تومسكى تشبه الصورة التى كونتها بنفسها ، وبفضل احدث الروايات ارهب هذا الوجه المبتذل وأسر خيالها . جلست شابكة ذراعيها العاريتين ، واطبقت على صدرها المكشوف رأسها الذى ما زال محلّى بالزهور ... وفجأة فتح الباب ودخل هيرمان . فارتعشت ...

سألته بهمس وَجِل :

ــ اين كنت ؟

اجاب هيرمان :

ــ فى مخدع الكونتيسة العجوز . وانا قادم لتوى منها . ماتت الكونتيسة .

ــ يا إلهى ! .. ماذا تقول ؟ ..

واستمر هيرمان يقول :

ــ ويبدو اننى سبب موتها .

نظرت ليزافيتا ايفانوفنا اليه ؛ وترددت كلمات تومسكى فى داخل نفسها : **ان ضمير هذا الرجل يتحمل وزر ثلاثة مآثم على الاقل !** جلس هيرمان على طوار النافذة بالقرب منها ، وقصّ كل شىء .

استمعت ليزافيتا ايفانوفنا اليه بذعر . اذن فان تلك الرسائل العاطفية ، وتلك المطالب اللاهبة ، وتلك

الملاحقة الجريئة العنيدة ، كل ذلك لم يكن حبـــا !
الفلوس هى كل ما كانت تتحرق اليه نفسه ! ليست
هى التى استطاعت ان تطفئ اوار رغبته ، وتسعده !
ان الربيبة المسكينة لم تكن الا مساعِدة عمياء للص ،
لقاتل محسنتها العجوز !.. واخذت تبكى فى ندمهـا
المعذِّب المتأخر . نظر اليها هيرمان صامتا : كان قلبه
يتمزق ايضا ، ولكن لا دموع الفتاة المسكينـــة ، ولا
سحر فاجعتها المذهل ادخل القلق فى نفسه القاسية .
لم يشعر بتأنيب الضمير حين يفكر بالعجوز الميتة .
لم يفزعه الا شيء واحد ، هو ضياع السر الذى توقع
منه الغنى ضياعا لا رجعة له .

واخيرا قالت ليزافيتا ايفانوفنا :

ــ انت غول !

ردّ هيرمان :

ــ لم ارد موتها . ومسدسى لم يكن محشوا .

وصمتا .

ودنا الصباح . واطفأت ليزافيتا ايفانوفنا الشمعة
الموشكة على النفاد ، واضاء غرفتها نور شاحب .
وفركت عينيها من أثر البكاء ، ورفعتهما الى هيرمان
الذى كان جالسا على طوار النافذة مطويّ الذراعين ،
متجهما وغاضبا . وكان فى هذا الوضع يشبه صورة

نابليون بشكل مثير للعجب . وقد اذهل هذا الشبه ليزافيتا ايفانوفنا نفسها .

واخيرا قالت ليزافيتا ايفانوفنا :

ـ كيف ستخرج من البيت ؟ ظننت انى سأخرجك من سلم سرى . ولكن يجب ان نجتاز المخدع ، وانا اخاف .

ـ قولى لى كيف أجد هذا السلم السرى ؟ وسأخرج .

نهضت ليزافيتا ايفانوفنا ، واخرجت مفتاحا من الدولاب ، وقدمته لهيرمان ، وشرحت له الامر بالتفصيل . صافح هيرمان يدها الباردة الجامدة ، وقبّل رأسها المنكس ، وخرج .

هبط الى الاسفل عبر السلم الحلزونى ، ودخل مخدع الكونتيسة ثانية . كانت العجوز الميتة تجلس متحجرة ، ووجهها يشف عن هدوء عميق . توقف هيرمان امامها ، وحدق بها طويلا ، وكأنما يريد ان يتثبت من الحقيقة المريعة ، واخيرا دخل غرفة المكتب ، وتلمس الباب من وراء الجدار الورقى ، واخذ ينزل سلما مظلما تتناهيه مشاعر غريبة . وفكر مع نفسه : فى هذا السلم بالذات ربما انسل الى هذا المخدع نفسه ، وفى هذه الساعة ذاتها ، قبل ستين عاما خلت ، شاب محظوظ فى قفطان مطرّز ، وشعر

مصفوف à l'oiseau royal * ، ضاما الى قلبه قبعته المثلثة ، وهو الآن متفسخ فى قبره منذ زمن بعيد ، بينما كف قلب معشوقته الهرمة عن الخفقان اليوم ...
ورأى هيرمان تحت السلم الباب الذى فتحه بنفس المفتاح ، ووجد نفسه فى ممر مفتوح طلع منه الى الشارع .

٥

فى تلك الليلة زارتنى البارونة
المرحومة فون ـ ف ... وكانت
كلها فى بياض ، وقالت لى :
«مرحبا ، ايها السيد المستشار !»
شفيدنبورغ

فى الساعة العاشرة صباحا بعد ثلاثة ايام من تلك الليلة المنحوسة توجه هيرمان الى دير ل ... ، حيث كان يجب ان يُقام القداس على جثمان الكونتيسة الراحلة . ومع انه لم يشعر بالندم ، الا انه لم يستطع ان يخنق كليا صوت الضمير الذى كان يؤكد له : انك قاتل العجوز ! وكان له قليل من الايمان الحق وكثير

* على طريقة «الغرنوق الملكى» . **(بالفرنسية .)**

من الخرافات . وكان يعتقد ان الكونتيسة الميتة يمكن ان تترك اثرا سيئا فى حياته . فقرر ان يحضر للجنّاز طلبا للغفران .

كانت الكنيسة غاصة بالناس . استطاع هيرمان ان يشق طريقه عبر الحشد بجهد . كان التابوت موضوعا على نعش تحت ظلة من المخمل . وكانت الراحلة مسجاة فيه ، وذراعاها مطويتان على صدرها ، ترتدى طاقية من المخرمات ، وثوبا ابيض من الاطلس . كان اهل بيتها يحيطون بها : الخدم فى قفاطين سوداء على اكتافهم اشرطة فيها شعار الكونتيسة ، وفى ايديهم الشموع ؛ والاقارب فى البسة حداد كاملة : ابناء ، واحفادا وابناء احفاد . ولم يكن احد يبكى . فان الدموع ستكون une affectation* . فقد طعنت الكونتيسة فى السن فلم يدهش موتها احدا ، حتى ان اقاربها كانوا ينظرون اليها منذ زمن بعيد كما ينظرون الى مَنْ فارقته الحياة . القى مطران شاب كلمة تأبينية . صوّر بعبارات بسيطة مؤثرة موت المؤمنة الهادئ التى كان عمرها المديد تحضيرا هادئا وديعا لموت مسيحى . وقال الخطيب « الفاها ملَك الموت متيقظة غارقة فى افكار طيبة ، تتوقع زيارة

* تظاهرا . (بالفرنسية .)

فتاها بعد منتصف الليل » . وقد اقيم القداس بما يكفى من الحزن . تقدم الاقارب اولا لوداع الجثمان ، ثم تقدم الضيوف العديدون الذين جـــاءوا لوداع المرأة التى شاركتهم منذ زمـــان طويل فى مباهجهم الصاخبة . وبعدهم خدم البيت جميعا . وفى النهاية تقدمت وصيفتها العجوز وكاتمة اسرارها واحدى لداتها * . قادتهـــا فتاتان من يديهـــا . ولم تكن تقوى على الانحناء الى الارض ، واحداهمـــا ذرفت بعض الدمـــع وقبلت يد سيدتها الباردة . وبعدها عزم هيرمان على ان يتقدم من التابوت ، وقد سجد الى الارض ، وظل منكبـــا بضع دقائق على الارض البـــاردة المنثورة فيهـــا اغصان التنوب . واخيرا رفع قامته ممتقعا كالميتة نفسها ، وصعد درجات النعش ، وركـــع ... وفى هذه اللحظـــة بدا له وكأن الميتة تنظر اليـــه بسخرية ، مقلصـــة عينا واحدة . أرتد هيرمان الى الوراء مسرعا ، وعثر فوقـــع على ظهره . رفعوه . وفى الوقت ذاتـــه اخرجوا ليزافيتا ايفانوفنا الى رواق الكنيســـة مغمى عليها . وقد اخلّ هذا الحادث بهيبة شعائر التشييع لبضع دقائق . وارتفعت بين الحضور دمدمة خافتة ، وهمس احد رجال الحاشيـــة ، وهو رجل نحيل من

---

* التى تساويها فى العمر . (المترجم .)

اقرباء الراحلة القريبين ، فى أذن انجليزى كان واقفا بالقرب منه بان الضابط الشاب ابنها غير الشرعى ، فرد الانجليزى على ذلك ببرود Oh ؟

ظل هيرمان طيلة اليوم فى غاية الاضطراب . تناول غداءه فى حانة منعزلة ، فشرب كثيرا جدا ، على خلاف عادته ، مؤملا ان يتغلب على اضطرابه الداخلى . الا ان النبيذ زاد من تأجج خياله . وحين عاد الى البيت القى نفسه على السرير دون ان يخلع ملابسه ، وغط فى نوم عميق .

استيقظ والليل مرخ سدوله ، والبدر ينير حجرته . نظر فى الساعة . كانت تشير الى الثالثة الا ربعا . وزال عنه النعاس ؛ فجلس على سريره ، وفكر فى تشييع الكونتيسة العجوز .

فى اثناء ذلك نظر شخص فى نافذته من الشارع ، وغاب فى الحال . لم يعر هيرمان التفاتا لذلك . وبعد دقيقة سمع الباب يُفتح فى غرفة الانتظار ، وظن هيرمان بان جنديه الخادم ، المخمور على عادته ، قد عاد من نزهته الليلية . الا انه سمع مشية غريبة عليه : كان شخص يسير خافقا بنعليه . وفُتح الباب ، ودخلت امرأة فى ثوب ابيض . ظنها هيرمان مرضعته

العجوز ، وادهشه ما حملها على المجىء فى مثل هذا الوقت ، الا ان المرأة البيضاء مرقت ، واذا هى امامه فجأة ، وعرف هيرمان انها الكونتيسة ! قالت بصوت حازم :

ـ جئت اليك ضد ارادتى . ولكن أُمرت بان البى رجاءك . ان الثلاثة والسبعة والآس تتيح لك الربح ثلاث مرات متتالية ، ولكن شريطة الا تراهن الا فى شدة لعب واحدة كل اربع وعشرين ساعة ، وان لا تلعب بعد ذلك طوال حياتك . سأغفر لك تسببك فى موتى شرط ان تتزوج ربيبتى ليزافيتا ايفانوفنا . . .

وبهذه الكلمة استدارت بهدوء ، وسارت الى الباب ، واختفت تخفق بنعليها . وسمع هيرمان الباب يُصفق فى الرواق ، ورأى من جديد شخصا ينظر فى نافذته .

ظل هيرمان وقتا طويلا غير متملك لحواسه . خرج الى الحجرة الاخرى ، فرأى خادمه نائما على الارض . ايقظه هيرمان بجهد . كان الخادم سكران على عادته . ولم يكن فى المستطاع ان يستخرج منه شيئا ذا جدوى . وكان باب الرواق مغلقا . عاد هيرمان الى حجرته ، واشعل القنديل ، وسجل حلمه .

٩

ـ حذار ، لا تقامر !

ـ كيف تجرأت على ان تقول
لى ذلك ؟

ـ يا صاحب السيادة ، قلت
لك : **لا تقامر !**

ان فكرتين ثابتتين لا تستطيعان ان تتعايشا سوية فى الطبيعة الخلقية ، مثلما لا يستطيع جسدان ان يحتلا مكانا واحدا فى العالم المادى . وسرعان ما غطت الثلاثة والسبعة والآس على صورة العجوز الميتة فى خيال هيرمان . ولم تغادر الثلاثة والسبعة والآس رأسه ، وظلت تتحرك على شفتيه . وكان حين يرى الفتاة الشابة يقول : «كم هى هيفاء ! .. مثل ثلاثة كوبة بالضبط» . وحين كان يسألونه عن الوقت كان يجيب : «سبعة الا خمس دقائق» . وكان كل رجل ذى كرش يذكره بالآس . وكانت الثلاثة والسبعة والآس تتراءى له فى الحلم ، متخذة كل الاشكال الممكنة . ازهرت الثلاثة امام عينيه على هيئة زهرة فخمة ، وتمثلت السبعة له بوابة قوطية ، والآس عنكبوتا ضخما . واندمجت كل افكاره فى فكرة واحدة ، وهى الاستفادة من السر الذى كلفه غاليا . وصار يفكر

فى الاستقالة والسياحة . كان يريد ان ينتزع فى بيوت القمار الشرعية فى باريس كنزا من الحظ المفتون . ولكن الحادث قد صرفه عن الهموم .

كانت توجد فى موسكو جمعية المقامرين الاثرياء برئاسة تشيكالينسكى الشهير الذى قضى عمره كله فى لعب القمار . والذى كسب الملايين ذات مرة رابحا السندات ، خاسرا النقود . ومراسه الطويل اكسبه ثقة اصحابه ، وبيته المفتوح للضيوف ، وطباخه الجيد ، والرقة ، وروح المرح وفرت له احترام الجمهور . ووصل الى بطرسبورغ ، وتوافد الشبان عليه متحولين عن حفلات الرقص الى القمار ، مفضلين مغريات اللعب على مفاتن مغازلة النساء . وجلب ناروموف هيرمان الى بيته .

مرًا بعدد من الحجرات الفاخرة المملوءة بالنُدُل المؤدبين . وكان بعض الجنرالات والموظفين ذوى المناصب العالية يلعبون لعبة «الهويست» ، وكان الشبان يجلسون مرتخين على الارائك الدمقسية ، يأكلون البوضة ، ويدخنون الغلايين . وفى غرفة الجلوس تجمهر حوالى عشرين شخصا حول مائدة مستطيلة ، وقد جلس رب البيت يوزع الورق . كان فى نحو الستين من العمر مهيب المظهر اعظم المهابة . كان رأسه مجللا بشيب فضى ، ووجهه الممتلىٔ الطرى

ينم عن طيبة نفس ، وعيناه تتألقان حيتين بابتسامة معتادة . قدم ناروموف اليه هيرمان . صافحه تشيكالينسكى بمودة ، ورجاه ان يرفع الكلفة ، وتابع توزيعه للورق للعب .

واستمرت دورة اللعب طويلا . وكان على المائدة اكثر من ثلاثين ورقة لعب .

وكان تشيكالينسكى يتوقف بعد كل رمية ورق ، ليتيح للاعبين وقتا يبتون فيه ، ويسجل الخسارة ، مصغيا الى مطالبهم باحترام ، ومصححا باحترام اشد خطأ فى مبلغ الرهان سجلته يد ساهية . واخيرا انتهت دورة اللعب . مشّط تشيكالينسكى الورق ، واستعدّ لبدء دورة جديدة .

قال هيرمان : «اسمحوا لى ان أسحب ورقة» ومدّ يده من وراء سيد سمين كان يقامر ايضا . ابتسم تشيكالينسكى ، وانحنى ، صامتا ، علامة على الموافقة السمحاء . وابتسم ناروموف وهنأ هيرمان على نهاية امتناعه عن اللعب الذى استمر زمنا طويلا ، وتمنى له بداية ميمونة .

ــ لاعب !

قال هيرمان بعد ان سجل رهانه بالطباشير تحت ورقته .

سأل مدير اللعب مقلصا عينيه :

ـ كم ؟ اعذرني ، ان بصرى ضعيف .
اجاب هيرمان :
ـ سبعة واربعون الفا .
وعلى هذه الكلمات التفتت جميع الرؤوس فى الحال ، وتفرست جميع العيون فى هيرمان . وفكر ناروموف مع نفسه : « فقد عقله ! »
قال تشيكالينسكى ببسمته التى لا تتغير :
ـ اسمح لى ان الفت نظرك الى آن لعبك قوى : لم يضع احد هنا اكثر من مائتين وخمسة وسبعين روبلا على الجولة الاولى .
قال هيرمان معترضا :
ـ ماذا يعنى ؟ اتريد ان تزايد ورقتى ام لا ؟
انحنى تشيكالينسكى امارةً على نفس الموافقة السمحاء . وقال :
ـ اود فقط ان ابلغك باننى ، وآنا أهل لثقة اصحابى ، لا استطيع ان ألعب الا على نقود . من جهتى تكفينى بالطبع كلمتك ، الا انه من اجل تنظيم اللعب والحسابات ارجو ان تضع النقود على ورقتك .
اخرج هيرمان من جيبه ورقة نقدية ، وقدمها لتشيكالينسكى ، الذى القى عليها نظرة سريعة ، ووضعها على ورقة هيرمان .
وأخذ يوزع الورق . كانت الى اليمين تسعة والى اليسار ثلاثة .

ـ ربحت ! ـ قال هيرمان عارضا ورقته .

سرت همهمة بين اللاعبين . وعبس تشيكالينسكى الا ان الابتسامة عادت الى محياه فى الحال . وسـأل تشيكالينسكى هيرمان :

ـ اسمح لى ان أسلّم ؟

ـ تفضل .

اخرج تشيكالينسكى من جيبه بضع اوراق نقدية ، وسدد الحساب فى الحال . تناول هيرمان نقوده ، وغادر المائدة . ولم يستطع ناروموف ان يتمالك نفسـه . احتسى هيرمان قدحا من شراب الليمـون ، وذهب الى البيت .

وفى مساء اليوم التالى ظهر فى بيت تشيكالينسكى مرة اخرى . كان رب البيت يوزع الورق . تقدم هيرمان من المائدة ؛ وفى الحال افسح المقامرون مكانـا له . وانحنى تشيكالينسكى له برقة .

انتظر هيرمان الدورة الجديدة ، وتناول ورقة ، ثم وضع عليها آلافه السبعـة والاربعين وما ربحـه بالامس .

اخذ تشيكالينسكى يوزع الورق . فوقع ولد الى اليمين ، وسبعة آلى اليسار .

وكشف هيرمان عن سبعته .

وندت آهة تعجب من الجميع . وبان الارتباك على تشيكالينسكى . عدّ اربعـة وتسعين الفا وسلمهـا

لهيرمان . تناولهـــا هيرمان ببرودة دم ، وانصرف فى اللحظة ذاتها .

وفى المساء التالى ظهر هيرمان عند المائدة مرة اخرى . وكان الجميع يتوقعونـــه . ترك الجنرالات والموظفون ذوو المناصب العاليـــة لعبة الهويســـت ليشهدوا لعبة غير اعتيادية مطلقا . ووثب الشبان من على الارائك ؛ وأجتمع الندل جميعا فى غرفة الجلوس . واحدق الجميع بهيرمان ولم يسحب اللاعبون الآخرون اوراقهم ، منتظرين بنفاد صبر مآل اللعبـــة . وقف هيرمان عند المائدة ، متهيئا لان يقامر وحده ضـــد تشيكالينسكى الممتقع ، والذى لم تفارق الابتسامـــة شفتيه . فض كل واحد شدة من ورق اللعب . ومشط تشيكالينسكى الورق ، وقطع هيرمان الورق ثم سحب ورقته وغطاها بحزمة من الاوراق النقدية . وكان ذلك اشبه بمبارزة . وساد الجو صمت عميق .

أخـــذ تشيكالينسكى يوزع الـــورق ، ويداه ترتعشان . فكان الى اليمين ملكة والى اليسار آس .

قال هيرمان : «ربح الآس !» وكشف عـــن ورقته .

فقال تشيكالينسكى بلطف : «ملكتك مغلوبة !»

وانتفض هيرمان . حقا لقد كانت ورقته ملكة بستونى بدلا من الآس . ولم يصدق عينيه ، ولم يفهم كيف اخطأ فى سحب الورقة المطلوبة .

وفى تلك اللحظة خيل اليه ان ملكة البستونى تقلص عينيها له ، وتبتسم ابتسامة ساخرة . وابهره شبه غير اعتيادى ...

صرخ فى ذعر : العجوز !

ضمَّ تشيكالينسكى اليه اوراق النقد المكسوبة . وقف هيرمان ساكنا لا يريم . وعندما ترك المائدة صدرت اصوات صاخبة . وقال اللاعبون : « لعبة مجيدة ! » خلط تشيكالينسكى الورق من جديد ، وسار اللعب على منواله .

الخاتمة

جُن هيرمان ، ودخل مستشفى ابوخوفسكايا ، ورقد فى الردهة رقم ١٧ ، وهو لا يرد على اية اسئلة ، ويتمتم بسرعة غير اعتيادية « ثلاثة ، سبعة ، آس ! ثلاثة ، سبعة ، ملكة ! .. »

وتزوجت ليزافيتا ايفانوفنا شابا لطيفا جدا ، يخدم فى مكان ما ، ويملك ثروة محترمة : هو ابن مدير املاك الكونتيسة العجوز . وتكفلت ليزافيتا ايفانوفنا قريبة لها بائسة .

وترقى تومسكى الى ضابط فرسان برتبة نقيب ، وتزوج الاميرة بولينا .

١٨٣٢

ابنة الآمر

احفظ شرفك منذ الصبا .
مثل

الفصل الاول

رقيب الحرس

ــ استطاع ان يكون ضابط حرس غدا .
ــ لا حاجة الى ذلك ؛ دعه يخدم فى الجيش .
ــ قول صائب ! دعه يعرف المصاعب ...

. . . .

ومن هو ابوه ؟

(من كوميديا « المتباهى » **لكنياجنين** .)

كان ابى اندريه بتروفيتش غرينيف فى صباء يخدم فى الجيش تحت امرة الكونت مينيخ ، وقد استقال فى عام ** ١٧ وهو فى رتبة نقيب . ومنذ ذلك الحين عاش فى قريته فى ولاية سيمبيرسك حيث تزوج الآنسة افدوتيا فاسيلفنا ى ... ، أبنة نبيل معدم من نبلاء تلك المنطقة . وكنا تسعة من البنين والبنات . وقد مات اخوانى واخواتى فى الطفولة .

كانت امى ما تزال حاملة بى ، حين سجلونى رقيبا فى فوج سيمينوفسكى ، بوساطة من رائد الحرس الامير ب ... ، وهو احد اقاربنا الاقربين .

ولو ولدت امى ابنة ، على عكس جميع التوقعات ، لابلغ ابى الجهة المعنية عن موت الرقيب غير الموجود ، ولانتهى الأمر بذلك . أعتبرت فى اجازة حتى انتهاء تحصيلى . وفى ذلك الوقت لم نكن نربى الاولاد كما نربيهم الآن . منذ الخامسة سلمت الى السائس سافيليتش الذى خول أمر العناية بى بسبب من سلوكه الحسن . وتحت رعايته تعلمت القراءة والكتابة بالروسية فى سن الثانية عشرة ، واستطعت ان أميز صفات الكلب السلوقى . وفى ذلك الوقت استخدم أبى الى الفرنسى مسيو بوبريه الذى استقدم من موسكو مع مؤنة سنوية من النبيذ وزيت الزيتون . واستاء سافيليتش لقدومه استياء شديدا . فراح يدمدم مع نفسه : «الصبى ، والحمد لله ، نظيف ، مصفوف الشعر ، حسن التغذية ، على ما يبدو ، فما الحاجة الى صرف فلوس زائدة ، واستخدام مسيو ، وكأنه لم يبق أحد من قومنا !»

كان بوبريه فى وطنه حلاقا ، ثم جنديا فى بروسيا ، ثم قدم الى روسيا pour être outchitel * ، غير مدرك كثيرا معنى هذه الكلمة . كان رجلا طيبا ، الا أنه نزق خليع العذار الى اقصى حد . وكان موطن

* ليصبح معلما . (بالفرنسية .)

الضعف الرئيسى فيه ولعه بالجنس اللطيف ؛ وبسبب من عواطفه تلقى اكثر من مرة ضربات كان يعانى منها اياما . وهو بالاضافة الى ذلك لم يكن (على حد تعبيره) **خصما للزجاجة** ، أى (بالكلام الروسى) كان يحـــب حلاسها المفرطين . ولكن ، لما كان النبيذ يقدم فى بيتنا عند الغداء فقط ، وقدحا واحداً لكل شخص ، وفضلا عن ذلك كان يغفـــل المعلم عادة لدى التقديم ، فان صاحبى تعود بسرعة شديدة على الخمرة الروسية ، بل صار يفضلها على انبذة وطنه باعتبارها انفع للمعدة كثيرا . وسرعان ما تمت الالفة بيننا . وبالرغم من أنه كان ملزما ، بموجب العقد ، على تعليمى **الفرنسية** ، **والالمانية** ، **وجميع العلوم** ، الا أنه كان يفضل ان يتعلم منى على وجه السرعة ان يتكلم شيئا بالروسية ، وفيما بعد انشغل كل واحد منا بشأنه . كنا فى تفاهم تام ، ولم ترغب نفسى فى مرب غيره . الا ان القدر سرعان ما فرق بيننا . وهذه هى الحكاية :

ذات مرة اتفقت الغسالة بالاشكا ، وهى فتـــاة بدينة مجدورة ، وراعيـــة البقر العوراء اكولكا على الارتماء فى وقت واحـــد على قدمى امى ، معترفين بضعفهما الاجرامى ، واشتكتا ، وهما تبكيان ، من المسيو الذى غرر بسذاجتهما . وكانت أمى لا تحب المزاح بذلك ، فأشتكت لدى ابى . وكان أبى شديد

الحزم فى قطع دابر مثل هذه الأمور . فأمر فى الحال باحضار الفرنسى الفاسق . وحين ابلغ بأن المسيـــو منشغل فى اعطائى درسا جاء بنفسه الى غرفتى . فى تلك الاثناء كان المسيو ينام فى السرير نوما وديعا . وكنت مشغولا بعمل . وهنا تجـــدر الاشارة الى أن خارطة جغرافية كانت قد ارسلـــت لى من موسكو . وكانت معلقة على الحائط دون اية استفادة منها ، وكان عرض ورقها وجودته يغريانني بها منذ وقت طويل . وقد عزمت على ان اصنع منها طائرة ورقية ، وشرعت فى تنفيذ العمل مستغلا نوم بوبريه . وقد دخل ابى على ، وأنا اثبت ذيلا ليفيا على رأس الرجاء الصالح . ولما رأى ابى تماريني فى الجغرافية جر اذنى ، ثم هرع الى بوبريه ، وايقظه بطريقة غير محترســة كثيرا ، وراح يصب عليه اللوم والتقريع . حاول بوبريه فى ارتباكه ان ينهض ، الا أنه لم يستطع : فان الفرنسى التعيس كان فى غاية السكر . تعددت الذنوب والعقاب واحد . امسكه ابى من تلابيبه ، ورفعه من السرير ، ودفعه خارج الباب ، وطرده من البيت فى نفس اليوم ، وفرح سافيليتش فرحا لا يوصف . وبذلك انتهـــى تعليمى .

عشت غير مكمل تعليمى ، اطارد الحمام ، والعب القفز على ظهور الاولاد من ابناء الخدم . وخلال ذلك بلغت السادسة عشرة . وهنا حصل تغير فى حياتى .

ذات مرة خريفا كانت أمى تصنع مربى العسل فى غرفة الجلوس ، وكنت أنا انظر الى الزبد الفائـــــر متلمظا . وكان ابى يقرأ عند النافذة «حولية البلاط» التى يتلقاها سنويا . وكان هذا الكتاب شديد التأثير فيه على الدوام . لم يطالعه قط دون انفعال شديد . كانت مطالعته له تثيره اثارة عجيبة . ولما كانت أمى تحفظ كل عاداته واهوائه ، فقد كانت تحاول ان تبعد هذا الكتاب المنحوس عنه ابعد ما يمكن ، فكانت عيناه لا تقع على حولية البلاط اشهرا كاملة فى بعض الاحيان ، ولكن اذا عثر عليه مصادفة ظل بين يديه ساعـــــات كاملة . وهكذا كان ابى يقرأ فى حولية البلاط ، هازا كتفيه بين الحين والآخر ، مرددا بصـــوت خفيض : «جنرال ! ... وكان فى كتيبتى برتبـــــة رقيب ! .. حائز على الوسامين الروسيين الاولين كليهمـــا ! .. والى زمن ليس بالبعيـــد كنا ...» واخيرا قـــذف ابى بالحولية على الاريكة ، وغرق فى تفكير لا يؤمل منه خير .

وفجأة التفت الى أمى سائلا :

ـ يا افدوتيا فاسيليفنا ، ما عمر بيتر ؟

اجابت امى :

ـ دخل السابعة عشرة . ولد بيتر فى السنة التى فقدت فيها العمة ناستاسيا غيراسيموفنا عينهـــــا ، وحين ...

قاطعها ابى :

ـ حسنا ، حان اوان التحاقه بالجيش . كفاه ملاحقـــة البنـــات ، وتسللا الى بيوت الحمـــام .

وبهتت أمى من فراقى الوشيك بهوتا عظيمـــا جعلها تسقط الملعقة فى القدر ، وسالت الدموع على وجهها . ومقابل ذلك يصعب على وصف فرحتى . فان فكرة الخدمة فى الجيش كانت ترتبط فى نفسى بفكرة الحرية ، ومسرات الحيـــاة فى بطرسبورغ . تصورت نفسى ضابطا فى الحرس ، وكان ذلك ، فى رأيى ، اسمى درجات النعيم الانسانى .

كان ابى لا يحب تغيير ما يعزم عليه ، ولا تأجيل تنفيذه . وحدد يوم سفرى . وفى عشيته أعلن ابى انه ينوى ان يرسل معى رسالة الى رئيسى المقبل ، وطلب احضار الريشة والورق .

قالت امى :

ـ لا تنس ، يا اندريه بتروفيتش ، ان تبلـــغ سلامى الى الامير ب ... ، اكتب له أننى آمل ان يشمل بيتر بألطافه .

رد أبى عابسا :

ـ ما هذا الهراء ! بأية مناسبة اكتب للامير ب ... ؟

ـ الم تقل انك ستكتب الى رئيس بيتر ؟

ـ وما فى ذلك ؟

ـ ورئيس بيتر هـــو الامير ب ... فان بيتر مسجل فى فوج سيمينوفسكى .

ـ مسجل ! وما يهمنى من هذا التسجيل ؟ لن يذهب بيتروشا الى بطرسبورغ . فماذا سيتعلم اذا صار يخدم فى بطرسبورغ ؟ يبذر ويفسق ؟ لا ، دعيـــه يخدم فى الجيش ، ويتدرب حسب الاصول . يستنشق البارود ، ويصير جنديا لا فتى فارغـــا ! مسجل فى الحرس ! اين جوازه ؟ اجلبيه لى .

وجدت امى الجواز الذى كان محفوظا فى علبتها مع القميص الذى تعمدت فيه ، وقدمته الى ابى بيد مرتجفة . قرأه ابى باهتمام ووضعه على الطاولة أمامه ، وشرع يكتب رسالته .

اخذ حب الاستطلاع يعذبنى : الى اين سيرسلنى اذا لم يكن الى بطرسبورغ . لم اصرف بصرى عن ريشة ابى التى كانت تتحرك ببطء شديد . واخيرا فرغ منها ، ووضعها فى ظرف واحد مع الجواز ، وخلع نظارته ، ودعانى اليه وقال : «هذه رسالة لك مرسلة الى اندريه كارلوفيتش ر ... ، رفيقى القديم وصديقى . ستسافر الى اورنبورغ لتخدم تحت امرته» .

وهكذا تحطمت كل آمالى المتألقة ! فبدلا من حياة بطرسبورغ المرحة كان فى انتظارى ضجـــر فى

ناحية نائية . والخدمة التى كنت افكر فيها قبل لحظة بعظيم الغبطة بدت لى شقاء ثقيلا . الا ان الأمر لا يحتمل الجدل . فى صباح اليوم التالى وصلت عربة سفر الى مدخل البيت ، ووضعت فيها حقيبتى ، وصندوق فيه ادوات الشاى ، وصرر الكعك والفطائر ، وهى الدلائل الاخيرة لدلال الأهل . وباركنى والداى ، وقال لى أبى «وداعا ، يا بيتر . اخدم باخلاص من تقسم له يمين الولاء ، واطع الرؤساء ، ولا تستجد عطفهم ، ولا تتهالك على الخدمة ، ولا تتهرب منها . وتذكر المثل القائل : احرص على لباسك وهو جديد ، وعلى شرفك منذ الصبا» . وأوصتنى أمى ، والدموع فى عينيها ، بان اعتنى بصحتى ، وطلبت من سافيليتش بأن يرعى ولدها . والبسونى معطفا من فراء الارنب ، وفوقه فروة ثعلب . وركبت العربة مع سافيليتش ، وبدأنا السفر ، والدموع تترقرق فى عينى .

وصلت الى سيمبيرسك فى ذات الليلة ، وكان على ان امكث فيها يوما كاملا لشراء الاشياء اللازمة ، وكلف سافيليتش بذلك . نزلنا فى حانة وخرج سافيليتش منذ الصباح متجولا بين الحوانيت . سئمت التطلع من النافذة الى الزقاق الموحل ، فخرجت اطوف فى جميع الحجرآت . ودخلت حجرة البليارد ، ورأيت سيدا طويل القامة فى نحو الخامسة والثلاثين من العمر

له شاربان اسودان طويلان ، وعليه مبذل منزلى ، وفى يده عصا اللعب ، وبين اسنانه غليون . كان يلاعب الشخص المكلف بالتسجيل الذى كان يحتسى كأسا من الفودكا اذا ربح ، ويحبو تحت منضدة البليارد على الاربع اذا خسر . اخذت اراقب لعبهما . وكلما طال اللعب ازداد الحبو على الاربع ، حتى بقى المسجل تحت المنضدة فى آخر الأمر . تفوه السيد فوقه ببعض العبارات الشديدة بمثابة كلمة رثاء ، واقترح على ان الاعبه . رفضت لجهلى باللعبة . فلاح ذلك له غريبا على ما يبدو . نظر الى وكأنه يأسف لذلك ، الا أننا شرعنا نتحدث . عرفت أنه يدعى ايفان آيفانوفيتش زورين ، وأنه نقيب فرسان ، وأنه جاء الى سيمبيرسك ليشهد مراسيم التجنيد ، وهو يقيم فى الحانة . ودعانى زورين الى ان اتغدى معه ما رزق الله ، وعلى طريقة الجندى . قبلت الدعوة بطيب خاطر . وجلسنا الى المائدة . شرب زورين كثيرا ، ودعانى الى الشرب أيضا قائلا انه ينبغى التعود على الحياة العسكرية ؛ وقص على حكايات من حياة الجيش كادت تفقدنى زمام نفسى لشدة ما اضحكتنى ، ونهضنا من وراء المائدة صديقين على أتم ما تكون الصداقة . وهنا عرض على ان يعلمنى لعب البليارد ، وقال : «انه ضرورى للعسكرى . فمثلا حين تخرج فى مسيرة ، وتصل الى بلدة صغيرة فبأى

شيء ستقضي وقتك ؟ انك ستضطر الى اللجـــوء الى حانة ، وتلعب البليارد ، ولهذا الغرض ينبغي ان تجيد اللعبة ! » اقتنعت بذلك كليا ، واخذت اتعلم باجتهاد شديد . وكان زورين يشجعني بصوت عال مبديــــا دهشته من نجاحاتى السريعة ، وبعد عدة دروس ، اقترح على ان نلعب بنقود ، ببضعة فلوس ، لا لقصد الكسب ، بل لمجرد الا يكون لعبنا عبثا ، وهو على حد قوله اردأ عادة . ووافقت على ذلك ايضا ، وأمـــر زورين بأن يقـــدم شراب « البونش » ، وحثنى على تذوقه ، مكررا ان من الضرورى لى التعود على الخدمة العسكريـــة ، وأيـــة خدمـــة بلا شراب « البونش » ! واطعته . وخلال ذلك استمر لعبنا . وكلما ترشفت من قدحى آزددت جرأة فى اللعـــــب . وكانت الكرات تتطاير منى تباعا قافزة عبر حافة المنضدة ، واحتد مزاجى ، وشتمت المسجل الذى يعلم الله كيف كان يسجل ، ويزيد الرهان ، وباختصار اننى تصرفت كصبى انطلق فى دنيا الحرية . وخلال ذلك كان الوقت يمر دون ان يلحظ . نظر زورين فى الساعة ، ووضع العصا ، وابلغنى باننى خسرت مائة روبل . وقد اربكنى ذلك بعض الشيء ، لأن نقودى عنـــد سافيليتش . اخذت اعتذر . قاطعنى زورين « ارجوك ! لا تدع ذلك يقلقك . استطيع ان انتظر ، والآن لنذهب الى ارينوشكا » .

وما حيلتى ؟ وهكذا قضيت المساء بسفاهة كما بدأت النهار . تناولنا العشاء عند ارينوشكا . وكان زورين يصب لى الاقداح تباعا ، مكررا ان من الضرورى التعود على الخدمة العسكرية . ولما نهضت من المائدة كنت لا اكاد اقف على قدمى . وعند منتصف الليل قادنى زورين الى الحانة .

قابلنا سافيليتش عند مدخل الحانة . وقد ندت منه آهة حين رأى الدلائل الواضحة على اجتهادى فى الخدمة . قال بصوت بائس : «ماذا جرى لك ، يا سيد ؟ أين سكرت هذه السكرة ؟ يا الهى ، أنا لم أر مثل هذا طوال حياتى !» اجبته متذمرا : «اسكت ، يا عجوز ! أنت سكران بالتأكيد . اذهب لتنام ... وضعنى فى السرير» .

استيقظت فى اليوم التالى مصدوعا ، وتذكرت بغموض ما حصل لى البارحة . وقد قطع سافيلتش تأملاتى حين دخل يحمل قدحا من الشاى . قال لى وهو يهز رأسه : «بدأت حياة السكر مبكرا ، يا بيتر اندرييفيتش . على من طلعت ؟ اظن لا ابوك ولا جدك كان سكيرا ، ولا حاجة لذكر أمك : طوال حياتها لم تضع فى فمها غير «الكفاس» * . ومن الملوم فى كل

---

* مشروب روسى غير كحولى من الحنطة السوداء . (المترجم .)

ذلك ؟ المسيو اللعين . كان يتردد على حانة انتيبيفنا بين الحين والآخر ، ويرطن قائلا : «مدام جى فو برى فودكا» . وهذه هى النتيجة ! هذا هو الواقع ، علمك الخير ، ابن الكلب ذاك . كأنما كنت بحاجة الى مرب زنديق ، وكأن اباك لم يكن له مربون من بني قومه ! » .

شعرت بالخجل . استدرت بوجهى وقلت له : «اخرج ، يا سافيليتش . لا أريد شايا» . ولكن كان من الصعب ايقاف سافيليتش اذا بدأ موعظة . «ها انت ترى ، يا بيتر اندرييفيتش نتيجة الاسراف فى الخمرة . الرأس ثقيل ، والشهية معدومة . شارب الخمرة لا يصلح لشئ . اشرب ماء الخيار المملح مع العسل . والاحسن من ذلك ان تكسر خمارك بنصف قدح من الخمرة القوية . هل تريد ؟» .

وفى اثناء ذلك دخل غلام ، وسلمنى مذكرة من زورين . نشرتها وقرأت السطور التالية :

«العزيز بيتر اندرييفيتش . أرجو ان ترسل لى بيد الغلام المائة روبل التى خسرتها معى بالأمس . فأنا بحاجة ماسة الى الفلوس .

المستعد لخدمتك
ايفان زورين» .

ولم يكن هناك بد مما ليس منه بد . خلعت على نفسى مظهر اللامبالاة ، والتفت الى سافيليتش الذى

كان **صاحب مالى وملبسى واحوالى** ، وأمرته بأن يعطى الغلام مائة روبل . فسأل سافيليتش مدهوشـــا : «كيف ! ولماذا ؟» أجبت بأكثر ما يمكن من البرود : «انا مدين له بها » فاعترض سافيليتش الذى كان يزداد دهشة باطراد : «مدين ! وكيف تسنى لك الوقت لتكون مدينا ، ايها السيد ؟ الأمر ينطوى على شيء غير مفهوم . آفعل ما تشاء ، يا سيد ، أنا لن اعطى الفلوس » .

وفكرت فى اننى اذا لم اغلب العجوز العنيد فى مثل هذه اللحظة الحرجة فسيصعب على فيما بعـــد التحرر من وصايته فنظرت اليه بأنفة ، وقلت : «انا سيدك ، وانت خادمى . والنقود نقودى . وقد خسرتها بسبب من رغبتى الخاصة . انا انصحك بأن لا تتحذلق ، وافعل ما اومرك به» .

واذهلت كلماتى سافيليتش حتى انه رفـــع ذراعية ، وجمد فى مكانه . صرخت به حانقا : «لماذا انت واقف ؟» طفق يبكى قائلا بصـــوت مرتجف «سيدى بيتر اندرييفيتش ، يا روحى ، لا تدعنى اموت من اليأس . اصغ الى ، انا العجوز : اكتب لهذا اللص انك كنت تمزح ، وأنه لا قبل لنا بمثل هذا المبلغ . مائة روبل ! يا ربى الرحيم ! وقل له آن والديـــك منعاك منعا باتا من اللعب بغير الجوز ...» قاطعته

بحزم : «كفى كذبا ، هات النقود ، والا طردتك شر طردة» .

نظر سافيليتش الى بأسى عميق ، ومضى ليجلب دينى . اشفقت على العجوز المسكين ، الا اننى أردت ان استقل بحريتى ، واثبت اننى لم اعد طفلا . وارسلت النقود الى زورين . واسرع سافيليتش باخراجى من الحانة اللعينة . فقد جاء ينبؤنى بان الخيول قد اعدت . وغادرت سيمبيرسك بضمير مضطرب ، وندم صامت ، دون ان اودع معلمى ، وغير ظان بأننا سنلتقى ثانية .

الفصل الثانى

الدليل

منآى ، يا منآى ،
منآى الغريب !
لم اجئ اليك بمحض ارادتى ،
ولا قادنى اليك حصانى الكريم
بل قادنى اليك ، انا الفتى الطيب ،
الاقدام ، وتوثب الصبا ،
والسكر فى الحانات .

اغنية قديمة

لم تكن تأملاتى خلال السفرة مريحة جداً . فان خسارتى ، بالنسبة لاسعار ذلك الزمن ، لم تكن قليلة

الاهمية . ولم يكن فى ميسورى الا ان اعترف فى قرارة نفسى بأن تصرفى فى حانة سيمبيرسك كان تصرفا أحمق ، وشعرت بالذنب ازاء سافيليتش . وقد آلمنى كل ذلك . كان العجوز يجلس الى جوار سائق العربة متجهم الاسارير ، مشيحا بوجهه عنى ، صامتا ، لا تبدر منه غير غمغمة بين الحين والآخر . كنت أود بالتأكيد لو اصالحه ، ولا أعرف كيف ابدأ المصالحة . وأخيرا قلت له : « كفى ذلك يا سافيليتش ! لنتصالح . أنا المذنب فى حقك ، ادرك ان الذنب يقع على . بالأمس ابديت حماقة ، وأسأت اليك . أعدك بأن أتصرف فى المستقبل تصرفا أكثر تعقلا ، واطيعك . حسنا ، لا تغضب ، ولنتصالح » .

أجاب بتنهيدة عميقة :

ـ آه ، يا عزيزى بيتر اندرييفيتش ! انا غاضب على نفسى ، أنا وحدى المذنب . كيف تركتك فى الحانة لوحدك ! ما العمل ؟ اغوانى الشيطان ، ففكرت بزيارة امرأة الشماس ، عرابتى . ذهبت الى بيتها وامضيت عندها وقتا طويلا . ما افظع ذلك ! .. كيف سأبدو فى عيون والديك ؟ ماذا يقولان لو يعرفان ان ابنهما يسكر ويقامر ؟

ولتهدئة سافيليتش المسكين قطعت له عهدا باننى لن انفق فلسا واحدا فى المستقبل دون موافقتـــــه . وهدأ شيئا فشيئا ، رغم أنه ظل يدمدم مع نفسه بين الحين والآخر هازا رأسه : «مائة روبل ! وكأنها فلس او فلسان !»

اقتربت من المكان الذى اقصده . امتدت حولى رحاب حزينة تتخللها تلال ووهاد . وكان الثلج يغطى كل شىء . وغربت الشمس و سارت العربة فى طريق ضيقة ، والأصح على الأثر الذى شقته زلاقات الفلاحين . وفجأة اخذ الحوذى يحدق فى ناحية ، واخيرا ، خلـــع قبعته ، والتفت نحوى ، وقال :

ـ ايها السيد ، الا تأمر بالعودة ؟

ـ ولم ذاك ؟

ـ الجو لا يعول عليه : فالريح ترتفع رويدا ، وهى تذرو الثلج .

ـ وما وجه الخطر فى ذلك ؟

ـ الا تنظر هناك ؟ (واشار الحوذى الى الشرق بسوطه) .

ـ لا أرى غير سهب أبيض ، وسماء صافية .

ـ وهناك ، هناك هذه الغمامة .

وفى الحق لمحت فى طرف السماء غمامة بيضاء حسبتها فى البدء تلا بعيدا . وشرح لى الحـــوذى ان الغمامة تنذير عاصفة ثلجية .

كنت قد سمعت عن العواصف الثلجية فى هذه المنطقة ، وعرفت أنها كانت تغمر بالثلج قوافل كاملة من العربات . وأشار سافيليتش بالعودة متفقا مع الحوذى بالرأى . الا ان الريح بدت لى غير شديدة ، وأملت ان نصل الى المحطة القادمة فى الوقت المناسب ، وأمرت ان تغذ العربة فى السير .

اطلق الحوذى العنان الا أنه ظل يلقى ببصره صوب الشرق . وانطلقت الخيول فى عدو سريع . بينما كانت الريح تزداد شدة ساعة بعد ساعة ، وتحولت الغمامة الى سحابة بيضاء ارتفعت بتثاقل ، وتنامت شيئا فشيئا حتى غطت اقطار السماء . ونزل ثلج دقيق ، ثم تساقط فجأة ندفاً . وصفرت الريح ، وتحولت الى عاصفة ثلجية . وفى لحظة واحدة التحمت السماء الداكنة بالبحر الثلجى . واختفى كل شىء . وصاح الحوذى : «انها العاصفة ، ايها السيد ، مصيبة !» ...

اطللت من العربة . فلم أر غير ظلام متكاثف واعصار . وكانت الريح تعصف عصفا وحشيا حتى بدأت وكأنها روح حية ، وغطانى الثلج وغطى سافيليتش ، وتحولت الخيول الى الخطو ، وما لبثت حتى توقفت . سألت الحوذى بنفاد صبر : «لماذ لا تتحرك ؟» اجاب ، وهو يترك مقعده : «وكيف اتحرك ؟ الله يعلم اين نحن

الآن . الطريق لا يبين ، وحولنا ظلمـــات» . أخذت اشتمه ، والتزم سافيليتش جانبه . قال غاضبا : «لو سمعت كلامه لعدنا الى نزل ، وشربت الشاى ، ولنمت حتى الصباح ، حيث تكون العاصفة قد هدأت ، ولواصلنا السفر . لم العجالة ؟ أنحن ذاهبون الى عرس ؟» كان سافيليتش على حق ، ولا مجال لرد ما وقع . ظل الثلج ينثال . وأرتفع كثيب منه عند العربة . وكانت الخيول واقفة مطأطئـــة الرؤوس ، مرتعدة بين الحين والآخر . وكان الحوذى يدور حول العربة ، ويصلح العدة تمضية للوقـــت . وكان سافيليتش يدمـــدم . تلفت فى كل الجهات ، مؤملا ان ألمح على الاقل امارة على مأوى او طريق ، الا اننى لم استطع ان أتبين غير دوامة العاصفة المدلهمة ... وفجأة لمحت شيئا اسود . هتفت : «يا حوذى ! أنظر ما هذا الذى يسود هناك ؟» اخذ الحوذى يتفرس . قال وهو يجلس فى مقعده : «الله يعلم ايها السيد ، لا هو بعربة ، ولا هو بشجرة ، ولكنه يتحرك . لا بد أنه ذئب او انسان» .

أمرت ان يتجه نحو الشىء الغامض ، الذى صار فى الحال يتحرك نحونا . وبعد دقيقتين اقتربنا مـــن شخص .

صاح به الحوذي :

ـ هاى ، ايها الرجل الطيب ! خبرنا أتعرف أين الطريق ؟

اجاب عابر الطريق :

ـ الطريق هنا ، أنا واقف على جادته الصلبة . ولكن ما الفائدة ؟

قلت له :

ـ اسمع ، ايها الرجل ، أتعرف انت هذه الناحية ؟ أتستطيع ان تدلنا على مكان نبيت فيه .

اجاب عابر الطريق :

ـ أنا اعرف هذه الناحية ، والحمد لله طرقتها ماشيا . وجبتها راكبا ، ولكن انظر اى جو هو ، ستضل الطريق لا محالة . من الافضل البقاء هنا والانتظار حتى تهدأ العاصفة ، وتصفو السماء : عندئذ سنعرف الطريق بالنجوم .

وشجعتنى برودة اعصابه . فقررت ، بعد الاتكال على الله ، ان اقضى الليلة وسط السهب ، حين جلس عابر الطريق فجأة وبخفة على مقعد السائق ، وقال للحوذى : «حمدا لله على ان المنزل غير بعيد ، استدر الى اليمين ، وسر فى طريقك» .

سال الحوذى فى غير ما رضى :

ـ ولماذا على ان اسير الى اليمين ؟ واين ترى الطريق ؟ أظن ان الخيول لا تعود لك ، ولا العدة تخصك

فلا يهمك الا السفر » . ولاح لى الحوذى محقا . قلت : « لم تظن ان المنزل ليس ببعيد ؟ » اجاب عابر الطريق : « لأن الريح تهب من تلك الجهة ، وأنا اشم رائحة دخان ، يعنى ان قرية على مقربة » . وأدهشتنى رهافته ودقة حاسته . أمرت الحوذى ان يسير . وسارت الخيول متثاقلة على الثلج العميق . وتقدمت العربة ببطء ، تارة تصعد على كومة ثلج ، وتارة تغوص فى منخفض ، وتقع مرة على هذا الجانب ، وأخرى على ذاك . فكانت تشبه سفينة تمخر عباب بحر هائج . وكان سافيليتش يتأوه مصطدما بجنبى بين الحين والآخر . اسبلت الستارة ، وتدثرت بالفروة ، وراودنى النعاس بعد ان هدهدتنى ترنيمة العاصفة وتمايل السير البطىء .

وحلمت حلما لم استطع ان انساه طوال حياتى ، وحتى الآن اجد فيه شيئا نبوئيا حين اقارنه بالظروف العجيبة التى مرت فى حياتى . ارجو ان يعذرنى القارىء ، لأنه ، على الارجح ، يعرف من تجربته ان الانسان مجبول على الانسياق وراء الخرافات ، رغم ازدرائه التام لها .

كنت فى تلك الحالة الشعورية والنفسية التى يتراجع فيها الواقع امام الاحلام ، ويمتزج معها فى رؤى غامضة فى اوآئل النوم . حلمت بأن العاصفة ما

زالـــت تزمجر ، ونحن ما نزال تائهين فى الفضـــاء الثلجى ... وفجاة لمحت بوابـــة ، ودخلت فنـــاء ضيعتنا . وأول ما خطر فى ذهنى هو ان اتفادى غضب ابى على بسبب عودتى غير المرغوبة الى كنف الوالدين ، واعتبارها خروجا مقصودا عن طاعته . قفزت من العربة قلقا ، فرأيت أمى تستقبلنى عند المدخل بهيئـة من الحزن العميق . وتقول لى : «رويدك . ان اباك مريض ويوشك ان يموت ، ويريد آن يودعك» . واتبعها الى غرفة النوم وقد تملكنى الذعر . واجد الغرفة خافقـــة الضـــوء ، وعند السرير يقف اناس ، ذوو وجـــوه مفجوعـــة . اتقدم من السرير بهدوء . وترفـــع امى الستارة قليلا ، وتقول : «اندريه بتروفيتش ، ها هو بيتر قد وصل ؛ عاد بعد آن علم بمرضك ؛ فباركه» . ركعت على ركبتى ، وصوبت عينى الى المريض . مـــا هذا ؟ رأيت بدلا من ابى فلاحا ذا لحية سوداء راقدا فى السريـــر ، ينظر الى نظرة مرحة . التفت الى أمى مرتبكا قائلا لها : «ما يعنى هذا ؟ انه ليس ابى . فلماذا اطلب البركة من فلاح ؟» اجابت امى : «لا فرق يا بيتر انه ابوك فى العرس * فقبل يده ، ودعه يباركك ...» .

---

* شخص يقوم مقام الاب او الأم للعروس او العريس اثناء العرس . (المترجم) .

لم اوافق . عندئذ وثب الفلاح من السرير ، وآختطف فاسا من وراء ظهره ، وراح يلوح بها فى كل الجهات . اردت ان أهرب ... ولكنى لم آستطع ، كانت الحجرة مملؤة بالجثث الميتة ، وأرتطمت بجثة ، وانزلقت فى برك الدم ... نادانى الفلاح الرهيب برقة قائلا : «لا تخف ، تقدم لبركتى ...» واستولى الذعر والاضطراب على ... وفى تلك اللحظة استيقظت . كانت الخيـــول واقفة ، وسافيليتش يهز يدى ، ويقول : «اخرج ، يا سيد ، وصلنا» .

سألت وانا افرك عينى : الى اين وصلنا ؟

ــ الى النزل . اعاننا الرب ، ووقعنا على السياج رأسا . انزل ، يا سيد ، بسرعة لتتدفأ .

خرجت من العربة . كانت العاصفة ماضيــــة فى عصفها ، ولكن شدتها قد خفت . كان الظلام شديــــد الحلكة . استقبلنا صاحب النزل عند الباب ، واضعــا المصباح تحت طرف ردائه ، وقادنى الى غرفة جلوس صغيرة ولكنها نظيفة ، يضيؤها سراج . وقد علقت على الحائط بندقية ، وقبعة قوزاقية عالية .

كان صاحب النزل وهو قوزاقى الاصل من يايك ، رجلا فى نحو الستين من العمر مــــا زال نضرا خفيف الحركة . حمل سافيليتش الصندوق ورائى ، وطلب ان توقد النار ليحضر الشاى الذى لم اكن فى يوم مـــن

الايام احوج اليه منى الآن . وانصرف صاحب النزل لشغله . سالت سافيليتش :

ــ اين الدليل ؟

اجابنى صوت من الأعلى : «هنا يا صاحب السيادة» . رفعت بصرى الى الرفوف فوق الموقد ، ورأيت لحية سوداء وعينين لامعتين . «هل تجمدت ، يا اخ ؟» ــ «كيف لا اتجمد وأنا فى هذا المعطف الخفيف ! كانت لدى فروة ، ولكن (لماذا اخفى عنك ؟) رهنتها البارحة عند بائع الخمر . لم اتصور البرد شديدا» . وفى هذه اللحظة دخل صاحب النزل يحمل سماورا يغلى . عرضت على الدليل ان يحتسى معنا قدحا من الشاى . نزل الفلاح من الرفوف فوق الموقد . فلاح لى مظهره رائعا : كان فى نحو الاربعين من العمر ، متوسط القامة ، نحيلا ، عريض المنكبين . وخط الشيب لحيته السوداء . وكانت عيناه الكبيرتان المتألقتان لا تفتآن تتحركان . وقد ارتسم على وجهه تعبير لطيف جدا ، ولكن فيه دهاء . وقد حلق شعره على شكل دائرة . وكان يرتدى معطفا فلاحيا مهلهلا وسروالا تتريا . قدمت له قدح الشاى . احتساه وتغضن وجهه . «يا صاحب السيادة ، اصنع لى معروفا ، واطلب لى قدحا من الخمر . فان الشاى ليس ما يشربه القوزاقى» . لبيت طلبه برضى ، اخرج صاحب النزل

من الخزانة قارورة وقدحا ، وتقـــدم منه ، ونظر فى وجهه ، وقال : «آه ، مرة اخرى انت فى ديارنا ! من اين جاء بك الرب ؟» غمز دليلى غمزة ذات دلالة ، واجاب بمثل سائر : «طرت الى المزرعة أنقر القنب ، فرمتنى الجدة بحصاة ، واخطاتنى . كيف جماعتكم ؟» .

اجاب صاحب النزل متابعا هذا الحديث المجازى :

ـ جماعتنا ! صاروا يتنادون لصلاة المســاء ، ولكن زوجة القس لا تسمح لأن القس قد خرج ضيفا والشياطين تسرح فى المقبرة .

اعترض المتشرد :

ـ اسكت ، يا عم . سينزل المطر ، وينبـــت الفطر ، وتكون للفطر سلة . والآن (وهنـــا غمز مرة اخرى) خبىء الفأس ، فحارس الغابة فى المرصاد . يا صاحب السيادة ، نخب صحتك ! وبهذه الكلمـــات تناول القدح ، ورسم علامة الصليب وشربه بجرعـــة واحدة . ثم انحنى لى ، وعاد الى الرفوف فوق الموقد .

آنذاك لم افهم شيئا من حديث اللصوص هذا . ولكننى حدست فيما بعد ان الأمر متعلق بقضية فرقة يايك القوزاقية التى لم يكن قد مضى على قمعها آنذاك غير وقـــت قصير بعـــد عصيـــان عام ١٧٧٢ . كان سافيليتش يستمع وتقطيبة عدم الرضى مرتسمـة على وجهه . وكان ينقل بصره بارتياب بين صـاحب النزل

وبين الدليل . كان النزل يقع فى معزل ، فى السهب ، بعيدا عن اية قريـــة ، وكان شديد الشبـــه بمأوى للصوص . ولكن لم تكن فى اليد حيلـــة . وكان مـن المستحيل حتى التفكير فى مواصلة السير . وقد سلانى قلق سافيليتش كثيرا . وخلال ذلك تهيأت للنـــوم ، واضطجعت على مصطبة . وقرر سافيليتش ان يصعد الى سطح الموقد . واستلقى صاحب النزل على الأرض . وبعد قليل كان النزل كله فى شخير ، ونمت كالميت .

عندما استيقظت والضحى قد ارتفع من اليــوم التالى ، رأيت العاصفة قد هدأت ، والشمس ساطعة ، والثلج يرقد بساطا يخطف الابصار فى السهب المترامى الاطراف . كانت الخيول مشدودة الى العربة . سددت النقود لصاحب النزل الذى تقاضانا اجرة معتدلة جدا حتى ان سافيليتش لم يماكسه ، ولم يماحك كما هى عادته ، وتبدد من رأسه كل ريب الأمس كليـــة . استدعيت الدليل ، وشكرته على العون الذى اســداه لنا ، وأمرت سافيليتش ان يعطيــــه نصف روبـــل للفودكا . تجهم سافيليتش ، وقال : «نصف روبـــل للفودكا ! على اى شيء ؟ لأنك تفضلت عليه بنقله الى النزل بالعربة ؟ هذا شانك ، يا سيد ، ليست لدينا فلوس زائدة . اذا اعطينا لكل من هب ودب ثمن فودكا فاننا انفسنا سنجوع قريبا» . لم استطع مجادلـــة

سافيليتش ، فان النقود ، حسب تعهدى له ، تحت تصرفه الكلى . ولكننى قد شعرت بالأسى لاننى لم استطع رد الشكر لانسان انقذنا ، آذا لم يكن من مصيبة ، فمن وضع حرج جدا على اقل تقدير . قلت ببرود : «حسنا ، اذا كنت لا تعطيه نصف روبل فاعطه شيئا من ملابسى . فان ثيابه خفيفة جدا . اعطه معطفى من فراء الارنب» .

قال سافيليتش :

ـ ارجوك ، يا عزيزى بيتر اندرييفتش ! لماذا تعطيه معطفك من فراء الارنب ، ان هذا الكلب سيبيعه فى أول خمارة وينفق ثمنه على الخمرة .

قال صاحبى المتشرد :

ـ ايها العجوز لا يهمك عندئذ ان انفقه على الخمرة ام لا . ان سيادته يخلع على معطفه وهذه هى ارادته الكريمة . وأنت كخادم ليس من شأنك ان تجادل ، بل ان تطيع .

رد عليه سافيليتش بصوت غاضب :

ـ انت لا تخاف الله ، ايها اللص ! أنت ترى انه ما يزال صبيا لا يفقه ، وتستغل بساطته لتنهبه وأنت مسرور . وما حاجتك الى معطف السيد الصغير ؟ انه لا يصلح لكتفيك اللعينين .

قلت لمربى :

– ارجو ان لا تتحذلق . اجلب الى المعطف حالا .

فتوجع سافيليتش :

– يا رب يا قدير ! ان المعطف جديد تقريبا ! وانت تهبه لا الى رجل طيب بل الى سكير حافي القدمين !

ومع ذلك فان معطف فراء الارنب قد جلب . واخذ الفلاح يقيسه . حقا ان المعطف الذى صار صغيرا على كان ضيقا عليه قليلا . الا انه استطاع لبسه على نحو ما ، بعد ان تفتق فى بعض خياطاته . وكاد سافيليتش يعول حين سمع تقطع الخيوط . وسر المتشرد بهديتى سرورا بالغا ، وودعنى حتى العربة ، وقال بانحناءة واطئة : «شكرا ، يا صاحب السيادة ! الله يجازيك على احسانك . لن أنسى افضالك ما حييت» . وسار فى سبيله ، وواصلت السير ، غير ملتفت الى تكدر سافيليتش ، وسرعان ما نسيت عاصفة الأمس ودليلى ، والمعطف من فراء الارنب .

بعد وصولى الى اورنبورغ توجهت الى الجنرال توا . رأيت رجلا مديد القامة ، الا ان الشيخوخة قد قوست ظهره . وكان شعره الطويل ابيض تماما ، وسترته العسكرية القديمة الناحلة اللون تجعله يشبه

محاربا فى عهد آنا يوهانوفنا * ، وفى كلامه لكنة المانية قوية . قدمت له رسالة ابى . ولدى ذكر اسمه نظر الى نظرة سريعة ، وقال : « ما شاء الله ! منذ عهد غير طويل كان ابوك يبدو فى سنك . والآن انظر اى فتى اصبح له ! آه ، الزمن ، الزمن ! » فض الرسالة ، واخذ يقرؤها بصوت خافض ، مبديا ملاحظاته ، « حضرة السيد اندريه كارلوفيتش ، آمل أن تكون سيادتك » ... ما هذا التضخيم ؟ لا يستحى ! طبعا ان الانضباط هو الأمر الاول ، ولكن هل يكتب الى رفيق حميم بهذا الشكل ؟ « سيادتك لم تنس » .. اهم ... « و... عندما ... الفيلدمارشال الراحل مين ... الحملة ... كذلك و ... كارولينكا » آه ، صديق ! كيف لم ينس حتى الآن مخابثنا القديمة ؟ « والآن لندخل فى الموضوع ... ابعث اليك ابنى الخامل » احم ... « امسكه بقبضة حديدية » ... ما هذه القبضة الحديدية ؟ لا بد انه مثل روسى ... وكرر ملتفتا الى ما معنى « امسكه بقبضة حديدية » ؟

اجبته مبديا أكبر قدر من البراءة :

ــ يعنى عامله بلطف ، لا بصرامة مفرطة ، اعطه حرية اكثر ، امسكه بقبضة حديدية .

---

* امبراطورة روسيا فى ١٧٣٠ ــ ١٧٤٠ . **(المترجم .)**

ـ احم ، فاهم ... «ولا تطلق له الحرية» ... لا ، يبدو ان القبضة الحديدية تعنى شيئا آخر .. «مع هذه ... جوازه» ... اين هو ؟ نعم هـو هنـــا ... «ارجو الكتابة الى فوج سيمينوفسكى» ... حسنـــا حسنا ، سينفذ كل شيء ... «اسمح لى بان اعانقك دون كلفة ... رفيقك وصديقك القديم» . أها ! اخيرا حزر ... الى آخره ، الى آخره . ثم قال بعد ان اتـم قراءة الرسالة ، ووضع جوازى فى ناحية : «سينفذ كل شيء ... ستكون ضابطا منقولا الى فوج ك ، ولكيــلا تضيع الوقت سافر غداً الى قلعة بيلوغورسك ، حيث ستكون تحت امرة النقيب ميرونوف ، الانسان الطيب النزيه . هناك ستكون فى الخدمة الحقيقية ، وتتعلــم الانضباط . لا شأن لك فى اورنبورغ ، فان العطالـــة مضرة بالشاب . واليوم ارجو التفضل لتناول الغداء فى بيتى .

فكرت فى سرى «الأمر يزداد صعوبة من ساعة الى أخرى . ما اشقانى من كونى قد سجلت رقيــب حرس وانا فى بطن امى ! وتلك هى النتيجة : الى فوج ك ... قلعة نائيـــة على حدود السهوب القرغيزيـــة- الكايستسكية ! ...» تغديت على مائدة اندريـــه كارلوفيتش ، وكان معنا مرافقه العجوز . وقد ســاد مائدته اقتصاد المانى صارم ، وفكرت ان الخوف من ان

يرى احيانا ضيفا زائداً على مائدته العازبة كان جزءا من السبب الذى حمله على الاسراع فى ابعادى الى الحامية . وفى اليوم التالى ودعت الجنرال ، وسافرت الى مكان تعيينى .

الفصل الثالث

القلعة

نحن نعيش فى قلعة
طعامنا الخبز ، وشرابنا الماء ؛
وحين يأتى الاعداء المفترسون
الينا ليأكلوا طعامنا
سنولم للضيوف وليمة
من قذائف المدافع .

اغنية للجنود

الناس القدامى ، يا عزيزى .

(من كوميديا فونفيزين **«شاب نصف متعلم»** .)

تقع قلعة بيلوغورسك على بعد اربعين فرسخا من اورنبورغ . امتد الطريق بمحاذاة شاطئ نهر يايك الشديد الانحدار . لم يكن النهر قد تجمد بعد ، فكانت

امواجه الرصاصية اللون كئيبة نحو الشطآن المتشابهة المغطاة بالثلج . ووراءها انبسطت سهوب قيرغيزيا . غرقت فى افكار حزينة فى معظمها . لم تكن الحياة فى حامية تستهوينى كثيرا . حاولت ان اتصـــور لنفسى النقيب ميرونوف رئيسى المقبل ، فتخيلته شيخا صارما غاضبا لا يعرف غير وظيفته ، ومستعدا لأن يعتقلنى على أقل هفوة ويطعمنى خبزا وماء . وفى غضون ذلك كان المساء قد اغسوسق . كنا نسير بسرعة كبيرة . سألت حوذى عربتى : «أما تزال القلعة بعيدة ؟» اجاب : «ليست بعيدة ، انها على مرأى البصر الآن» . نظرت فى جميع الجهات ، متوقعا آن اشـــاهد التحصينـــات المخيفة ، والابراج والاسوار ، آلا اننى لم أر غير قرية صغيرة محاطة بسياج من جذوع الشجر . تكدســت فى احدى ناحيتيها ثلاثة آو اربعـــة اكداس من الدريس مغطاة بالثلج ، وارتفعت فى الناحية الاخرى طاحونة مائلة اجنحتها الليفية متهدلة بتراخ . سألت بدهشة : «اين القلعة اذن ؟» آجاب الحوذى وهـــو يشير الى القرية : «هذه هى» . وبهذه الكلمة دخلناها . رأيت عند البوابة مدفعا قديما من الحديد الصب . كانـــت الشوارع ضيقة متعرجة ، والبيوت واطئة ، ومعظم سقوفها من القش . أمرت ان نتوجه الى الآمر ، وبعد

دقيقة وقفت العربة امام بيت خشبى صغير اقيم فى مكان مرتفع ، قرب كنيسة خشبية ايضا .

لم يستقبلنى احد . سرت فى الرواق ، وفتحت باب الغرفة الامامية . كان عجوز مبتور الساق جالس على منضدة يرقع كوع سترته العسكرية الخضراء برقعة زرقاء . طلبت منه ان يبلغ الآمر بحضورى . اجاب العجوز المبتور الساق : «ادخـــــل ، يا بنى ، ان جماعتنا فى البيت» . دخلت غرفة نظيفة مؤثثة على الطراز القديم . وضع فى احد اركانها صوان للاوانى ، وعلق على الجدار دبلوم تخرج ضابط وراء زجاجة محاطة باطار . وبالقرب منها ازدهت لوحات رخيصة تصور الاستيلاء على كيسترين واوتشاكوف ، وانتقاء خطيبة ، وتشييع قطة . وبالقرب من النافذة جلست عجوز ترتدى سترة مبطنة ، وتعتصب بمنديل . كانت تلف خيوطا كان عجوز ضئيـــل اعور فى سترة ضابط يمسكها على يديه المتباعدتين . سألتنى العجوز وهى ماضية فى عملها : «ما حاجتك ، يابنى ؟» أجبت بأننى جئت للخدمة العسكرية ، ولأقدم نفسى الى حضرة الآمر تأدية لواجبى ، وبهذه الكلمة توجهت الى العجـــوز الأعور ، وقد ظننته الآمر ، الا ان ربة البيت العجوز قاطعت كلامى الذى حفظته سلفا ، قائلة : «ايفان كوزميتش ليس فى البيت ، ذهب ليزور الأب غيراسيم ،

وعلى كل حال أنا زوجته ، على الرحب والسعـــــة .
اجلس ، يابنى» . ونادت الخادمة ، وامرتهـــا بان تستدعى ضابط الصف . نظر العجوز الضئيل الى بعينه الواحدة فى فضول ، وقال : «هل تتكرم وتقول لى فى اى فوج خدمت ؟» ارضيت فضوله . فأستمر يسأل : «هل تتكرم وتقول لى لماذا نقلوك من الحرس الى حامية ؟» اجبته بأن هذه كانت ارادة رؤسائى . فقال السائل الملحاح : «الارجح بسبب تصرفات لا تليق بضابط الحرس» . فقالت له زوجة الآمر : «كفى ثرثرة . انت ترى ان الشاب تعبان من السفر ، وليس له مزاج للحديـــث معك . . . (مد يديـــك أكثر استقامـــة ...) وأنت ، يابنى ــ واصلت كلامهـــا تخاطبنى ــ لا تحزن اذا كانوا قد نقلوك الى مكاننـــا النائى . فلست بالاول ولا بالاخير . اصطبر وسيعجبك الأمر . هذا هو شفابرين الكسى ايفانوفيتش نقل الينا منذ اربعة اعوام بسبب قتل . الله يعلم اى شيطان وسوس له . ذهب خارج المدينة مع احد الضباط . واخذ كل واحد منهما سيفه . وراحا يتضاربان ، حتى طعن الكسى ايفانوفيتش الضابط ، وبحضور شاهدين ! فما العمل ؟ لا أمان من الشيطان» .

وفى تلك اللحظـــة دخل ضابط الصف ، وهو قوزاقى شاب حسن القوام . فقالت له زوجة الآمر :

«يا مكسيميتش ! اسكن السيد الضابط مسكنـــا ، وليكن اكثر نظافة» . اجاب ضابط الصف : «سمعا وطاعة ، يافاسيليسا يغوروفنا . هل نسكن سيادته مع ايفان بوليجايف ؟» قالت زوجة الآمر : «لا تهرف ، يا مكسيميتش ، لا يوجد مكان عند بوليجايف ، ثم انه عراب ابنتى ، وهو لا ينسى أننا رؤساؤه . خذ السيد الضابط ، ما اسمك واسم ابيـــك ، يا ولدى ؟ بيتر اندرييفيتش ؟ خـــذ بيتر اندرييفيتش الى سيميون كوزوف . ان هذا المحتال اطلق حصانه فى مزرعتى . هل كل شيء على ما يرام ، يا مكسيميتش ؟

قال القوزاقى :

ـ كل شيء هادىء ، والحمد لله . لكن حادثا واحدا قد حدث ، وهو ان العريف برخوروف تشاجر فى الحمام مع اوستينيا نيغولينا على دلـــو من الماء الحار .

قالت زوجة الآمر للعجوز الاعور :

ـ يا ايفان ايغناتيفيتش حقـــق مع برخوروف واوستينيا ، واعرف ايهما على حق ، وأيهما على باطل . ثم عاقب كليهما . والآن ، يا مكسيميتش ، اذهب بحراسة اللـــه . يا بيتر اندرييفيتش ، سيأخـــذك مكسيميتش الى مسكنك .

انحنيت مودعا . قادنى ضابط الصف الى بيت يقع على شاطئ النهر المرتفع ، فى اقصى القلعة . كانت عائلة سيميون كوزوف تحتل نصف البيت ، بينما خصص النصف الآخر لى . وكان يتألف من حجرة واحدة ، نظيفة جدا مقسومة بحاجز الى قسمين . اخذ سافيليتش ينظم الحاجيات فيها ، واخذت انا انظر فى نافذة ضيقة ، حيث انداح امامى سهب كئيب ، وبعض البيوت القديمة تبدو الى جانب بينما كانت بعض الدجاجات تسرح فى الشارع . ونادت عجوز واقفة عند مدخل بيت وبيدها معلف على خنازير ردت عليها بقباع ودى . تلك هى الناحية التى كتب على ان اقضى شبابى فيها ! واستولى على السأم ، فابتعدت عن النافذة ، ورقدت للنوم دون عشاء ، رغم الحاح سافيليتش الذى ظل يكرر بحزن عميق : «يا رب يا قدير ! لا يأكل شيئا ! ماذا ستقول السيدة أمه اذا اصاب الهزال ابنها ؟» .

ما كدت ارتدى ملابسى فى صباح اليوم التالى حتى فتح الباب ، ودخل على ضابط شاب قصير القامة اسمر الوجه على قدر واضح من القبح ، الا انه مفعم بالحيوية . وقال لى بالفرنسية : «اعذرنى على دخولى عليك بلا كلفة لأتعرف عليك . بالامس سمعت عن قدومك ، واستولت علي رغبة شديدة فى رؤية وجه

انسان آخيرا فلم اصطبر . ستفهم ذلك حين تعيش هنا بعض الوقت» . وحدسـت ان هذا هو الضابط الذى اخرج من الحرس بسبب المبارزة . تعارفنا فى الحال . كان شفابرين رجلا ذكيا . كان حديثه حادا ومشوقا . وصف لى بدعابة كبيرة عائلة الآمر ، ومجتمعـه ، والاقليم الذى ساقنى اليه القدر . وكنت اضحك من صميم القلـب حين دخل على ذلك الرجل العاجـز الذى كان يرقع سترته فى الحجرة الامامية من بيـت الآمر . ودعانى باسم فاسيليسا يغوروفنا بأن اتغدى معهم . وعرض شفابرين ان يرافقنى .

لدى اقترابنا من بيت الآمر رأينا فى الساحـة الصغيرة حوالى عشرين رجلا من ذوى العاهات لهم ضفائر طويلة ، وقبعات مثلثة . وقد اصطفوا فى صف واحـد بينما وقف الآمر فى المقدمة ، وهو رجل عجوز خفيف الحركة مديد القامة يرتدى طاقية ومبذلا صينيا . حين وقع بصره علينا اقبل نحونا ، وقال لى بعض الكلمات الرقيقة ، وعاد الى امرته . وقفنا ننظر الى التدريب ، الا أنه رجانا ان نذهب الى فاسيليسا يغوروفنا ، وأعدا ايانا بأن يأتى فى اثرنا . واضاف : «لا شىء هنا يستحق ان تشاهداه» .

استقبلتنا فاسيليسا يغوروفنا ببساطـة وفرح ، وعاملتنى معاملـة صاحب قديم . وراح العاجـز

وبالاشا يعدان المائدة . قالت زوجة الآمر : «صاحبى ايفان كوزميتش منهمك بالتدريب اليوم كثيرا ! بالاشا، أدعى السيد الى الغداء . ولكن اين ماشا ؟» وفى تلك اللحظة دخلت فتاة فى نحو الثامنة عشرة من العمر ، مدورة الوجه ، موردة الوجنتين ، شعرها الاشقر الوضاء قد سرح بنعومة وراء اذنيها المتوهجتين . لم تعجبنى فى النظرة الاولى . فقد نظرت اليها بتحفظ ، ذلك لأن شفابرين وصف لى ماشا ابنة الآمر كفتاة حمقاء تماما . جلست ماريا ايفانوفنا (ماشا) فى ركن ، واخذت تخيط . وخلال ذلك قدم حساء الكرنب . ولما لم تر فاسيليسا يغوروفنا زوجها ارسلت بالاشا فى طلبه مرة أخرى . «قولى للسيد ان الضيوف ينتظرون ، والحساء يبرد ، والتدريب لا يهرب والحمد لله ، فيما بعد سيكون له الوقت الكافى للصراخ» . وبعد قليل حضر الآمر يرافقه العجوز الأعور . فقالت له زوجته : «ما هذا ، يا عزيزى ؟ الطعام مصفوف على المائدة منذ مدة ، وأنت لا تقبل ان تأتى» . اجاب ايفان كوزميتش : «انت ترين ، يافاسيليسا يغوروفنا اننى كنت مشغولا بالخدمة ، كنت ادرب الجنود» . فردت زوجته : «كفى ، هذا مجرد كلام ان تدرب الجنود ، فلا هم صالحون للخدمة العسكرية ، ولا أنت عارف جوهرها .

الاجدر بك ان تجلس فى البيت ، وتصلى للرب . ايها الضيوف ، ارجو آن تتفضلوا الى المائدة » .

جلسنا الى الغداء . لم تسكت فاسيليسا يغوروفنا دقيقة واحدة ، وامطرتني بالاسئلة : من هما والداى ، وهل هما حيان ، واين يعيشان ، وما هى ثروتهما ؟ ولما سمعت ان والدى يملك ثلثمائة نفس من الفلاحين الاقنان ، قالت : «ما شاء الله ! ما زال فى الدنيا اناس اثرياء أما نحن ، يا بنى ، فليس لنا غير نفس واحدة هى الفتاة بالاشا ، ولكن حياتنا تسير رويدا رويدا ، والحمد لله . ليس لنا غير مصيبة واحدة ، وهى ان ماشا فى سن الزواج ، وأى مهر نملك لها ؟ مشطا ومكنسة ، وثلاثة كوبيكات (غفرانك يا رب !) تذهب بها الى الحمام . لطيف لو وجدنا لها رجلا طيبا ، والا فستظل عانسا طوال عمرها» . حدجت ماريا ايفانوفنا ، ورأيتهـــا مضرجة بحمرة الخجل ، بل ان قطرات الدموع نزلت على صحنها . اشفقت عليها ، فاسرعت فى تغيير الحديث . قلت فى غير ما رابطة : « سمعت ان الباشكيريين يستعدون للهجوم على قلعتكم » . سأل ايفان كوزميتش : «ممن سمعت ذلك يا ولدى ؟» اجبــت : «قيل لى ذلك فى اورنبورغ» . قال الآمر : «اقاويل ! لم نسمع هنا اى شيء منذ زمن طويل . الباشكيريون شعب اصيـــب بالفزع ، والقيرغيزيـــون اخذوا درسا . ولا أظنهـــم

يهاجموننا ، وان هاجمونا فسأرهبهم رهبة تجعلني رخي البال عشر سنين بعدها » . فتابعت قولي مخاطبا زوجة الآمر : « وأنت الا تخافين من البقاء في قلعة معرضة لمثل هذه المخاطر ؟ » اجابت : « تعودت ، يابني . مضت عشرون عاما على نقلنا من الفوج الى هنا ، واعوذ بالله ، كم كنت اخاف من هؤلاء الكفار الملاعين ! كنت ما آن المح قبعاتهم من فراء الثعلب ، واسمع زعيقهم ، حتى يتجمد قلبي ، قسما بالله ! والآن تعودت حتى صرت لا ابارح مكاني حين يبلغوننا بأن هؤلاء الاشرار يحومون حول القلعة » .

قال شفابرين بعظمة :

ـ فاسيليسا يغوروفنا سيدة شجاعة . وايفان كوزميتش يمكن ان يشهد على ذلك .

قال ايفان كوزميتش :

ـ اسمع ، يا فتى . ان هذه المرأة ثابتة الجنان .

سألت :

ـ هل ماريا ايفانوفنا جريئة ايضا مثلك ؟

اجابت امها :

ـ تسأل هل ماشا جريئة ؟ لا ، ان ماشا جبانة . انها حتى الآن لا تستطيع ان تسمع طلقة من بندقية ، ما ان تسمعها حتى ترتعد فرائصها . قبل عامين حين خطر ببال ايفان كوزميتش ان يطلق من

مدفعنا تكريما لعيد ميلادى كادت ابنتى ان تفارق الحياة من شدة الخوف . ومنذ ذلك الحين لم نطلق النار من المدفع الملعون .

نهضنا من وراء المائدة . ذهب الآمر وزوجته ليناما القيلولة . وذهبت انا الى شفابرين ، حيث قضيت معه المساء كله .

الفصـــل الرابع

المبارزة

ــ حسنا ، خذ اهبتك
ما هى لحظة وأطعن بطنك !

(من كوميديا «غرباء الاطوار»
لكنياجنين .)

مضت بضعة اسابيع ، وصارت حياتى فى قلعة بيلوغورسك محتملـــة لى بل ومريحـــــة . وصرت أستقبـــــل فى بيت الآمر كقريب لهم . كان الزوج والزوجة شخصين محترمين للغايـــة . كان ايفـــان كوزميتش ، وهو ابن جندى ، رجلا غير متعلـــم ، بسيطا ، الا انه شريف للغاية ، وطيب القلب . وكانت

زوجته توجهه ، وكان ذلك يلائم ما طبع عليــه من التراخى . وكانت فاسيليسا يغوروفنا تنظر الى شؤون الخدمة العسكرية كما تنظر الى شؤونها المنزلية ، وتدير القلعة على النحو الذى تدير به منزلهــا . وسرعان ما تخلت ماريا ايفانوفنا عن خجلهــا فى حضورى . وتم التعارف بيننا . فوجدت فيهــا فتاة متعقلة ورقيقة المشاعر . ودون ان ادرى رأيت نفسى متعلقا بهذه العائلــة الطيبــة ، وحتى بايفـــان ايغناتيفيتش ، ضابط الحاميـــة الأعور الذى زعم شفابرين انه على علاقة محرمة بفاسيليسا يغوروفنا ، وهو أمر لم يكن له ظل من الصحة ، الا ان شفابرين كان لا يقلق لذلك .

أعطيت لى رتبة ضابط . ولم تكن خدمتى مرهقة . فلم تكن فى هذه القلعة المحروســة بعنايــة الله استعراضات ولا تدريبات ، ولا حراســات . كان الآمر ، برغبته الخاصة ، يدرب جنوده احيانا ، الا انه لم يستطع بعد ان يعلمهم جميعا اين هى الجهــة اليسرى ، واين اليمنى ، رغم ان الكثيرين منهــم كان يرسم علامة الصليب على نفســه قبل كل استدارة حرزا له من الوقوع فى الخطــأ . كان لدى شفابرين بعض الكتب الفرنسية . اخذت اطالعها ، وتولد فى نفسى ميل الى الادب . فكنت في الصباح اقرأ ، واتمرن

على الترجمة ، وانظم الشعر احيانا . وكنت اتناول طعام الغداء كل يوم تقريبا على مائدة الآمر ، حيث كنت اقضى فى العادة بقيـــة النهار ، وحيث يأتى فى المساء الاب غيراسيم مع زوجته اكولينا بامفيلوفنا ناقلة الانباء الاولى فى المنطقـــة كلها . وطبيعى اننى كنت التقى بشفابرين كل يوم ، الا ان المحادثة معه كانت تفقد طلاوتهـــا يوما بعد يوم . وضقت كثيرا بنكاته المستمرة حول عائلـــة الآمر ، ولا سيمـــا الملاحظات اللاذعة عن ماريا ايفانوفنا . ولم يكن فى القلعة مجتمع آخر ، غير اننى لم اكن ارغب فى مجتمع آخر .

ولم يضطرب الباشكيريون رغم التنبؤات . وساد الهدوء حول قلعتنا . الا ان السلام قد تعكر فجـــأة بمشاحنة .

ذكرت سابقا أننى اخذت انشغل فى الأدب . وكانت محاولاتى ، بالنسبة لذلك الوقت ، طيبة . وقد اثنى عليها الكسندر بتروفيتش سوماروكوف * ثناء عاطرا بعد بضعة اعوام . نجحت ذات مرة فى كتابة اغنية كنت راضيا عنهـــا . ومعروف ان الناظمين يبحثون فى بعض الاحيان عن مستمع متعاطف بحجة

---

* كاتب صحفى ومسرحى روسى عاش فى القرن الثامن عشر . **(الناشر .)**

الرغبة فى البحث عن النصـــائح . وهكذا استنسخت اغنيتى ، وحملتهـــا الى شفابرين الذى كان المقتدر الوحيد فى القلعة كلها على تقييم الشعر . بعد مقدمة قصيرة اخرجت كراستى الصغيرة من جيبى ، وقرأت له الابيات التالية :

أدمر فكرتى عن الحب
واحاول ان انسى الحلوة
وبتفادى ماشا
اريد ان انال الحرية !
الا ان العيون التى اسرتنى

تتراءى لى على الدوام ؛
عصفت بروحى
وحطمت هدوئى .

اشفقى ، يا ماشا ، على روحى
وقد عرفت آلامى
وترين ضيقى
واسرك لى .

ــ ما رأيك فى هذا ؟

سألت شفابرين ذلك متوقعا ثناء استحقـــه بالتأكيد . الا ان شفابرين السمح فى العـــادة اعلن لأسفى الشديد بلهجة قاطعة ان اغنيتى ركيكة . سألته كاتما انزعاجى :

ولم ذاك ؟

اجاب :

ــ لأن هذه الاشعار جديرة بان ينظمها معلمى فاسيلى كيريلوفيتش تريدياكوفسكى * ، وهى تذكرنى كثيرا بمثانيه الغرامية .

وهنا أخذ منى الكراسة ، وأخذ يحلل بلا رحمة كل بيت ، وكل كلمة ساخرا منى ألذع سخرية . لم اتحمل فأنتزعت كراستى من يديــه ، وقلت اننى لــن أريه بعد اليوم شيئا من اشعارى . وضحك شفابرين من هذا الوعيد ايضا . وقال : « سنرى هل ستفــى بكلمتك . ان حاجة الشعراء الى مستمع ضروريـــة كحاجة ايفان كوزميتش الى قارورة من الفودكا قبل الغداء . ومن ماشا هذه التى تعلن لها هواك المشبوب ، وتعاستك فى الحب ؟ ألعلها ماريا ايفانوفنا ؟ » .

اجبته متجهما :

ــ لا يعنيك من تكون ماشا هذه . أنا لا اطلب رأيك ، ولا تخميناتك .

فأستمر شفابرين يقــول مثيرا انزعاجـــى أكثر فأكثر :

---

* شاعر ومترجم روسى عاش فى القرن الثامن عشر . كانت قصائده كثيرا ما تثير سخرية معاصريه . **(الناشر .)**

ـ أها ! شاعر مغرور ، وعاشق متواضـــع .
ولكن نصيحة صديق : اذا اردت نجاحا فأنا انصحك بان تتوسل اليها بغير الاغانى .

ـ ماذا يعنى هذا ، يا سيد ؟ أرجو توضيحا .

ـ بكل سرور . هذا يعنى اذا كنت راغبا فى ان تأتيك ماشا ميرونوفا عند هبوط الظلام ، فأهدهـــا زوجا من الاقراط بدلا من الاشعار الرقيقة .

فار دمى . فسألته كاظما غيظى بصعوبة :

ـ ولماذا ترى فيها هذا الرأى ؟

اجاب بسخرية سامة :

ـ لأننى اعرف بالتجربة خلقها وعادتها .

صرخت به كالمجنون :

ـ انت تكذب ، ايها الوقح . انت تكذب بأشد الاكاذيب صلافة .

وتغيرت ملامح وجه شفابرين . قال وهو يضغط على يدى :

ـ لن يمر ذلك بدون شيء . أنـــا ادعـــوك للمبارزة .

ـ فى اى وقت تشاء !

اجبت بذاك مسرورا . كنت فى تلك اللحظـــة مستعدا لأن امزقه .

توجهت فى الحال الى ايفـــان ايغناتيفيتش ، فوجدته والابرة فى يديه . كان ، بتكليف من زوجـــة

الآمر ، ينظم الفطر فى خيط ليجفف ويخزن للشتاء . قال حين رآنى : « بيتر اندرييفيتش ! يا مرحبا ! كيف بعثك الله الينا ؟ فى أى أمر ، اذا سمحت وقلت ؟ » . شرحت له بكلمات موجزة اننى تخاصمت مع الكسى ايفانوفيتش ، وأنا ارجوه ، اى ارجو ايفان ايغناتيفيتش ، ان يكون شاهدى . اصغى ايفان ايغناتيفيتش الى بانتباه ، مبحلقا فى بعينه الوحيدة . وقال لى : « انت تقول انك تريد ان تطعن الكسى ايفانوفيتش ، وتريد ان اكون شاهدا على ذلك ؟ هكذا ؟ أود ان اسأل » .

ـ بالضبط .

ـ ارجوك ، يا بيتر اندرييفيتش ! اية نية نويت ! تشاتمت مع الكسى ايفانوفيتش ؟ ليست مصيبة كبيرة ! الشتائم لا تقتل احدا . اذا كان قد شتمك فاشتمه . واذا كان قد صفعك فأصفعه على اذنه ، مرتين وثلاثا . وتفرقا . وسنصالحكما فيما بعد . فهل لى ان اسأل ما وجه الخير فى ان يقتل الانسان قريبه ؟ قد يكون من الخير ان تقتل الكسى ايفانوفيتش ، سامحه الله ، فانا لا اميل اليه . ولكن ماذا لو قتلك ؟ اى شىء سيكون ذلك ؟ من سيكون الأحمق المغرر به ؟ قل لى بربك .

ولـــم يزحزحنى نقاش هذا الضابط المتبصر . وبقيت ثابتا على ما نويـــت عليه . قال ايفـــان ايغناتيفيتش : «كما تريد . افعل ما تراه مناسبا . ولكن لماذا اكون شاهدا هنا ؟ بأية مناسبة ؟ هـــل لى ان اسأل ما وجه العجب فى ان يتقاتل الناس ؟ لقد تقاتلت مع السويديين والاتراك ، والحمد لله ، ورأيت كل شىء» .

وأخذت بطريقة ما أوضح له مهمة الشاهد ، الا ان ايفان ايغناتيفيتش لم يستطع ان يفهمنى . قال : «كما تريد . اذا كان على ان اتدخل فى هذا الأمـــر فاننى لا محالة ذاهب الى ايفـــان كوزميتش لأخبره حسب ما يقتضى الواجب العسكرى بأن فى قلعتنا تحاك جناية مخالفة لمصلحة الدولة ، فلعل السيد الآمـــر سينوى اتخاذ الاجراءات اللازمة . . .»

فزعت ، وأخذت ارجو ايفان ايغناتيفيتش الا يبلغ الآمر شيئا ، واقنعته بعد جهد جهيد ، فاعطانى عهدا ، وقررت تركه وسبيله .

قضيت المساء ، على عادتى ، فى بيت الآمر . بذلت جهدى لأبدو مرحا خلى البال ، لكيلا اثير ادنى شك ، واتحاشى الأسئلة المتعبة ، ولكننى اعترف بانى لم اكن املك رباطة الجاش التى كان يفخر بها معظم اولئك الذين يجدون انفسهم فى موضع مثل موضعى ،

عمدت فى ذلك المساء الى اظهار الرقة والعذوبة . وقد اعجبتنى ماريا ايفانوفنا اكثر من المعتاد . فان التفكير باننى ربما اراها لآخر مرة جعلها تبدو لعينى فى غلالة من الجاذبية . وجاء شفابرين ايضا . انتحيت بــه ناحية ، وابلغته بحديثى مع ايفان ايغناتيفيتش . فقال لى بجفاف : «لا حاجة لنا الى شهود . سندبر امرنا بدونهم» . واتفقنا على ان نتبارز وراء اكداس الدريس القريبة من القلعة ، وان نكون هنـــاك فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى . كنا نتحدث بمودة على ما يبدو ، حتى ان ايفان ايغناتيفيتش اطلق لسانه فى الحديث فرحا ، وقال لى فى هيئة راضية : «نعم ما فعلتما . فان مصالحة رديئة خير من مشاحنة حسنة . ولتكن هذه المصالحة غير نزيهة ولكنهـــا سليمة» .

قالت زوجة الآمر التى كانت تستخير الورق فى ركن من الغرفة :

ـ ماذا قلت ، يا ايفان ايغناتيفيتش . انا لم أسمع جيدا .

لاحظ ايفان ايغناتيفيتش علائم الضيق على ، وتذكر عهده لى ، فأرتبك ، ولم يدر بماذا يجيب . فخف شفابرين لنجدته قائلا :

ـ ايفان ايغناتيفيتش يبارك مصالحتنا .

ـ ومع من تشاحنت ، يا بنى ؟

ـ تبادلنا كلمات خشنة انا وبيتر اندريفيتش .

ـ وعلى اى شيء ؟

ـ على تفاهة فارغة ، على اغنية ، يافاسيليسا يغوروفنا .

ـ وجدا ما يتشاحنان عليه ! على اغنيـــة ! ولكن كيف حدث ذلك ؟

ـ كان الأمر على النحو التالى : قبل مدة قصيرة نظم بيتر اندريفيتش اغنية ، واليوم غناهــــا لى ، فوردت على لسانى اغنيتى المفضلة :

يا ابنة الآمر
لا تتنزهى فى منتصف الليل ...

فحصل سوء تفاهم . وغضب بيتر اندرييفيتش ، ولكنه ادرك فيما بعد ان لكل امرئ الحق فى ان يغنى اغنيته وبذلك انفض الأمر .

كادت وقاحة شفابرين تخرجنى عن اطوارى ، الا ان احدا سواى لم يفهم غمزاته الفظة ، وعلى اقل تقدير لم يولها احد اهتماما . وتحول الحديث من الاغنيات الى ناظمى الاشعار ، فلاحظ الآمر انهــــم جميعا اناس متحللون ، وسكيرون مدمنون ، ونصحنى بود ان اترك نظم الاشعار ، لأنه امر يتعارض مــع الخدمة العسكرية ، ولا يؤدى الى خير .

لم احتمل وجود شفابرين . فودعت الآمر وعائلته بعد وقت قصير . وحينما وصلت الى البيت عاينت سيفى ، وجربت نهايته ، وأويت الى فراشي ، بعد ان امرت سافيليتش بان يوقظنى فى الساعة السابعة .

فى الوقت المحدد فى اليوم التالى كنت واقفا وراء اكداس الدريس انتظر خصمى . وسرعان ما جاء هو ايضا . وقال لى : «ينبغى ان نسرع ، فقد يجدوننا» . خلعنا سترتينا العسكريتين ، وبقينا فى صدارينا ، وانتضينا سيفينا . وفى تلك اللحظة ظهر ايفان ايغناتيفيتش فجأة من وراء كدس ومعه خمسة من ذوى العاهات . وطلب ان نذهب الى الآمر . اطعناه منزعجين ، واحاط الجنود بنا ، وسرنا الى القلعة فى أثر ايفان ايغناتيفيتش ، الذى قادنا بهيئة منتصرة ، ماشيا بمهابة مذهلة .

دخلنا بيت الآمر . فتح ايفان ايغناتيفيتش الباب هاتفا بضخامة : «جئت بهما !» استقبلتنا فاسيليسا يغوروفنا قائلة : «آه يا رب ، ما يعنى هذا ؟ كيف ؟ وكيت ؟ فى قلعتنا محاولة قتل ! يا ايفان كوزميتش ، اعتقلهما حالا ! بيتر اندريفيتش ! الكسى ايفانوفيتش اخلعا سيفيكما ، هاتياهما ، هاتياهما : ياbالاشكا ، خذى هذين السيفين الى

المستودع . يا بيتر اندريفيتش ! لم اتوقع ذلك منك . الا تستحى ؟ قد يأتى ذلك من الكسى ايفانوفيتش الذى اخرج من الحرس بسبب قتله انسانا ، وهو لا يؤمن بالله . اما انت ؟ كيف تتصرف هذا التصرف ؟» .

وافق ايفان كوزميتش زوجته تمام الموافقة وقال : «ان فاسيليسا يغوروفنا على حق . المبارزات ممنوعة رسميا فى قانون الجيش» . وخلال ذلك اخذت بالاشكا سيفينا منا ، وحملتهما الى المستودع . ولم اتمالك نفسى فضحكت . وبقى شفابرين محافظا على رزانته . قال لزوجة الآمر : «مع كل احترامى لك لا يسعنى الا ان اقول ان من العبث ان تقلقى نفسك فى محاكمتنا . اتركى ذلك لايفان كوزميتش ، فذلك هو شأنه» . وقالت زوجة الآمر : «آه ، يا بنى ! أليس الزوج والزوجة روحا واحدة وجسما واحدا ؟ يا ايفان كوزميتش ! ماذا تنتظر ؟ اسجنهما فورا فى مكانين مختلفين ، على الخبز والماء ، حتى يتخليا عن حماقتهما . وليفرض عليهما الاب غيراسيم العقاب لكى يقدما صلاة الغفران للرب ويعترفا باخطائهما امام الناس» .

لم يعرف ايفان كوزميتش بماذا يحكم . كانت ماريا ايفانوفنا شديدة الشحوب تماما . ثم هدأت

العاصفة شيئا فشيئا ؛ وسكنت زوجة الآمر ، وحملتنا على ان يقبل احدنا الآخر . ردت بالاشكا الينا سيفينا . وخرجنا من بيت الآمر متصالحين في الظاهر . رافقنا ايفان ايغناتيفيتش . قلت له غاضبا : «الم تستح من الوشاية بنا الى الآمر بعد ان قطعت لي عهدا بالا تفعل ذلك ؟» قال : «والله العظيم لم اقل ذلك لايفان كوزميتش . ولكن فاسليسا يغوروفنا هي التي استخرجت كل شيء مني . وهي التي امرت بكل شيء دون علم الآمر . على العموم نحمد الله على ان كل شيء قد انتهى هذه النهاية» . وبهذه الكلمة انعطف الى بيته ، وبقيت وشفابرين وحدنا . قلت له : «لا يمكن ان تنتهي قضيتنا بهذا» . اجاب شفابرين : «بالطبع ، ستدفع بدمك جزاء كلامك السليط عليّ ؛ ولكنهم سيظلون يراقبوننا . يجب ان نتظاهر بالمصالحة بضعة ايام . الى اللقاء !» .وافترقنا وكأن شيئا لم يحدث .

عندما عدت الى بيت الآمر ، جلست ، على عادتي ، قرب ماريا ايفانوفنا . كان ايفان كوزميتش متغيبا عن البيت . وكانت فاسيليسا يغوروفنا مشغولة بشؤون المنزل . اخذنا نتحدث بصوت خفيض . عاتبتني ماريا ايفانوفنا برقة على الانزعاج الذي سببته للجميع بتخاصمي مع شفابرين . قالت :

«تجمدت خوفا حين قالوا لنا انكما تنويان المبارزة بالسيف . ما اغرب الرجال ! انهـــم مستعدون ، بسبب كلمة سينسونها بعـــد اسبوع حتمـا ، ان يتقاتلوا ، ويضحوا ليس بحياتهم فقط ، بل وبراحة اولئك الذين . . . ولكنى واثقة من انك لم تكن البادى فى الخصام . المذنب هو الكسى ايفانوفيتش حتما .

ـ ولماذا تظنين ذلك ، يا ماريا ايفانوفنا ؟

ـ هكذا . . . انه شديد التهكم ! انا لا احب الكسى ايفانوفيتش . انفر منه كثيرا . ولكن الغريب اننى لا اريد ابدا ان اكون دون اعجابه . ان ذلـك يثير قلقى وفزعى .

ـ وماذا تظنين ، يا ماريا ايفانوفنا ؟ هل هـو معجب بك ام لا ؟

ارتبكت ماريا ايفانوفنا ، واحمرت وقالت :

ـ يبدو لى . . اتخيل انه معجب بى .

ـ ولماذا يخيل لك ذلك ؟

ـ لأنه خطبنى .

ـ خطبك ! هل فعل ذلك ؟ ومتى ؟

ـ فى العام الماضى . قبل شهرين من قدومك .

ـ ولم توافقى ؟

ـ كما ترى . بالطبع ان الكسى ايفانوفيتش رجل ذكى ، ومن عائلة طيبة ، ويملك ثروة ؛ ولكنى كلما فكرت بأنه سيحتم على ان اقبله امام الناس عند

الزواج فى الكنيسة اقول لنفسى : لن يكون ذلك ! مهما يكن من شىء !

فتحت كلمات ماريا ايفانوفنا عينى ، واوضحت لى الكثير . وفهمت لماذا كان شفابرين يلاحقها على الدوام بذلك الكلام السليط . والارجح انه لاحظ ميل احدنا الى الآخر ، وسعى الى تنفير احدنا من الآخر . وبدت لى الكلمات التى سببت خصامنا اكثر بذاءة ، حين رأيت فيها كذبا متعمدا بدلا من السخرية الفظة الوقحة . وقويت رغبتى فى معاقبة هذا الوقح البذئ اللسان ، فأخذت انتظر الفرصة المواتية بنفاد صبر .

ولم يطل انتظارى . فى اليوم التالى ، بينما كنت انظم قصيدة حزينة ، واقضم القلم فى انتظار الوزن . دق شفابرين نافذة حجرتى . تركت القلم ، وتناولت السيف ، وخرجت اليه . قال شفابرين لى : «ولم التأجيل ؟ لا احد يراقبنا . لنخرج الى النهر . ولن يراقبنا احد هناك» . سرنا صامتين . وهبطنا فى درب شديد الانحدار ، ووقفنا عند النهر تماما ، وانتضينا سيفينا . كان شفابرين احذق منى ، الا اننى اقوى منه واكثر جرأة ، وقد استفدت من دروس قليلة فى المبارزة اعطانيها المسيو دوبريه الذى كان جنديا فى يوم من الايام . ولم يتوقع شفابرين ان يجد فى شخصى خصما خطيرا جدا . امضينا وقتا طويلا دون

ان يستطيع احدنا ان ينال الآخر بأذى ، واخيرا وقد لاحظت ان شفابرين أخذ يضعف ، أخذت اهاجمه بقوة ، وطاردته الى النهر تقريبا . وفجأة سمعت اسمى بصوت عال . ادرت بصرى ، ورأيت سافيليتش راكضا نحوى على الدرب المنحدر . . . وفى تلك اللحظة احسست بوخزة قوية فى الصدر اسفل كتفى الايمن ، وسقطت مغشيا عليه .

الفصل الخامس

حب

ايتها الفتاة الجميلة !
لا تتزوجى فى وقت مبكر ؛
استشيرى ، يا فتاة ، اباك وأمك ،
اباك وأمك ، والاسرة والعشيرة ؛
اجمعى ، يا فتاة ، العقل والحجا ،
العقل والحجا والمهر .

اغنية شعبية

أنت تنسيننى اذا وجدت افضل منى ،
وتذكريننى اذا وجدت اسوأ منى .

اغنية شعبية

بعد ان افقت على نفسى بقيت وقتا طويلا غير قادر على الاستذكار ، وغير فاهم ما حصل لى . وجدت

نفسى مستلقيا على السرير فى حجرة غريبة على ، شاعرا بوهن شديد . وكان سافيليتش واقفـــــا امامى و بيده شمعة . حل شخص بحذر الضمادات التى شد بها صدرى وكتفى . واخذت افكارى تصفو قليلا . تذكرت مبارزتى ، وحدست بأننى جريح . وفى تلك اللحظة صر الباب . وصـــــدر صوت هامس جعلنى ارتجف : «ماذا ؟ كيف حالته ؟» اجـــاب سافيليتش متحسراً : «ما زال فى وضعه السابق ، مازال فى غيبوبته منذ خمسة ايام» . اردت ان التفت آلا اننى لم استطع . جاهدت ونطقت : «اين انا ؟ من هنا ؟» اقتربت ماريا ايفانوفنا مـــن سريرى ، وانحنت على وقالت : «كيف تجد نفسك ؟» اجبت بصوت واهن : «حمدا لله . أهذا انت ، يا ماريا ايفانوفنا ؟ خبرينى ...» ولم استطــــع ان أستمر فى الكلام فسكت . تأوه سافيليتش ، وارتسم الفرح على وجهه . قال مكررا : «صحا ! صحا ! المجد لك ، ايها العلى ، آوه ، يابيتر اندرييفيتش يا عزيزى ، افزعتنى ! اتظنها سهلة ؟ خمسة ايام ! ..» قاطعته ماريـــــــا ايفانوفنا بقولها : «لا تتكلم معه كثيرا ، يا سافيليتش . انه ما يزال ضعيفا» . وخرجت ، واغلقت الباب بهدوء . اضطربت افكارى . اذن ، فانا فى بيت الآمر . دخلـــت ماريا ايفانوفنا على . أردت ان اسأل سافيليتش بعض

الاسئلة ، الا ان هذا العجوز هز رأسه ، وسد اذنيه . اغمضت عيني متضايقا ، وسرعان ما غمرني النوم .

وعندما صحوت ناديت سافيليتش ، وبدلا من ان أراه رأيت أمامي ماريا ايفانوفنا . حياني صوتها الملائكي . وانا لا استطيع وصف الشعور العذب الذي تملكني في تلك اللحظة . امسكت يدها ، والتصقت بها مبللا اياها بدموع الحنان . لم تنزعها ماشا عني ... وفجأة مست شفتاها خدي ، واحسست بقبلتها الحارة الغضة . وسرت النار في جسدي . قلت لها : «يا عزيزتي ماريا ايفانوفنا الطيبة . كوني زوجتي ، واقبلي ان تسعديني» . افاقت على نفسها ، وقالت ساحبة يدها من بين يدي : «اهدأ بحق الرب . انت ما تزال في خطر ، وقد ينكأ الجرح . حافظ على نفسك ، من اجلي على الاقل» . وبهذه الكلمة خرجت تاركة اياي في فرح نشوان . احيتني السعادة . انها ستكون لي ! انها تحبني ! وملكت هذه الفكرة كل كياني .

ومنذ ذلك الحين رحت اتحسن بمرور الوقت . وكان حلاق الفوج يعالجني ، لان القلعة خالية من اي مطبب آخر . والحمد لله على انه لم يتحذلق في تطبيبي . وعجل شبابي والطبيعة من شفائي . وكانت عائلة الآمر كلها تعتني بي . ولم تفارقني ماريا ايفانوفنا . وطبيعي انني انتهزت أول فرصة فأكملت

مفاتحتی التی قطعت . اصغت ماریا ایفانوفنا الی بصبر اکثر . ثم اعترفت دون اية مواربة بميل قلبها الی ، وقالت ان والديها سيكونان فرحين بسعادتها واضافت : «ولكن فكر جيدا هل سيكون ثمة اعتراض من جانب والديك ؟»

وفكرت . لم اشك فی رقة أمی ، ولكننی ، وانا العارف بخلق وعقليـــــة ابی ، احسست بأن حبی لن يؤثر فيه كثيرا ، وانه سيعتبره نزوة شباب . واعترفت بذلك لماريا أيفانوفنا بصفاء قلب ، الا اننی قررت ان ارسل الی ابی رسالة منمقة ، طالبا فيها مباركـــــة الوالدين . واطلعت ماريا ايفانوفنا علی الرسالة فوجدتها مقنعة جدا ومؤثرة ، حتی لم تشك فی ان يكون التوفيق من نصيبها ، واستسلمت ماريا ايفانوفنا لمشاعر قلبها الرقيق بكل وثوق الشباب والحب .

تصالحت مع شفابرين فی الايام الاولی من شفائی . وقد قال لی ايفان كوزميتش مؤنبا آيای علی المبارزة : «آه ، يا بيتر اندرييفيتش ! ولكنك نلت عقابك بدون ذلك ، اما الكسی ايفانوفيتش فهـــو سجين فی مخزن الحبوب ، تحت الحراسة ، وسيفه محجوز بقفل عند فاسيليسا يغوروفنـــا . دعـه يتروی فی الامر ويحس بالندم» . وكنت اسعد حظا من ان اضمـــر فی قلبی شعور الضغن فأخذت اطلب الشفاعة لشفابرين مـــن

الآمر الطيب القلب ، فقرر بموافقة زوجته الافراج عنه . وجاء شفابرين الى معلنا عن عميق أسفه على ما حدث بيننا ، واعترف بأن الذنب برمته يقـــع عليه ، ورجانى ان انسى الماضى . ولما كنت غير حقـــــود بطبعى ، فقد غفرت له من كل قلبى مشاحنتنا والجرح الذى اصابنى به . وقد رأيت فى افترائـــــه أسى عزة اهينت ، وحب رفض ، وبررت بخلق سمح تصرف خصمى التعيس .

وسرعـــــان ما شفيت ، واستطعت الانتقال الى مسكنى . وانتظرت بلهفة جوابا على رسالتى المرسلة ، دون ان اجرؤ على الأمل ، ومحاولا فى الوقت ذاتـــــه خنق الهواجس الحزينة . ولم اكن قد فاتحت فاسيليسا يغوروفنا ولا زوجها بالأمر ؛ ولكن لا اظن ان طلبى سيكون مفاجأة لهما . فلم احاول انـــــا ولا ماريـــــا ايفانوفنا اخفاء مشاعرنا عنهما ، وكنا واثقين مسبقا من موافقتها .

واخيرا دخل سافيليتش علىّ ذات صباح يحمل فى يده رسالة . اختطفتها منه باضطراب . كان العنوان مكتوبـــــا بخط أبى . فهيأنى ذلك لأمر خطير ، لأن الرسائل كانت تكتبها لى أمى فى العادة ، وكان هو يذيلها ببعض السطور . قضيت وقتا طويلا لا اجرؤ على فض المظروف ، معيدا قراءة العنوان المهيب : «الى ولدى

بيتر اندرييفيتش غرينيف ، ولاية اورنبورغ ، قلعة بيلوغورسك» . وحاولت ان احدس عن طريق الخط الحالة النفسية التى كتبت فيها الرسالة ، واخيرا قررت ان افض الرسالـــة ، وعرفت من السطور الاولى ان القضية كلها خابت خيبة لعينة . وكان محتوى الرسالة كالآتى :

«ولدى بيتر ! تلقيت فى الخامس عشر من هذا الشهر رسالتك التى تطلب فيها مباركتنا الابويـــة وموافقتنا على الزواج من ماريا أيفانوفنا ، ابنـــة ميرونـــوف . ليس فى نيتى ان امنحـــك مباركتى ولا موافقتى ، وفضلا عن ذلك أنوى ان آعاقبك على نزاوتك كما يعاقب الصبى ، رغم رتبتك كضابط ، لانك برهنت على انك غير أهل لحمل السيف الذى وهب لك للدفاع عن الوطن لا للمبارزة مع الطائشين من امثالـــك . سأكتب الى اندريه كارلوفيتش فوراً راجيا اياه ان ينقلك من قلعة بيلوغورسك ، الى مكان ابعد يفرغ الحماقة من عقلك . مرضت امك غما حين سمعـــت بمبارزتك وبجرحك ، وهى الآن طريحة الفراش . ماذا سيكون منك ؟ ادعو الله ان يهديك، رغم أننى لا اجرؤ على الأمل فى ان يشملك برحمته الواسعة .

ابوك أ . غ .»

اثارت قراءة الرسالة مشاعر مختلفة فى نفسى . فان العبارات القاسية التى اغدقها أبى جرحتنى جرحا بليغا . وبدا لى الاستخفاف الذى ذكر به ماريـــــا ايفانوفنا غير لائق البتة ، وغير عادل . وافزعتنى فكرة نقلى من قلعة بيلوغورسك ؛ ولكن اشد ما غمنى هو نبأ مرض أمى . سخطت على سافيليتش ، وأنا لا اشك فى انه هو الذى ابلغ والدى بنبأ المبارزة . ذرعت حجرتى الضيقة جيئة وذهابا ، وتوقفت امامه ، وقلت له بعد ان القيت عليه نظرة متوعدة : «الظاهر انك لم تكتف بأن اجرح بسببك ، وان اظل شهرا كاملا وانا على شفا القبر ، فتريد ان تقتل امى ايضا» . وكأنما نزلت بسافيليتش صاعقة قال وهو يوشك ان يجهش : «يا سيدى ، ما هذا الكلام ؟ انا السبب فى جرحك ! الله يعلم انى ركضت لاحميك بصدرى من سيف الكسى ايفانوفيتش ! الا ان الشيخوخة اللعينة منعتنى . ثم ماذا فعلت انا لامك ؟» اجبت : «ماذا فعلت ؟ من الذى طلب اليك ان تكتب على الوشايات ؟ هل وضعوك جاسوسا على ؟» اجاب سافيليتش والدموع فى عينيه : «أنا ؟ كتبت عليك وشايات ؟ يا رب السماء ! اقرأ ما يكتبه السيد الى ، وسنرى هل وشيــــت بك» . واخرج رسالة من جيبه ، وقرأت ما يلى :

«من العار عليك ، ايها الكلب الهرم ، ان تتغافل عن أوامــرى المشــــددة ، ولا تبلغنى عن ابنى بيتر

اندرييفيتش ، حتى يضطر الغربـــاء الى اخبارى عن حماقاته . أبهذه الصورة تنفذ واجبك وتصدع بأمر سيدك ؟ سأرسلك ، ايها الكلب الهرم ، لترعى الخنازير عقابا على اخفائك الحقيقة وتغاضيك عن الشاب . آمرك عند تسلمك هذه الرسالة ان تكتب لى فورا عن صحته ، وعما نمى اليّ من تماثله للشفاء ، وعن موضع جرحه بالضبط ، وهل عولج معالجة طيبة » .

كان واضحا ان سافيليتش غير ملـــوم ازائى ، واننى قد اخطأت فى اهانته بتعنيفى وشكى . طلبت منه المعذرة ، الا ان العجوز لم يجد فيها سلوانا . فقد كان يكرر : « الى هنا وصلت بى الحال ؟ أكافأ بذلك من اسيادى ؟ انا الكلب الهرم ، وراعى الخنازير ، وانا السبب فى جرحـــك ايضـــا ؟ لا ، يا عزيزى بيتر اندرييفيتش ! لست انا بل ذاك المسيو الملعون هو الملوم فى كل ذلك . هو الذى علمك الطعن باسيـــاخ حديدة والتوثب ، وكأنك بالطعن والتوثب تستطيـــع ان تحمى نفسك من انسان مؤذ ! ما كانت الحاجـــة تقتضى استخدام مسيـــو ، وانفـــاق الفلوس بلا جدوى ! » .

ولكن من جشم نفسه عناء ابلاغ ابى عن سلوكى ؟ الجنرال ؟ الا أنه لم يكن يهتم كثيراً بى على ما يبدو ، ولم يجد ايفان كوزميتش ضرورة فى تبليغه عـــن

المبارزة . وغرقت فى تخميناتى . ووقعت شبهاتى على شفابرين . فهو الوحيد الذى كانت له مصلحة فى تبليغ قد يؤدى الى ابعادى عن القلعة ، وفصلى عن عائلـــة الآمر . ذهبت اخبر ماريا ايفانوفنا بكل شيء . لقيتها عند مدخل البيت . فقالت حين رأتنى : «ماذا حصل لك ؟ ما اشد شحوبك» ! أجبت : «انتهى كل شيء !» وقدمت لها رسالة ابى . وشحبت هى ايضا . وحين اتمت قراءة الرسالة اعادتها الى بيد مرتجفة ، وقالت بصوت مرتعش : «يبدو ان القدر ليس بجانبى . . . فان والديك لا يريدانني فى عائلتهما . كل شيء بارادة الله ! الله يعلم احسن منا بما هو خير لنا . ولا حيلة فى ذلك ، يا بيتر اندرييفيتش ، فكن انت سعيدا على الاقل ...» . صحت وامسكت يدها : «لن يحدث هذا ! انت تحبيننى ، وأنا مستعد لكل شيء . لنذهب ونلق بانفسنا على اقدام ابويك . فانهما شخصـــان بسيطان ، وليسا من المفترين القساة ... سيباركاننا ، وسنتزوج ... وانا واثق من اننا بعد مرور الزمن سنقنع أبى ، وستكـــون امى بجانبى . وسيسامحنى الوالد ... اجابت ماشا : «لا ، يا بيتر اندرييفيتش ، انا لا اتزوجك بدون مباركة والديك ، لن تسعد بدون مباركتهما . لنخضع لارادة الرب ـ وليباركك الله فى زواجك ممن كتب لك الزواج منها ،وفى حبك لفتـــاة

اخرى . فانا اصلى لكما ...» وهنا انخرطت فى البكاء ، وانصرفت عنى . اردت ان ادخل الغرفة عليها ، ولكننى احسست باننى غير قادر على السيطرة على نفسى ، فعدت الى البيت .

جلست غارقا فى تفكير عميق ، واذا بسافيليتش يقطع علىّ تأملاتى . قال وهو يقدم لى ورقة مكتوبة : «هذه ، يا سيد ، وانظر هل انا الواشى بسيدى ، والساعى الى الشقاق بين الابن وابيه» . تناولت الورقة من يده . فاذا هى جواب سافيليتش على الرسالة التى تسلمها . وهذه هى كلمة بكلمة :

«جناب السيد اندريه بتروفيتش ، أبانا الرحيم !

تلقيت رسالتكم الكريمة التى ابديتم فيها سخطكم علىّ ، انا عبدكم ، لأن من العار الا أنفذ اوامر سادتى . لست بالكلب الهرم ، بل خادمكم الوفى اطيع اوامر سادتى ، وقد خدمتكم بحماس دائما وقضيت حياتى معكم حتى ابيض شعرى . لم اكتب لكم عن جرح بيتر اندرييفيتش خشية ان اخيفكم دون فائدة ، وقد سمعت ان السيدة أمنا افدوتيا فاسيليفنا قد وقعت مريضة من شدة الفزع . سأصلى للرب ليمنحها الصحة. جرح بيتر اندرييفيتش فى الصدر تحت عظم الكتف الايمن مباشرة ، وعمق جرحه حوالى سلامية ونصف .

كان يرقد فى بيت الآمر ، وقد نقلنـــاه اليه من شاطئ النهر ، وعالجه حلاق القلعة ستيبان بارامونوف ، وبيتر اندرييفيتش معافى الآن ، والحمد لله ، وليس عندى ما اكتبه عنه غير الاخبار الحسنة . سمعت ان الضباط راضون عنه ، وهو عند فاسيليسا يغوروفنا بمثابة ابنها . اما ان تحصل له تلك الحادثـــة غير المتوقعة فلكل شاب هفوة ، فان الحصان يكبو وهو ذو اربع قوائم . أما ما كتبتم من انكم سترسلوننى ارعى الخنازير ، فان ذلك رهن بارادتكم كأسياد . وانحنى لكم عبدا .

عبدكم الأمين
ارخيب سافيليف» .

ما كان بوسعى الا ان ابتسم عدة مرات وأنا اقرأ رسالة العجوز الطيب . ولم اكن فى حالة تمكننى مـــن الرد على ابى ، أما لتطمين أمى فقد بدت لى رسالـــة سافيليتش صالحة لذلك .

ومنذ ذلـــك الحين تغير وضعى . كفت ماريـــا ايفانوفنا عن التكلم معى تقريبا ، وراحت تتفـــادانى بمختلف الاعذار . وأصبح بيت الآمر غريبا علىّ . وشيئا فشيئا تعلمت ملازمة مسكنى وحيدا . وقد لامتنى فاسيليسا يغوروفنا على ذلك فى بادئ الأمر ، الا أنها

تركتني وشأني بعد ان رأت اصراري . وصرت لا أرى ايفان كوزميتش الا حين تقتضي الخدمة العسكريـــة . ونادرا ما كنت التقي بشفابرين ، وبدون ما رغبة ، لا سيما وقد لاحظت أنه يضمر لي كرها ، وذلك ما اكد لي شكوكي . واصبحت حياتي لا تطاق . وانغمرت في افكار سوداوية كانت تغذيها الوحدة والفراغ . وكان حبي يتأجج في العزلة ، ويصبح رهقا عليّ اكثر فأكثر . وفقدت الرغبة في القراءة والأدب . وخارت عزيمتي . وخشيت ان افقد عقلي ، او انغمس في الفجور . الا ان احداثا غير متوقعة تركت اثرها على مجمل حياتي ، بعثت في نفسي هزة شديدة نافعة .

الفصل السادس

جماعة بوغاتشوف

اسمعوا ، يا اولاد
الى ما سنرويه ، نحن الشيوخ .

اغنية

قبل أن ابدأ بروايـــة الاحداث الغريبـــة التي شهدتها ، ينبغي ان اقول بعض الكلمات عن وضع ولاية اورنبورغ في اواخر عام ١٧٧٣ .

كان يسكن هذه الولاية الواسعة الغنية عدد كبير من الشعوب نصف المتوحشة التى لم تعترف بسيادة الحكام الروس الا منذ عهد قريب . وكانت قلاقلها المتكررة ، وعدم تعودها على القوانين والحياة المدنية ، واستخفافها وقساوتها تتطلب من جانب الحكومة رقابة دائبة لالزامها على الطاعة . اقيمت القلاع فى الاماكن التى أقرت بأنها صالحة ، واسكنت فى الغالب بالقوزاق القاطنين على ضفاف نهر يايك منذ زمن طويل . الا ان القوزاق من منطقة نهر يايك الذين عينوا للمحافظة على الهدوء والأمن فى هذه الناحية كانوا فى بعض الاوقات رعايا مضطربين خطرين بالنسبة للحكومة . وفى عام ١٧٧٢ حصل اضطراب فى بلدتهم الرئيسية . كان مبعثه التدابير المشددة التى اتخذها الجنرال تراوبنبرغ لاخضاع القوات للطاعة الواجبة . فأدى ذلك الى قتل تراوبنبرغ بشكل وحشى ، وادخال تبديلات تعسفية فى جهاز الادارة ، وفى آخر الأمر اخمد العصيان بالرصاص والعقوبات الصارمة .

وقد حدث ذلك قبل وصولى الى قلعة بيلوغورسك بأمد قصير . كان كل شىء هادئا او يبدو كذلك . ان الرؤساء صدقوا فى كثير من الخفة بالندم الزائف الذى اظهره العصاة الماكرون الذين كانوا يضمرون الحقد ، ويتحينون الفرصة المؤاتية لاستئناف الاخلال بالنظام .

ولأعد الى قصتى .

فى احدى الامسيات (كان ذلك فى بداية تشرين الاول عام ١٧٧٣) بينما كنت جالسا فى مسكنى وحيدا استمع لعويل ريــح الخريف ، وانظر من النافذة الى السحب المتراكضة حاجبــة القمر جاؤوا يستدعوننى باسم الآمر . فتوجهت اليه فى الحال . وقد وجدت عند الآمر شفابرين وايفــان ايغناتيفيتش وضابط الصف القوزاقى . ولم تكن فى الحجرة فاسيليسا يغوروفنا ولا ماريا ايفانوفنــا . رد الآمر على تحيتى بادى القلق . واغلق الباب ، وطلب الى الجميع ان يجلسوا ما عدا ضابط الصف الذى كان واقفا عند الباب . وأخرج الآمر ورقة من جيبه ، وقال لنا : «يا حضرات الضبــاط ، هناك خبر هام ! اسمعوا ماذا يكتب الجنرال» . ولبس نظارته ، وقرأ ما يلى :

«الى السيد آمر قلعة بيلوغورسكيا
النقيب ميرونوف

سرى

احيطكم علما بأن القازاقى من منطقة نهر الدون والخارج على الطائفة اميليان بوغاتشوف الهارب مــن السجن قد جمع شرذمة من الاشرار مبديا وقاحة شنيعة

بانتحاله اسم الامبراطور الراحل بطرس الثالث ، وأثار اضطرابات في قرى منطقة يايك ، واستولى وعاث بعدة قلاع ، مقترفا فى كل مكان اعمال النهب والقتل . وبناء على ذلك اتخذوا ، يا حضرة النقيب ، حال تسلمكم هذه الرسالة التدابير اللازمـــة لدحر هذا الشرير والدعى المذكور اعلاه ، والقضاء عليه كليا ، ان امكن ، اذا تطاول على القلعة التى عهد بها الى عنايتكم » .

قال الآمر وهو يخلع النظارة ، ويطوى الورقة :

ـ اتخذوا التدابير اللازمة ! ما اسهل ان يقال ذلك . ان هذا الجانى قوى ، على ما يبدو ، وليس لدينا غير مائة وثلاثين شخصا ، غير حاسبين القوزاق الذين لا يؤمل منهم كثيرا ، ولا تحسب ذلك مساسا بك ، يا ماكسيميتش . (وابتسم ضابط الصف) . ومع ذلك فلا مفر من ذلك يا حضرات الضباط ! كونوا مستعدين ، واقيموا الدوريات ، والحراسة الليلية ، وفى حالـــة الهجوم اغلقوا البوابة ، واخرجوا الجنود . وانت يـا ماكسيميتش راقب اصحابك القوزاق بشدة . ويجب ان يعاين المدفع ، وينظف جيدا ، والأهم ان تكتموا كل ذلك منعا من ان يعرف احد فى القلعة قبل الاوان .

وأذن لنا ايفان كوزميتش بالانصراف بعد فراغه من هذه الاوامر . خرجت مع شفابرين مناقشـــا ما سمعناه . سألته : « بم سينتهى ذلك حسب رأيك ؟ »

اجاب : «الله يعلم . سنرى ، أما الآن فلا أرى شيئا مهما . اذا ...» واخذ يفكر ، وراح فى وجومه يصفر لحنا فرنسيا .

ورغم كل تحوطاتنا انتشر نبا ظهور بوغاتشوف فى القلعة كلها . ما كان ايفان كوزميتش ليبوح بسر من اسرار الخدمة ابدا ، رغم احترامه الشديد لزوجته . وهكذا حين تلقى رسالة الجنرال تخلص من فاسيليسا يغوروفنا بطريقة حاذقة زاعما لها ان الأب غيراسيم تلقى من اورنبورغ اخبارا عجيبة يخفيها بشدة . فرغبت فاسيليسا يغوروفنا فى ان تزور زوجة القس حالا واصطحبت ماشا حسب نصيحة ايفان كوزميتش دفعا للسأم من ان تكون وحدها .

وعندما صار ايفان كوزميتش لوحده تماما أرسل فى طلبنا ، واغلق على بالاشكا حجرة المؤونة مخافة ان تسمعنا .

عادت فاسيليسا يغوروفنا الى البيت دون ان تستطيع استخراج شيء من زوجة القس ، وعرفت ان فى غيابها عقد اجتماع عند ايفان كوزميتش ، وان بالاشكا كانت محجوزة . وحدست ان زوجها قد خدعها ، فعقدت له استجوابا . الا ان ايفان كوزميتش كان متهيئا للهجوم . فلم يضطرب قط وراح يرد بنشاط على عقيلته الفضولية : «انت ترين ، يا عزيزتى ، ان

نساءنا عن لهن ان يستخدمن القش فى تشغيل المواقد ، ولما كان ذلك قد يؤدى الى بلية ، فقد اصدرت امرا مشددا بأن تتحول النساء الى استخدام الاغصان المقطوعة بدلا من القش» . فسألت زوجة الآمر : «ولماذا قفلت الباب على بالاشكا ؟ ولماذا حبست الفتاة المسكينة فى حجرة المؤونة الى ان عدنا ؟» ولم يكن ايفان كوزميتش متهيئا لهذا السؤال ، فتلعثم ، وتمتم بشيء سخيف جدا . وفطنت فاسيليسا يغوروفنا الى خبث زوجها ، الا أنها ، وهى العارفة بأنها لن تستطيع ان تستخرج منه شيئا ، كفت عن اسئلتها ، وحولت الموضوع الى الخيار المملح الذى اعدته اكولينا بامفيلوفنا بطريقة خاصة مختلفة تماما . ظلت فاسيليسا يغوروفنا طوال الليل غير قادرة ان تنام ، ولم تستطع ان تحزر ما كان فى رأس زوجها مما لا يجوز ان تعرفه .

ولدى عودتها من القداس فى اليوم التالى رأت ايفان ايغناتيفيتش يخرج من فوهة المدفع خرقا وحجارة ونجارة ، وكعابا ، وانواعا عديدة من الاوساخ التى حشرها الاطفال فيه . ففكرت زوجة الآمر مع نفسها : «ماذا يمكن ان تعنى هذه الاستعدادات الحربية ؟ ألعلهم يتوقعون هجوما من القرغيزيين ؟ ولكن ما الذى حمل ايفان كوزميتش على اخفاء هذه السفاسف عنى ؟»

ونادت ايفان ايغناتيفيتش بتصميم قوى على ان تنتزع منه السر الذى أثار فضولها النسوى .

أبدت فاسيليسا يغوروفنا له بعض الملاحظات الخاصة بشؤون البيت ، مثلما يبدأ القاضى تحقيقه باسئلة جانبية ليصرف انتباه المستجوب فى البداية . ثم لزمت الصمت بضع دقائق ، وارسلت حسرة عميقة ، وقالت وهى تهز رأسها : «يا الهى ! انظر أية انباء هذه ! ماذا سيحصل من ذلك ؟» .

اجاب ايفان ايغناتيفيتش :

– لا يحدث شىء ، يا سيدة ، ولكن الله رحيم . عندنا الكفاية من الجنود ، والكثير من البارود ، وقد نظفت المدفع . ونأمل ان نصد بوغاتشوف . من كان الله فى عونه فلا غالب له !

سألت زوجة الآمر :

– ومن بوغاتشوف هذا ؟

وهنا فطن ايفان الايغناتيفيتش الى انه انطلق فى كلامه ، وصمت . ولكن الاوان قد فات . اجبرته فاسيليسا يغوروفنا على ان يعترف بكل شىء بعد ان تعهدت له بالا تبوح بذلك لأحد .

وفت فاسيليسا يغوروفنا بوعدها فلم تبح بذلك الا لزوجة القس وحدها ، والسبب فى ذلك ان بقرتها تعودت أن تسرح فى السهب ، وقد يختطفها الاشرار .

بعد وقت قصير صار الجميع يتحدثـــون عن بوغاتشوف . وتعددت الروايات . وبعث الآمر بضابط الصف ليستطلع كل شىء وبدقـــة فى جميع القرى والقلاع المجاورة . وعاد ضابط الصف بعد يومين ، وأعلن أنه رأى عديدا من النيران فى السهب ، على بعد ستين فرسخا من القلعة ، وسمع من الباشكيريين ان قوة لا مثيل لها تزحف ، وعلى كل حـال لم يستطـع ان يقول شيئا ملموسا لأنه خاف ان يتقدم أبعد .

ولوحظت قلاقل غير اعتياديـــة بين القوزاق فى القلعة ؛ فقد تجمهروا جماعات فى جميع الشـــوارع ، وتحادثوا فيما بينهم باصوات خافتة ، وكانوا يتفرقون حين يرون فارسا او جنديا من الحامية . وبثت العيون والارصاد بينهم . وجاء يولاى ، وهو كالميكى سابـــق أعتنق المسيحية ، الى الآمر بنبأ هام ، وهو ان اقوال ضابط الصف كانت كاذبة ، فان هذا القوزاقى الماكر اعلن لرفاقه بعد عودته ، انه زار المتمردين ، وقابل رئيسهم نفسه ، فسمح له هذا بتقبيل يده ، وتحـدث معه طويلا . فأسرع الآمر بحجز ضابط الصف ، وعين يولاى فى مكانه . وقـــد استقبـــل القوزاق هذا الخبر باستياء واضح ، وصاروا يتذمرون علنـــا ، حتى ان ايفان ايغناتيفيتش ، منفذ أوامر الآمر ، سمع باذنيه قولهم : «ستندم على ذلك ، يا فأر الحامية !» فعزم

الآمر على ان يستجوب محجوزه فى نفس اليوم ؛ الا ان ضابط الصف كان قد فر من المحجز ، بمساعدة مريديه ، على ما يبدو .

ثم ان حدثا جديدا زاد من قلق الآمر . فقد اعتقل باشكيريا ومعه منشورات مثيرة . وفكر الآمر ، فى ضوء هذا الحادث ، بان يجمع ضباطه من جديد ، ولاجل ذلك اراد ان يبعد فاسيليسا يغوروفنا مرة أخرى بعذر مقبول . ولكن لما كان ايفان كوزميتش رجلا مستقيما للغاية ، ومنصفا فلم يجد وسيلة اخرى غير الوسيلة التى استخدمها من قبل . فقال لها وهو يتنحنح : «اسمعى ، يا فاسيليسا يغوروفنا ، يقال ان الاب غيراسيم تلقى من المدينة ...» فقاطعته زوجته : «كفاك كذبا ، يا ايفان كوزميتش . انت تريد ان تعقد اجتماعا ، وتتحدثوا عن اميليان بوغاتشوف فى غيابى . ولكن ذلك لن ينطلى على !» بحلق ايفان كوزميتش عينيه ، وقال : «اذا كنت يا عزيزتى تعرفين كل شىء ، فلك ان تبقى ، سنتحدث بحضورك» . فاجابته : «ذلك هو الصواب ، يا عزيزى ، فان الخداع لا يليق بك . ارسل فى طلب الضباط» .

واجتمعنا من جديد . قرأ لنا ايفان كوزميتش بحضور زوجته نداء بوغاتشوف كتبه قوزاقى نصف أمى لا محالة . وقد اعلن قاطع الطريق فيه عن عزمه

على الزحف على قلعتنا دون ابطاء ، ودعا القوزاق والجنود الى الانضمام الى عصابته ، وحث الضباط على عدم المقاومة ، متوعدا اياهم بالقتل فى حالة الرفض . وكان النداء مكتوبا بعبارات خشنة ، ولكنها قوية ، ولا بد انه سيترك تأثيرا خطيرا على عقول بسطاء الناس .

هتفت زوجة الآمر :

ــ يا له من محتال ! ما اجسر ما يقترحه علينا ! ان نخرج لاستقباله ، ونضع راياتنا على قدميه ! يا ابن الكلب ! ولكن كيف لا يعرف اننا فى الخدمة منذ اربعين عاما ، وقد بلونا كل شىء والحمد لله ؟ احقا يوجد فى الدنيا ضباط يمكن ان يطيعوا قاطع الطريق هذا ؟

اجاب ايفان كوزميتش :

ــ لا اظن ذلك . ولكننى سمعت ان الشرير استولى على قلاع كثيرة .

وقال شفابرين :

ــ يبدو انه قوى فى واقع الحال .

قال الآمر :

ــ والآن سنعرف قوته الحقيقية . يا فاسيليسا يغوروفنا اعطينى مفتاح الشونة . وانت ، يا ايفان ايغناتيفيتش اجلب الباشكيرى ، وابلغ يولاى بان يأتى بالسياط الى هنا .

قالت زوجة الآمر وقد نهضت من مكانها :

ـ قف ، يا ايفان كوزميتش . دعنى ابعد ماشا الى مكان ما ، خارج البيت ، والا فانها ستسمع الصراخ ويصيبها الذعر . وانا ايضا ، لا أميل الى التحقيق ، والحق يقال . مع السلامة .

كان التعذيب فى الزمان القديم عميق الجذور فى عادات التحقيق القضائى ، حتى ان المرسوم المبارك الصادر بالتخلى عنه بقى زمنا طويلا غير مطبق . كانوا يظنون ان انتزاع الاعتراف من المجرم بجرمه كان ضروريا لفضحه كليا ، وهذه فكرة ليست فقط خاطئة بل وتنافى الفكر القضائى السليم منافاة تامة ، ذلك لانه اذا كان انكار المتهم لا يؤخذ دليلا على براءته ، فان اعترافه من باب اولى ، لا يمكن ان يقوم دليلا على جرمه . بل وفى بعض الاحيان كنت اسمع قضاة من الشيوخ يأسفون على التخلى عن هذه العادة الوحشية . فى زماننا لم يكن احد من القضاة ولا من المتهمين يشك فى ضرورة التعذيب . ولهذا فان أمر الآمر لم يثر دهشة احد منا ، ولم يقلقه . ذهب ايفان ايغناتيفيتش ليجلب الباشكيرى ، المحجوز فى الشونة ، ومفتاح الشونة عند زوجة الآمر . وبعد عدة دقائق جيىء بالمحجوز الى الغرفة الامامية . فطلب الآمر ان يؤتى به اليه .

تخطى الباشكيرى العتبة بصعوبة (فقد كان مصفد القدمين) ، وخلع قبعته العالية ، ووقف عند الباب . نظرت اليه وجفلت . لن انسى هذا الانسان ما حييت . كان يبـــدو فى السبعين من العمر . وكان بلا انف ولا اذنين . وقد حلق شعره ، وبرزت بعض الشعرات البيض فى موضع اللحية ، وكان قصير القامـــة ، نحيـــلا ، محدودبا ، الا ان عينيه الضيقتين ما تزالان تقدحـان نارا . قال الآمر وقد عرف من وصماته بأنه واحد من المتمردين الذين عوقبوا فى عام ١٧٤١ : «اها ! يبدو انك ، ايها الذئب العجوز ، قد وقعت فى مصائدنا مــن قبل ، ليست هذه اول مرة تتمرد فيها ، ما دامــت جمجمتك قد سويت هذه التسوية الناعمة . تقــدم ، وقل من بعث بك ؟»

صمت الباشكيرى العجوز ، ونظر الى الآمر بخواء كلى . فأستمر ايفان كوزميتش يقول : «لماذا انــت صامت ؟ ام انت لا تفهم الروسية مطلقا ؟ يا يولاى ، سله بلغتكم من ارسله الى قلعتنا ؟»

اعاد يولاى سؤال ايفان كوزميتش باللغـــة التتريـــة ، الا ان الباشكيرى نظر اليـــه نفس النظرة السابقة ، ولم يجب بكلمة واحدة .

قال الآمر :

طيب ، سأضطرك الى الكلام . يا اولاد ، اخلعوا رداءه المخطط الأبلــه ، واضربوه على ظهره . أبِنْ شطارتك معه يا يولاى !

اخذ اثنان من مشوهى الحرب يجردان الباشكيرى ، ولاح القلق على اسارير وجه البائس . نظر فى كــل الجهات ، مثل حيوان اصطاده اطفال . وحين رفع أحد المشوهين يديه ، ووضعهما قرب رقبته ، ورفع العجوز على كتفيــــه وتناول يولاى السوط ولــــوح به ، أنّ الباشكيرى بصوت واهن متوسل ، وفتح فمه وهو ينود برأسه ، واذا بقطعة لحم صغيرة تتحرك داخل الفم بدلا من اللسان .

عندما اتذكر ان ذلك حدث فى زمانى ، وأن العمر قد امتد بى الآن الى العهد السمح للامبراطور الكسندر الاول * لا يسعنى الا ان أدهش للنجاحات السريعة فى التنوير ، وانتشار اصول حب الانسان . ايها الشاب ! ان تقع مذكراتى فى يديك تذكر ان احسن التغيرات وأرسخها هى تلك التى تنتج عن تحسين الاخلاق دون اية هزات عنيفة .

---

* يصف بوشكين عهد حكم هذا الامبراطور بالسمح سخرية به . **(الناشر .)**

وصعقنا جميعا . قال الآمر : «حسنا ، يبدو اننا لن نحصل منه على فائدة . يا يولاى ، اعد الباشكيرى الى الشونة . اما نحن ، ايها السادة ، فنواصل الحديث » .

اخذنا نناقش وضعنا ، واذا بفاسيليسا يغوروفنا تدخل علينا الحجرة فجأة لاهثة الانفاس مضطربة اضطرابا بالغا .

سألها الآمر ذاهلا :

ـ ماذا حصل لك ؟

اجابت فاسيليسا يغوروفنا :

ـ بلية ، يا رب ! استولوا على قلعة نيشنى اوزرسك صباح اليوم . عاد عامل الأب غيراسيم منها الساعة . وقد شاهد كيف استولوا عليها . شنقوا الآمر وجميع الضباط . وأسروا كافة الجنود . بين لحظة واخرى سيصل الاشرار الى هنا .

صعقت بالنبأ الجديد بشدة . فقد كنت اعرف آمر قلعة نيشنى اوزرسك ، وهو شاب هادئ متواضع ، كان قد مر بنا قبل شهرين قادما من اورنبورغ مع زوجته الشابة ، ونزل عند ايفان كوزميتش . وكانت قلعة نيشنى اوزرسك تقع على بعد خمسة وعشرين فرسخا من قلعتنا . فلا بد ان يكون هجوم بوغاتشوف علينا ايضا متوقعا بين لحظة وأخرى . وتمثلت فى نفسى مصير ماريا ايفانوفنا ، فجمد قلبى .

قلت للآمر :

ـ اسمع ، يا ايفان كوزميتش ! ان واجبنـــا الدفاع عن القلعة حتى آخر نفس ، ذلك أمر لا يحتاج الى جدال . ولكن ينبغى التفكير بسلامـــة النســاء . ارسلهن الى اورنبورغ اذا كان الطريق اليها مـــا يزال مفتوحا ، او الى قلعة بعيدة اكثر امانا لا يستطيـــع الاشرار الوصول اليها .

التفت ايفان كوزميتش الى زوجته وقال لها :

ـ يا عزيزتى ، اممكن ان نرسلكما حقا الى مكان بعيد حتى نتغلب على العصاة ؟

قالت زوجة الآمر :

ـ هراء ! اين تلك القلعة التى لا يصل اليهـــا الرصاص ؟ وما الذى يجعل قلعتنا غير مأمونة ؟ هـــا نحن نقضى سنتنا الثانية والعشرين فيها والحمد لله . ورأينـــا البـــاشكيريين والقيرغيزيين ، وسنصمـــد لبوغاتشوف ، على ما اظن !

فرد ايفان كوزميتش قائلا :

ـ ابقى ، يا عزيزتى ، اذا كنت تثقين بقلعتنا . ولكن ماذا نفعل مع ماشا ؟ حسن لو نصمد أو نثبت حتى تأتى النجدة ، ولكن مـــاذا سيكون لو استـــولى الاشرار على القلعة ؟

ـ عندئذ ...

وهنا تلعثمت فاسيليسا يغوروفنا وصمتت . وكان يبدو عليها قلق بالغ .

أستمر الآمر وقد لاحظ ان كلماته قد تركت أثرها ربما للمرة الاولى فى حياته :

ـ لا ، يا فاسيليسا يغوروفنا . لا حاجة الى ان تبقى ماشا هنا . لنرسلها الى عرّابتها فى اورنبورغ ، فان القوات والمدافع فيها كافية ، والاسوار من الحجارة . وانت ايضا انصحك بالسفر معها . لن تقيك شيخوختك مما قد يجرى لك ، اذا استولوا على القلعة بغارة .

قالت زوجة الآمر :

ـ حسنا ، لنرسل ماشا . أما انا فلن اغادر مهما الحفت بالطلب . لا حاجة لى فى شيخوختى ان افارقك ، وابحث عن قبر منفرد فى أرض غريبة . عشنا سوية ، وسنموت سوية .

قال الآمر :

ـ ليكن . ولكن ينبغى ان نسرع . اذهبى وجهزى ماشا للسفر . سنرسلها فى فجر الغد ، وسنرسل معها حارسا ، رغم عدم وجود رجال زائدين عن الحاجة عندنا . ولكن آين ماشا ؟

اجابت زوجة الآمر :

ـ عند أكولينا بامفيلوفنا . كاد يغمى عليها حين سمعت بالاستيلاء على تيشنى اوزرسك ، وانا اخاف ان تقع مريضة . يا ربى القدير الى اين بلغ الامر بنا !

انصرفت فاسيليسا يغوروفنا لتدبر أمر سفر ابنتها . واستمر الحديث فى حجرة الآمر ، الا اننى لم اعد اتدخل فيه ، ولم ألق اليه اذنا . جاءت ماريا ايفانوفنا عند العشاء شاحبة وفى عينيها آثار البكاء . تعشينا صامتين ، وتركنا المائدة فى وقت اقصر من المعتاد ، وتوادعنا مع جميع افراد العائلة ، وانصرفنا الى بيوتنا . الا أننى نسيت سيفى تعمدا ، وعدت لآخذه . خامرنى احساس باننى سأجد ماريا ايفانوفنا وحدها . وهذا ما حدث ، فقد استقبلتنى عند الباب ، وسلمتنى السيف ، وقالت لى دامعة العينين : «وداعا ، يا بيتر اندرييفيتش ! انهم يرسلوننى الى اورنبورغ . أرجو لك السلامة والسعادة . قد يمن الله علينا بأن نلتقى مرة اخرى ، اذا لم ...» وانفجرت باكية . طوقتها بذراعى ، وقلت : «وداعا ، يا ملاكى ، وداعا يا عزيزتى ، ووداى ! ثقى أن آخر فكرة لى ، وآخر دعاء سيكونان عنك ، مهما حدث من شىء !» اجهشت ماشا ، والتصقت بصدرى . فقبلتها بحرارة ، وخرجت من الحجرة مسرعا .

الفصل السابع

الغارة

رأسى ، يا رأسى ،
يا رأس الجندى !
قضيت فى الخدمة
ثلاثة وثلاثين عاما
لم تفز فيها ، يا رأسى ،
بمكسب ولا بفرحة ،
ولا بكلمة عنك طيبة ،
ولا برتبة عالية ؛
بل كسبت يا رأسى
عمودين عاليين ،
عليهما عارضة من خشب الدلب
تتدلى منها انشوطة حريرية .

اغنية شعبية

فى تلك الليلة لم أنم ، ولم اخلع ملابسى . عقدت العزم على ان اتوجه فى الفجر الى بوابة القلعة حيث ستخرج ماريا ايفانوفنا ، واودعها الوداع الاخير . احسست بتغير عظيم يطرأ على نفسى : وكان الانفعال فى روحى أخف على بكثير من الجزع الذى انتابنى قبل وقت قصير . واختلط ألم الفراق فى نفسى بآمـــال غامضة ولكنهـــا حلوة ، وتوقع عجول للمخاطر ،

ومشاعر عزة نفس نبيلة . وانقضى الليل بسرعة . وكدت على وشك الخروج من البيت حين فتح الباب ، وظهر عريف يحمل لى نبأ خروج القوزاق من قلعتنا ليلا بعد ان اخذوا معهم قسرا يولاى ، وذكر العريف ان اناسا مجهولين يطوفون حول القلعة . وفكرت بأن ماريا ايفانوفنا ربمـــا لا تلحق فى الخروج ، فافزعتنى هذه الفكرة ، واصـــدرت للعريف بعض التعليمـــات على عجل ، وانطلقت الى بيت الآمر فى الحال .

كانت الدنيا قد تنورت . ركضت فى الشـــارع حتى سمعت من ينادينى . فتوقفت . قال ايفـــان ايغناتيفيتش ، وقد لحق بى : «الى اين ؟ ايفـــان كوزميتش على الســـور ، وقد ارسلنى لاستدعيك . وصل بوغاتشوف» . سألتـــه واجف القلب : «هل سافرت ماريا ايفانوفنا ؟» اجاب ايفان ايغناتيفيتش : «لم تلحق ، قطع الطريق الى اورنبورغ . والقلعـــة محاصرة . الوضع سيء ، يا بيتر اندرييفيتش !»

سرنا الى السور ، وهو مرتفع كونته الطبيعة وقوي بسياج خشبى . رأينا سكان القلعة كلهم قد تجمهروا عليه . كانت الحامية متهيئة للقتال ، وقد نقل المدفع الى السور فى العشية . وكان الآمر يروح ويجيء أمام صف الجنود القليلى العدد . فـــان دنو

الخطر قد مد هذا المحارب القديم بنشاط غير اعتيادى . وفى السهب على مسافة غير بعيدة من القلعة كان يتحرك زهاء عشرين فارسا . وكانوا قوزاقا على ما يبدو ، الا ان بعض البشكيريين كانوا بينهم ، يمكن التعرف عليهم بسهولة من قبعاتهم من فراء الوشق ، ومن كنائنهم . طاف الآمر بجنوده قائلا لهم : «يا ابنائى ، لنثبت اليوم فى سبيل امنا الامبراطورة ، ولنظهر للدنيا كلها أننا مقدامون حافظون للايمان التى قسمناها !» ابدى الجنود حماسهم بصوت عال . كان شفابرين يقف الى جانبى ، وينظر الى العدو متفرسا . لاحظ المتراكضون فى السهب حركة فى القلعة ، فأجتمعوا فى كوكبة واخذوا يتحدثون فيما بينهم . اوعز الآمر لايفان ايغناتيفيتش بأن يوجه المدفع الى حشدهم ، ووضع الفتيلة فى المدفع بنفسه . فصفرت القذيفة وطارت فوقهم دون ان تلحق بهم أذى . تفرق الفرسان ، وتواروا عن الانظار حالا . وخلا السهب .

فى تلك اللحظة ظهرت فاسيليسا يغوروفنا تصحبها ماشا التى لم ترد ان تفارقها . قالت زوجة الآمر : «كيف تجرى المعركة ؟ اين العدو ؟» اجاب ايفان كوزميتش : «العدو غير بعيد . وسيكون كل شىء على ما يرام ان شاء الله . هل انت خائفة ،

يا ماشا ؟» ردت ماريا ايفانوفنا : «لا ، يا بابا ، فوجودى فى البيت وحيدة يفزعنى اكثر» . وهنا رمقتنى ، واكرهت نفسها على الابتسام . ضغطت على مقبض سيفى عفويا ، وقد تذكرت اننى تسلمته من يديها البارحة ، وكأنما لأحمى به محبوبتى . وتأجج قلبى . وتصورت نفسى فارسا . وتعطشت لاثبات استحقاقى لثقتها ، واخذت انتظر اللحظة الحاسمة بنفاد صبر .

فى اثناء ذلك ظهرت من وراء المرتفع الواقع على بعد نصف فرسخ من القلعة تجمعات جديدة من الخيالة ، وسرعان ما انزرع السهب بعدد كبير من المسلحين بالرماح والاقواس والنبال . بينما سار بينهم فارس على حصان ابيض فى قفطان احمر يمسك فى يده سيفا مجردا . كان ذلك بوغاتشوف نفسه . توقف ، واحاطوا به ، وبناء على أمره على ما يبدو ، خرج اربعة فرسان منطلقين بأقصى ما تستطيع خيولهم نحو قلعتنا ، ولما اقتربوا عرفنا فيهم خونتنا . كان أحدهم يرفع ورقة بالقرب من قبعته ، والآخر يحمل رأس يولاى على طرف رمحه . وقد هزه ، وقذفه الينا عبر السياج . وقع رأس الكالميكى المسكين عند قدمى الآمر . وصرخ الخونة : «لا تطلقوا النار ، واخرجوا الى القيصر ، انه هنا !»

صاح ايفان كوزميتش : «ساريكم ! يا اولاد ،

اطلقوا النار ! » وراح جنود يطلقون الرصاص . ترنح القوزاقى الذى كان يحمل الرسالة ، وهوى من فرسه ، وعاد الآخرون يرقلون من حيث أتوا . القيت نظرة على ماريا ايفانوفنا . كانت وكأنها فى غيبوبة ، وقد صعقها منظر رأس يولاى المدمى ، وأصمها صوت الرصاص . استدعى الآمر العريف ، وأمره أن يأخذ الورقــة من يد القوزاقى القتيل . خرج العريف الى السهب ، وعاد يسوق فرس القتيل من رسنه . وسلم الآمر الرسالة . قرأها ايفان كوزميتش فى سره ، ثم مزقها مزقا . وخلال ذلك كان العصاة على ما يبدو يستعدون للقتال . وبعد وقت قصير اخذ الرصاص يئز قرب آذاننا ، وانغرست بعض السهام فى الارض وفى السياج قربنا . قال الآمر : « فاسيليسا يغوروفنا ! هنا لا مكان للنساء . خذى ماشا ، فان الفتاة ما بين الموت والحياة » .

كانت فاسيليسا يغوروفنـــا منكمشـــة تحت الرصاص ، فألقت نظرة الى السهب الذى سرت فيه حركة كبيرة ملحوظة ، ثم التفتت الى زوجها ، وقالت له : « ايفان كوزميتش ، الموت والحياة بيد الله . بارك ماشا . يا ماشا ، اقتربى من ابيك » .

تقدمت ماشا من ايفان كوزميتش شاحبـــة مرتعشة ، وانحنت الى الارض . رسم الآمر العجوز

علامة الصليب عليها ثلاث مرات ، ثم رفعها وقبلها ، وقال لها بصوت متغير : «لتكن السعادة من نصيبك ، يا ماشا . صلى للرب ولن يتخلى عنك . واذا وجدت زوجا طيبا فانا ادعو الله لكما بالحب والوفاق . عيشا مثلما عشنا نحن ، فاسيليسا يغوروفنا وأنا . والآن ، وداعا ، ابعديها بسرعة ، يا فاسيليسا يغوروفنا» . (ارتمت ماشا على عنقه ، وانتحبت) وبكت زوجة الآمر ، وقالت : «لنتعانق نحن ايضا وليقبل احدنا الآخر . وداعا ، يا زوجى ايفان كوزميتش . سامحنى اذا كنت قد كدرتك فى شيء !» عانق الآمر زوجته العجوز ، وقال : «وداعا ، وداعا ، يا عزيزتى ! والآن ، كفى . اذهبا ، اذهبا الى البيت . واذا لحقت ألبسى ماشا ملابس بسيطة» . وغادرت زوجة الآمر وابنتها . نظرت فى اثر ماريا ايفانوفنا ، والتفتت هى ، واحنت رأسها لى . وفى تلك اللحظة توجه ايفان كوزميتش الينا ، وكان كل انتباهه متركزا على العدو . كان العصاة يحومون بالقرب من رئيسهم ، وفجأة اخذوا يترجلون عن خيولهم . قال الآمر : «اثبتوا الآن بقوة . ستبدأ الغارة ...» وفى تلك اللحظة صدر زعيق رهيب وصيحات ؛ وجاء العصاة راكضين نحو القلعة . عبئ مدفعنا بقذيفة . وتركهم الآمر الى اقرب مسافة واشعل الفتيل ثانية ، فاذا بالقذيفة تسقط

فى وسط الحشد تماما . تشتت العصاة فى كلا الجانبين متراجعين . ووقف رئيسهم وحده الى الامام ... كان بلوح بسيفه ، ويحرضهم بحماس ، على ما يبدو ... وفى الحال عاد الصياح والزعيق اللذان هدءا للحظة . قال الآمر : «والآن ، يا فتيان ، افتحوا البوابة ، واقرعوا الطبل ! يا فتيان ، الى الأمام ، ورائى الى الهجوم !»

فى لمحة واحدة كان الآمر وايفان ايغناتيفيتش وأنا وراء سور القلعة . الا ان الحامية المتخوفة لم تتحرك . صاح ايفان كوزميتش : «لماذا انتم واقفون ، يا اولادى ؟ الموت هو الموت : هذه هى الخدمة !» فى تلك اللحظة وصل المتمردون الينا ، واقتحموا القلعة . صمت الطبل ؛ وألقى جنود الحامية السلاح . ألقيت ارضا ، الا أننى نهضت ، ودخلت مع المتمردين القلعة . كان الآمر قد جرح فى رأسه ، وكان واقفا وسط جمهرة من الاشرار الذين كانوا يطلبون منه المفاتيح . انطلقت لنجدته ، فأمسك بى بعض القوزاق الاقوياء وشدونى بالأحزمة قائلين : «ستنالون جزاءكم ، بسبب عدم خضوعكم !» جرونا فى الشوارع . كان الاهالى قد خرجوا من بيوتهم يحملون الخبز والملح . وقرع الجرس . وفجأة صاحوا فى الحشد ان القيصر فى

الساحة ينتظر الأسرى ، ويتقبل يمين الولاء . هرع الناس الى الساحة ، وقادونا الى هناك ايضا .

كان بوغاتشوف يجلس على مقعد وثير نصب فى مدخل بيت الآمر . كان يرتدى قفطانا قوزاقيا أحمر مطرزا باشرطة مذهبة . وكانت قبعته العالية من فراء السمور والمزينة بشرابات ذهبية منكسة على عينيه اللامعتين . وبدا وجهه مألوفا لى . كان العمد القوزاقيون يحيطون به ، والاب غيراسيم وقف عند المدخل شاحبا مرتعشا ، والصليب فى يده . بدا وكأنه فى صمته يتوسل اليه ان يرأف بالضحايا المقبلين . نصبت مشنقه فى الساحة على عجل . عندما وصلنا ابعد الباشكيريون الناس ، وقدمونا الى بوغاتشوف . هدأ قرع الجرس . وساد صمت عميق . سأل الدعى : «من الآمر ؟» خرج ضابط الصف من الحشد ، وأشار الى ايفان كوزميتش . نظر بوغاتشوف الى العجوز نظرة متوعدة ، وقال له : «كيف جرأت على مقاومتى ، وأنا قيصرك ؟» جمع الآمر الذى اوهنه الجرح بقايا قوته . واجاب بصوت قوى : «لست قيصرى ، بل انت لص ودعى ، فأسمع قولى !» تجهم بوغاتشوف عبوسا ولوح بمنديل ابيض . امسك بعض القوزاق بالنقيب العجوز ، وجروه الى المشنقة . كان الباشكيرى المشوه الذى

استجوبناه يوم امس راكبا فوق عارضة المشنقة . وكان يمسك بيده حبلا . وما هى دقيقة حتى رأيت ايفان كوزميتش المسكين معلقا فى الهواء . وبعد ذلك ساقوا ايفان ايغناتيفيتش الى بوغاتشوف . فقال له بوغاتشـــــوف : «احلف يمين الولاء للقيصر بيتر فيودوروفيتش !» فأجاب ايفان ايغناتيفيتش مرددا كلمات آمره : «لست قيصرى . أنت ، يا عم ، لص ودعى !» لوح بوغاتشوف ثانية بالمنديل الابيض ، فشنق الملازم الطيب بالقرب من رئيسه العجوز .

وجاء دورى . نظرت الى بوغاتشوف بجرأة ، مستعدا لترداد جواب رفيقى العظيمين . عندئذ رأيت ، على دهشـــــة منى لا توصف ، شفابرين بين العمــــد المتمردين وقد حلق رأسه على شكل دائرة ، وارتدى القفطان القوزاقى . اقترب شفابرين من بوغاتشوف وهمس فى اذنه بعض الكلمات . قال بوغاتشوف وقد اعرض عنى «اشنقوه !» وضعوا الانشوطة فى عنقى ، واخذت اقرأ الصلاة فى سرى ، رافعا الى الرب ندامة صادقة على كل خطاياى ، داعيا اياه ان يحفظ جميع القريبين من قلبى . سحبونى تحت المشنقة . وراح السفاكون يقولون لى مكررين : «لا تخف ، لا تخف» ربما عن رغبة حقيقية فى تشجيعى . واذا بى اسمع صرخـــــة فجـــأة : «انتظـــروا ، يا ملاعين ! على

رسلكم ! ..» وتوقف السفاحون . ونظرت ، فاذا بى اری سافیلیتش مرتميا على قدمى بوغاتشوف . وراح هذا المربى المسكين يقول له : «مولاى العزيز ! ما حاجتك الى ان تقتل سيدا صغير السن ؟ اطلقـــه ، وسيعطونك فديـــة عنـــه ، مر بشنقى انا العجوز للعظة وبث الرعب !» ارسل بوغاتشوف اشارة ، ففكوا الانشوطة عنى فى الحال ، وتركونى . وقالوا لى : «ان مولانا يرأف بك» . فى تلك اللحظـــــة لا استطيع ان اقول ان خلاصى قد سرنى ، ولكن لا اقول أننى قد أسفت عليه . كانت مشاعرى غامضة تماما . قادونى مرة اخرى الى الدعى ، وجعلونى اركع امامه . مد بوغاتشوف نحوى يده المعروقة . وقال الذين بالقرب منى : «قبل يده ، قبل يده !» ولكن كنت أفضل أفظع اعدام على هذا التحقير السافل . همس سافیلیتش وهو واقف ورائى يدفعنى : «يا عزيزى بيتر اندرييفيتش ! لا تعاند ! ماذا يكلفك ذاك ؟ ابصـــق ، وقبل الشر ... (تفو !) قبل يده» . ولم اتحرك . انزل بوغاتشـــوف يده ، بعد ان قـــال بابتسامة ساخرة : «سيادته فقد عقله من الفرح . انهضوه !» انهضونى ، وتركونى وشأنى . اخذت اتابع فصول الكوميديا الفظيعة .

اخذ الاهـــالى يقسمـــون يمين الولاء . كانوا يتقدمون واحـــدا وراء الآخر ، ويقبلون الصليب ، وينحنون للدعى . وكان جنود الحامية يقفون هناك ايضا . كان خياط السرية يقص لهم ضفائرهم بمقصه المثلم ، ويدنون من يد بوغاتشوف ، نافضين عنهم الشعر ، فيعلن هذا مغفرته ، ويقبلهم فى شرذمته . وقد استمر كل ذلك حوالى ثلاث ساعات . واخيرا نهض بوغاتشـــوف من المقعد ، وترك مدخل البيت يرافقه عمده . قادوا له جوادا ابيض ، مزينا بعدة غنية . رفعه قوزاقيان من تحت ابطه واجلساه على السرج . واعلن للاب غيراسيم بأنه سيتناول طعـــام الغداء على مائدته . وفى تلك اللحظة ارتفعت صيحة نسائية . كان بعض الشقـــاة يجرون الى المدخـــل فاسيليسا يغوروفنا . شعثـــاء الشعر ، مجردة من الثياب . كان احد هؤلاء قد ارتدى سترتها المبطنة ، بينما كان الآخرون يجرون الوســـائد والنضـــائد والصناديق ، وعدة الشاى ، والملابس ، وكل امتعة البيت . صاحت العجوز المسكينـــة «يا اعزائى ! اطلقونى ، يا ابنائى ، خذونى الى ايفان كوزميتش» ، وفجاة وقع بصرها على المشنقة ، وتعرفت على زوجها . صاحت فى هلع : «ايها الاشرار ! ماذا فعلتم به ؟ يا ضيائى ، يا ايفان كوزميتش ، ايها الرأس المحارب

الشجاع ، لم تنل منك حراب البروسيين ولا رصاص الترك ، لم تصرع فى معركة نزيهة ، بل قتلك مجرم هارب !» قال بوغاتشوف : «اسكتوا الساحرة العجوز !» وفى هذه اللحظة ضرب قوزاقى رأسها بالسيف ، فوقعت صريعة على درجات المدخل .
وتحرك بوغاتشوف ، وانطلق الناس فى اثره .

الفصل الثامن

ضيف غير مدعو

ضيف غير مدعو اسوأ من تترى * .
مثل

خلت الساحة . وكنت لما أزل ملازما مكانى ، غير قادر على تنظيم افكارى ، التى اثارتها مشاهد فظيعة جدا .

وأشد ما كان يعذبنى هو جهلى بمصير ماريا ايفانوفنا . اين هى ؟ وماذا حصل لها ؟ وهل لحقت ان تختفى ؟ وهل المكان الذى اختفت فيه مأمون ؟ ..

---

* يعود هذا المثل الى عهد نير التتر فى روسيا (القرون ١٣ـ١٥) . **(الناشر .)**

دخلت بيت الآمر تفعمنى افكار مقلقة ... كان كل شيء فارغا . المقاعد ، والمناضد والصناديق محطمة ، والاوانى مهشمة ، وكل شيء قد نهب . ركضت مرتقيا الدرج الصغير المؤدى الى الطابق الثانى ، ولاول مرة فى حياتى دخلت غرفة ماريا ايفانوفنا . رأيت سريرها الذى عاث به اللصوص ، وكانت الخزانة مكسورة ومنهوبة ، وكان السراج ما يزال مشتعلا أمام دولاب الايقونات المنهوبة . كما سلمت المرآة الصغيرة المعلقة بين نافذتين ... أين هى ربة هذا الخدر الوادع العفيف ؟ ومضت فى ذهنى فكرة رهيبة : فقد تصورتها بين ايدى الشقاة ... وانكمش قلبى ... بكيت بكاء مرا ، هاتفا باسم محبوبتى بصوت عال ... وفى تلك اللحظة سمعت حركة خفيفة ، واذا ببالاشا تخرج من وراء الخزانة ممتقعة الوجه ، مرتجفة . قالت وهى ترفع ذراعيها :

ـ آه ، يا بيتر اندرييفيتش ! أى يوم هذا ! ويا للهول ! ..

سألتها متلهفا :

ـ وماريا ايفانوفنا ؟ ماذا جرى لماريا ايفانوفنا ؟

اجابت بالاشا :

ـ الانسة حية ، وهى مختبئة عند اكولينا بامفيلوفنا .

صحت فى ذعر :

— فى بيت القس ! يا رب ! ولكن بوغاتشوف هناك ! ..

خرجت من الحجرة مسرعا ، وما هى الا لمحة حتى كنت فى الشارع ، وركضت الى منزل القس لا ألوى على شيء ، ولا اشعر بشيء . كانت الصيحات ، والقهقهة ، والاغانى تسمع من هناك ... كان بوغاتشوف يولم مع اصحابه . وكانت بالاشا قد جاءت فى اثرى ، فأرسلتها لتدعو اكولينا بامفيلوفنا فى السر . وبعد دقيقة خرجت زوجة القس لرؤيتى فى الرواق وفى يدها قارورة فارغة . سألتها بقلق لا يوصف :

— بحق الرب ! اين ماريا ايفانوفنا ؟

اجابت زوجة القس :

— انها ، عزيزتى ، راقدة فى سريرى ، وراء الحاجز . كادت ان تنزل نازلة ، ولكن كل شيء مرّ بسلام ، حمدا لله . ما كاد الشرير يجلس للطعام ، حتى افاقت فتاتى المسكينة ، وتأوهت ! .. وكاد يغمى علىّ . سمع الشرير التأوه ، فسألنى «من يتأوه عندك ، يا عجوز ؟» فأنحنيت للص وقلت له : «انها ابنة اخى ، يا مولاى ، وقعت مريضة ، وهى طريحة الفراش منذ اسبوع» . — «وهل ابنة اخيك

شابة ؟ »ــ« شابة ، يا مولاى » .ــ « اريني ابنة اخيك ، يا عجوز » . وانعصر قلبى ، ولكن لم تكن فى اليد حيلة . « تفضل ، يا مولاى ، ولكن الفتاة لا تقدر على النهوض والمثول بين يديك »ــ« لا بأس ، يا عجوز ، سأذهب بنفسي ، والقى نظرة » . أترى ، اجتاز الملعون الحاجز ! سحب الستارة ، ونظر بعينيه الكاسرتين . ولم يحدث شيء ... نجانا الله ! هل تصدق أنني وزوجي تهيأنا لموت الشهادة . ومن حسن الحظ انها ، عزيزتى ، لم تتعرف عليه . يا رب القدرة ، عشنا لنرى هذا اليوم المشهود ! ما ابشع ذاك ! ايفان كوزميتش المسكين ! من كان يظن ! .. وفاسيليسا يغوروفنا ؟ وايفان ايغناتيفيتش ؟ لأى شيء شنقوه ؟ ... كيف رأفوا بك ؟ واى شقى شفابرين الكسى ايفانوفيتش هذا ؟ انه حلق رأسه فى دائرة ، وهو الآن يولم معهم هنا ! لا شك فى انه ماكر . ما ان تحدثت عن ابنة أخى حتى نظر الى نظرة جارحة كالسكين ، صدقني . ولكنه لم يش ، شكرا له ولو على ذلك .ــ وفى تلك اللحظة صدرت صيحات الضيوف السكارى ، وصوت الأب غيراسيم . كان الضيوف يطالبون بالشراب ، فاذا القس ينادى زوجته . واضطربت زوجة القس ، وقالت : « اذهب الى بيتك ، يا بيتر اندرييفيتش . لا وقت لى لاتحدث

اليك . الاشرار يعربدون ويشربون . والاحسن الا يراك احد من السكارى . وداعا ، يا بيتر اندرييفيتش . ليحصل ما يحصل . لا اظن الله يتخلى عنا .

وانصرفت زوجة القس . وتوجهت أنا الى مسكنى ، وقد هدأت قليلا . ولدى مرورى فى الساحة رأيت بعض الباشكيريين يجتمعون قرب المشنقة يخلعون الاحذية من ارجل المشنوقين . كبحت بجهد سورة حنقى ، شاعرا بأن تدخلى لا يجدى فتيلا . وكان الشقاة يتراكضون فى جنبات القلعة ، ناهبين بيوت الضباط . وفى كل مكان صيحات المتمردين السكارى . وصلت الى البيت فاستقبلنى سافيليتش عند العتبة . صاح حين رآنى : «حمدا لله ! ظننت ان الاشرار قبضوا عليك ثانية . يا عزيزى بيتر اندرييفيتش أتصدق ؟ الجناة نهبوا كل شيء عندنا : الثياب ، والمفارش ، والامتعة ، والاوانى . ولم يبقوا شيئا . لا بأس ، الحمد لله انهم تركوك حيا . هل عرفت من رئيسهم ، يا سيد ؟» .

ـ لا ، لم أعرفه . من هو ؟

ـ كيف لم تعرفه ، يا عزيزى ؟ هل نسيت ذلك السكير الذى احتال على معطفك من فراء الارنب فى النزل ؟ كان جديدا كليا ، الا ان هذا الحيوان فتقه حين لبسه !

ودهشت . حقا ان الشبه بين بوغاتشوف ودليلى ذاك كان مذهلا . فايقنت ان بوغاتشوف والدليل شخص واحد . وفهمت السبب فى الرأفة التى شملنى بها . فما كان بوسعى الا ان اتعجب من تشابك الظروف : معطف صبى اهديته الى متشرد انقذنى من حبل المشنقة ، وسكير كان يترنح بين الحانات استطاع ان يحاصر القلاع ويهز الدولة !

سأل سافيليتش غير مبدل عاداته :

ـ الا تريد ان تأكل ؟ لا يوجد شىء فى البيت ، سأذهب لأبحث عن شىء ، واطعمك بشكل ما .

عندما بقيت وحدى غرقت فى تأملات . ماذا يجب على ان افعل ؟ ان البقاء فى القلعة وهى تحت سيطرة الشرير او مسايرة عصابته لم يكن يليق بضابط . لقد كان واجبى يقتضينى ان اذهب الى حيث يمكن ان تكون لخدمتى لما تزل فائدة لوطنى فى الظروف الحرجة الراهنة . . . الا ان الحب كان يدعونى بقوة الى ان ابقى بجانب ماريا ايفانوفنا ، وان اكون حاميها وحارسها . ورغم أننى كنت اتوقع تبديلا عاجلا مؤكدا فى الظروف ، الا أننى لم استطع الا ان ارتجف حين اتصور خطورة وضعها .

قطع تأملاتى وصول احد القوزاق الذى جاء يعلن ان «القيصر العظيم يطلب مثولك بين يديه» . فسألته وانا مستعد لاطاعته : «اين هو ؟» . اجاب القوزاقى : «فى بيت الآمر . بعد الغداء توجه مولانا الى الحمام ، وهو الآن يستريح . يبدو من كل شىء ، يا صاحب السيادة ، انه شخصية رفيعة المقام : فقد اكل فى الغداء خنوصين محمصين ، وأخذ حمام بخار حارا جدا ، لم يستطع حتى تاراس كورتشكين ان يتحمله ، فسلم الليفة الى فومكا بيكبايف وعاد الى حاله بعد ان صب على جسده الكثيرمن الماء البارد . وباختصار ان كل الدلائل تشير الى عظمته . . . ويقال انه أظهر اثناء الحمام علائم القيصرية المرسومة على صدره . فى احد الجانبين نسر ذو رأسين بحجم خمسة كوبيكات ، وفى الجانب الآخر صورته» .

لم أر ضرورة لمناقشة القوزاقى فى رأيه ، فتوجهت معه الى بيت الآمر ، متصورا مسبقا ملاقاتى لبوغاتشوف ، محاولا ان احزر ما تنتهى اليه . والقارئ يستطيع بسهولة ان يتصور أننى لم اكن بارد الاعصاب تماما .

كان المساء يهبط حين وصلت الى بيت الآمر . كانت المشنقة بضحيتها تسود سوادا فظيعا . وكانت جثة زوجة الآمر ما تزال ملقاة تحت مدخل البيت

حيث كان قوزاقيان يحرسان . دخل القوزاقى الذى كان معى الى البيت ليبلغ بمجيئى ، وعاد فى الحال ، وقادنى الى الحجرة التى كنت فى الأمس قد تواعدت فيها مع ماريا ايفانوفنا بحنان .

وظهر امامى مشهد غير اعتيادى : فقد رأيت بوغاتشوف ونحو عشرة من العمد القوزاقيين جالسين وراء مائدة مغطاة بمفرش ، ومثقلة بالقوارير والاقداح . كانوا يرتدون القبعات والقمصان الملونة ، وقد وهجتهم الخمرة ، وجعلت خدودهم حمرا ، وعيونهم لامعة . ولم يكن شفابرين بينهم ، ولا ضابط صفنا ، ذانكم الشخصان حديثا العهد بالخيانة . قال بوغاتشوف حين رآنى : «أها ، يا صاحب السيادة ! اهلا وسهلا . تفضل بالجلوس» . وتراصّ الندماء . فجلست صامتا عند حافة المائدة . صب لى جارى القوزاقى الشاب الممشوق الوسيم قدحا من النبيذ البسيط لم أمسسه . اخذت اجيل البصر بالمجتمعين فى فضول . كان بوغاتشوف يتصدر المكان مرتفقا المائدة ، ساندا لحيته السوداء بقبضته العريضة . كانت تقاطيع وجهه سليمة ، ولطيفة كثيرا ، ولم تكن تنم عن شراسة . كان كثيرا ما يخاطب رجلا فى نحو الخمسين من العمر ، مناديا اياه مرة بالكونت ، ومرة بتيموفيتش ، وأحيانا يسميه بمناداته : يا عمى .

كانوا جميعا يتعاملون فيما بينهم كرفاق ، ولم يبدوا اى تعظيم خاص لرئيسهم . جرى الحديث على غارة الصباح ، وعن نجاح الانتفاضة ، وعن العمليات المقبلة . تباهى كل فرد ، مقترحا آراءه ، وكان يتجادل مع بوغاتشوف بطلاقة . وفى هذا المجلس الحربى الغريب تقرر الزحف على اورنبورغ : وهو اندفاع جرىء كاد يتوج بنجاح فاجع . وحدد اليوم التالى موعدا للزحف . قال بوغاتشوف : «والآن ، يا اخوان ، لنغن قبل النوم اغنيتى المحبوبة . يا تشوماكوف ! ابدأ !» وبدأ جارى يغنى بصوت رقيق اغنية حزينة من اغانى ساحبى السفن ، وانضم الجميع اليه :

لا تضجى ، ايتها الغابة الخضراء ،
ولا تعيقى الفتى الطيب عن التفكير .
فى صباح الغد سأمثل امام قاض رهيب ،
هو القيصر نفسه .
سيسألنى مولاى القيصر :
خبرنى ايها الفتى ابن الفلاح ،
من كان شركاؤك فى السطو والسرقة ،
وهل كان رفاقك كثيرين ؟
سأجيب مولاى القيصر المؤمن ،
واخبره بكل الحقيقة ،
قائلا ان رفاقى كانوا اربعة :

كان الليل الحالك رفيقى الاول ،
والثانى سكينى الفولاذى ،
والثالث جوادى المطيع ،
والرابع قوسى المشدود .
وكان نثارى سهاما صلبة .
وسيجيبنى مولاى القيصر المؤمن :
مرحى لك ، ايها الفتى ابن الفلاح :
قدير أنت فى السطو ، قدير فى الجواب !
وساجازيك على ذلك ،
بقصر عال فى سهب :
خشبتان قائمتان
عليهما عارضة .

من المتعذر ان اصف التأثير الذى تركتـــه فى نفسى هذه الأغنية الشعبية البسيطة عن المشنقـــة يغنيها أناس حكم عليهم بأن يشنقوا . ان وجوههم العنيفة ، واصواتهم المنسقة ، ومسحـــة الجزع التى اضفوها على الكلمات القوية التعبير فى أصلها ، كل ذلك قد هز نفسى برهبة شاعرية .

شرب الضيوف القدح الأخير ، ونهضوا من وراء المائدة ، وتوادعوا مع بوغاتشوف . اردت ان احذو حذوهم ، الا ان بوغاتشوف قال لى : «اجلس ، اريد ان اتحدث معك» . وبقينا وحدنا .

استمر صمتنا المشترك عدة دقائـــق . كان بوغاتشوف يتفرس فىّ ، مقلصا بين الحين والآخـــر

عينه اليسرى فى تعبير مدهش عن المكر والسخرية . واخيرا ضحك وبمرح طليق جدا حتى أخذت أضحك وانا انظر اليه دون ان اعرف السبب . وقال لى :

ــ يا صاحب السيادة ! قل الحقيقــــة ، هل جبنت حين القى فتيانى الحبــــل على رقبتك ؟ أظن ان الفزع جعلك ترى النجوم فى الضحـــــى . . . لو لا خادمك لكنت الآن تتدلى من العارضة . لقد عرفـــت المتذمر الهرم فى الحال . ولكن هل كنت تظن ، يـــا صاحب السيادة ، ان الرجل الذى قادك الى النزل كان القيصر العظيم بعينه ؟ (وهنا اكتسى وجهه بهيئــــة العظمة والغموض ، وتابع قوله) أنت مذنب نحوى ذنبا عظيما ، ولكننى عفوت عنك جزاء معروفــــك ، لأنك قدمت لى خدمة أيام كنت مضطرا الى الاختفاء عن اعدائى . سترى الكثير ! سأجازيك حين احصل على ملكى ! هل تعدنى بأن تخدمنى بحماس ؟

وبدا لى سؤال المحتال وجرأته فكهين جدا حتى لم استطع الا ان اضحك .

سأل متعبسا :

ــ ما الذى يضحكك ؟ أم أنك لا تصدق باننى القيصر العظيم ؟ اجب بصراحة .

ارتبكت . لم اكن اقدر على ان اعترف بأن هذا المتشرد قيصر : فان ذلك سيكون خورا لا يغتفر .

كما ان تسميته بالمحتال فى وجهه قد يعرضنى الى الوقوع فى ايدى القتلة . ان ما كنت مستعدا لــه وانا تحت المشنقة امام انظـــار الناس جميعا ، فى السورة الاولى من الغيظ بدا لى الآن تبجحا لا فائدة منه . وترددت . وكان بوغاتشوف ينتظر ردى جهم الاسارير . واخيرا (وأنا حتى الآن اتذكر تلك اللحظة برضى نفسى) انتصر شعور الواجـــب فى نفسى على الضعف البشرى . أجبت بوغاتشوف : «اسمـــع . سأقول لك الحقيقة كلها . قدر بنفسك هل استطيع انا الاعتراف بك قيصرا ؟ انت رجل ذكى ، وسترى بنفسك أننى اخادعك» .

ـ ومن أنا ، حسب رأيك ؟

ـ الله يعلم بك ، ولكن مهما تكن أنت فانـك تلعب لعبة خطيرة .

نظر بوغاتشوف الى نظرة سريعة وقال : «اذن ، فانت لا تصدق بأننى القيصر بيتر فيودوروفيتش ؟ حسنا . الا تعترف بأن الفوز للجسور ؟ ألم يفـــز غريشكا اوتريبيف * بالقيصر فى الزمان القديم ؟ لك

* الدعى الذى ادعى بانه ديميترى ابن القيصر ايفان الرهيب . كان ديميترى الزائف هذا دميـــة بايدى المتدخلين البولونيين ، وقد استولى على العرش الروسى خلال ١١ شهرا (١٦٠٥ــ١٦٠٦) . (الناشر .)

الحرية فى ان تظن بى ما تريد ، ولكن لا تتخل عنى . ما الذى يهمك فيما لا يعنيك ؟ لا فرق من تخدم . اخدمنى باخلاص وصدق ، وسأجازيك بأن اجعلك فيلدمارشالا واميرا . فما رأيك ؟

اجبته بتصميم :

ـ لا . انا نبيل فى الاصل ، وقد اقسمت يمين الولاء للامبراطورة . لا استطيع ان اخدمك . دعنى اسافر الى اورنبورغ اذا كنت تريد لى الخير حقا .

فكر بوغاتشوف . وقال : «هل تعدنى ، اذا تركتك تذهب ، بالا تقف ضدى على اقل تقدير ؟» .

اجبته :

ـ وكيف استطيع ان اعدك بذلك ؟ انت تعرف أننى مسير لا مخير . اذا امرونى بأن اقف ضدك سأقف ، ولا خيار لى فى ذلك . أنت الآن رئيس ، وتطلب الطاعة من رجالك . فماذا سيكون اذا رفضت ان اخدم حيث يحتاجون الى خدمتى ؟ ان رأسى تحت سلطتك ، فاذا اطلقتنى قلت شكرا ، واذا شنقتنى كان الله قاضيك . اما انا فقد قلت لك الحقيقة .

اذهلت صراحتى بوغاتشوف . قال لى بضربة على كتفى : «وليكن ذاك . عقابى صارم وعفوى سموح . اذهب الى حيث تشاء ، وافعل ما تريد . تعال فى

الغد لتوديعى . والآن اذهب لتنام ، فان النعاس اخذ يطبق على » .

تركت بوغاتشوف ، وخرجت الى الشارع . كان الليل ساجيا وشديد البرودة . وكان القمر والنجوم تتألق ساطعة فى السماء ، مضيئة الساحة والمشنقة . وكان كل شيء فى القلعة ساكنا وداكنا . وكانت الحانة وحدها مضاءة ، تصدر منها صيحات المتأخرين فى القصف واللهو . القيت نظرة على بيت القس . كانت الصفاقات والبوابة مغلقة . وكل شيء فيه قد هدأ .

وصلت الى مسكنى فوجدت سافيليتش فى قلق شديد على غيابى . افرحه نبأ اطلاق سراحى فرحا لا يوصف . قال وهو يرسم علامة الصليب : « المجد لك ، يا رب القدرة ! سنترك القلعة عند الفجر ، ونسير فى الدنيا الواسعة . اعددت لك بعض الطعام . فكل يا عزيزى ، ونم حتى الصباح قرير العين » .

تبعت نصيحته ، فتعشيت بشهية كبيرة ، ونمت على الارض العارية متعبا فى الروح والجسد .

الفصل التاسع

الفراق

ما اطيب اللحظة
التى عرفتك فيها
يا جميلتى ؛
وما أشقى فراقى لك
وكانه فراق الروح .

(من اغنية «الفراق» **لخيراسكوف** .)

ايقظنى قرع الطبل فى الصباح الباكر . ذهبت الى مكان التجمع ، فرأيت حشود بوغاتشوف مصطفة بالقرب من المشنقة ، حيث ما زالت ضحيتا الأمس معلقتين . كان القوزاق راكبين الخيول ، والجنود يحملون البنادق ، والرايات ترفرف . وقد شدت الى العربات بعض المدافع . عرفت من بينها مدفعنا . وكان جميع الاهالى مجتمعين هناك فى انتظار الدعى . وعند مدخل بيت الآمر كان احد القوزاق يمسك مقود جواد ابيض رائع من نسل قيرغيزى . بحثت ببصرى عن جثة زوجة الآمر . فرأيتها قد جرت قليلا فى ناحية ، وغطيت بحصيرة من الليف . واخيرا خرج بوغاتشوف من الرواق . فخلع الناس قبعاتهم . توقف

بوغاتشوف على مدخل البيت ، وسلم على الجميع . قدم له احد العمد كيسا من النقود النحاسية ، فأخذ يرميها حفنات . اندفع الناس لالتقاطها متصايحين . ولم يسلموا من أذى . احاط ببوغاتشوف الرؤساء من اعوانه . وكان بينهم شفابرين . والتقت نظراتنا . استطاع ان يقرأ فى نظرتى الازدراء ، فتنكسب عنى مظهرا ضغنا صريحا ، وهزءا متكلفا . لمحنى بوغاتشوف بين الجمع فهز رأسه لى يدعونى اليه . قال لى : «اسمع ، سافر الساعة الى اورنبورغ وابلغ عنى الوالى وجميع الجنرالات بأن ينتظرونى هناك بعد اسبوع . انصحهم بان يستقبلونى بحب الابناء لأبيهم وبالطاعة ، والا فسينتظرهم عقاب صارم . سفرة ميمونة ، يا صاحب السيادة ! — ثم التفت الى الناس وقال مشيرا الى شفابرين — يا ابنائى ، هذا آمركم الجديد ، فاطيعوه فى كل شىء ، وسيكون مسؤولا امامى عنكم وعن القلعة» . اصغيت الى هذه الكلمات مذعورا .اصبح شفابرين صاحب الأمر فى القلعة ، وصارت ماريا ايفانوفنا تحت سلطته ! الله يعلم ماذا سيحصل لها ! ترك بوغاتشوف مدخل البيت . فقدموا له الجواد . قفز الى السرج بخفة غير منتظر القوزاقيين اللذين ارادا ان يعيناه .

وفى تلك اللحظة رأيت خادمى سافيليتش يخرج من الحشد ، ويتقدم من بوغاتشوف ، ويقدم له

ورقة . لم استطع ان أحزر الى ما سيؤول ذلـــك . سأله بوغاتشوف بعظمـــــة : «ما هذا ؟» اجاب سافيليتش : «اقرأ ، وسترى» . تناول بوغاتشوف الورقة ، وتمعن فيها طويلا بهيئة معتبرة . وقال فى النهاية : «ما هذه الكتابة الرديئة ؟ ان عينينــــــا الوضاءتين لا تستطيعان فك خربشتهـــا . أين كبير الامناء ؟» .

ركض شاب فى سترة عريف نحو بوغاتشـــوف بسرعة . فقال له الدعى وهو يناوله الورقة : «اقرأها بصوت عال» . وتملكنى فضول بالغ لمعرفة ما عنَّ للمربى ان يكتبه لبوغاتشوف . اخذ كبير الامناء يقرأ ما يلى بصوت عال ، متهجيا المقاطع :

«مبذلان أحدهما قطنى والثانى حريرى مخطط ، سعر كليهما ستة روبلات» .

قال بوغاتشوف متجهما :

ــ ما يعنى هذا ؟

اجاب سافيليتش فى هدوء :

ــ مره ان يواصل القراءة .

واصل كبير الامناء القراءة :

«سترة عسكرية من الجوخ الأخضر الناعم بسبعة روبلات .

سروال ابيض من الجوخ بخمسة روبلات .

اثنا عشر قميصا من الكتان الهولندى باكمام بعشرة روبلات .

حقيبة لعدة الشاى بروبلين ونصف . . .»

قطع بوغاتشوف القراءة بقوله :

ـ ما هذا الهراء ؟ ما علاقتى بالحقائب والسراويل ذات الاكمام ؟

تنحنح سافيليتش ، وأخذ يشرح :

ـ هذه اذا تفضلت وسمحت ، قائمة بأمتعة السيد التى نهبها الاشرار . . .

سأل بوغاتشوف بلهجة متوعدة :

ـ من هؤلاء الاشرار ؟

اجاب سافيليتش .

ـ ارجو المعذرة : زلة لسان . اشرار او غير اشرار ، الا أن فتيانك نبشوا ونهبوا . لا تغضب ، حتى الحصان يكبو وهو ذو قوائم اربع . مره ان يقرأها حتى النهاية .

أمر بوغاتشوف بأن يقرأها حتى النهاية .

فاستمر كبير الامناء فى القراءة :

«دثار قطنى ، وآخر من التفتة المخلوطة بالقطن باربعة روبلات .

معطف من فراء الثعلب مبطن بجوخ قرمزى ، ٤٠ روبلا .

معطف، آخر صغير من فراء الارنب وهـــب لحضرتك فى النزل، ١٥ روبلا .

صاح بوغاتشوف وقد برقت عيناه غيظا :

ــ ما هذا ايضا !

اعترف بأننى خفت على مربى المسكين . هم مرة أخرى بان يشرح الأمر . الا ان بوغاتشوف قاطعه صائحا ، وهو يختطف الورقة من يد كبير الامناء ، ويقذفها فى وجـــه سافيليتش : «كيف جرأت على التطاول على بهذه السفاسف ؟ ايها العجوز الاحمق ! نهبوها ! فما المصيبة فى ذلك ؟ ثم يجب ان تدعو الله لى ولفتيانى طوال عمرك ، ايها المتذمر الهرم ، لأننا لم نشنقك وسيدك ، هنا ، مع الذين خرجوا على طاعتى . . . معطف من فراء الارنـــب ! سأريك المعطف ! هل تعرف أننى سأمر بسلخ جلدك حيا لأصنع منه معطفا ؟ »

اجاب سافيليتش :

ــ كما تريد ، ولكننى رجل مأمور ومسؤول عن أمتعة السيد .

كان بوغاتشوف ، على ما يبدو ، فى نوبة مــن السماحة . استدار ، وسار فى طريقه دون ان ينطق بكلمة أخرى . وسار شفابرين والعمد وراءه . خرجت العصابة من القلعة فى نظام . وسار الناس يودعون بوغاتشوف . بقيت فى الساحة مع سافيليتش . كان

مربى يمسك قائمته فى يديه ، وينظر فيهـــا بأسى عميق .

رآنى على وفاق حسن مع بوغاتشوف ففكر ان يجنى منه فائدة ؛ الا ان مسعاه لم ينجح . رحـــت ألومه على هذا الحماس الذى جاء فى غير محله ، ولم استطع ان امنع نفسى من الضحك . اجاب سافيليتش: «اضحك ، يا سيد ، اضحك . لكن عندما نحتاج الى الامتعة من جديد ، فسنرى هل ذلك مضحك ام لا» .

هرعت الى بيت القس لأرى ماريا ايفانوفنا . استقبلتنى زوجة القس بنبأ مؤلم . فى الليل اصيبت ماريا ايفانوفنا بحمى شديدة . وهى الآن ترقد فى غيبوبة وهذيان الحمى . قادتنى زوجـــة القس الى حجرتها . اقتربت من سريرها بهدوء . فرأيـــت على وجهها تغيرا صعقنى . لم تعرفنى المريضة . وقفت أمامها طويلا ، غير مستمع الى الاب غيراسيم ، ولا الى زوجته الطيبة اللذين جاهدا ، على ما يبـــدو ، لادخال الطمأنينة الى قلبى . كانت تقلقنى أفكار كئيبة . وترعبنى حالة اليتيمة المسكينة ، المتروكـــة بين المتمردين الاشرار دون حماية ، مضافا الى ذلك عجزى . وكان شفابرين أكثر ما يعذب تصورى . فقد كان فى مقدوره ان يقدم على كل شىء ، وقد خـــول السلطة من الدعى ، وصار المتحكم فى القلعة ، حيـــث

تركت فتاة تعيسة غرضا بريئا لكراهيته . ماذا ينبغى ان افعل ؟ كيف اساعدها ؟ وكيف اخلص من يــد الشرير ؟ لم تبق الا وسيلة واحدة : فعزمــــت على التوجه فى هذه الساعة الى اورنبورغ ، بغية التعجيل فى تحرير قلعة بيلوغورسك ، والعمــــل عليه بقدر الامكان . توادعت مع القس ومع اكولينا بامفيلوفنا ، واوصيتهما ان ترعى تلك التى قد اعتبرتها زوجتى . تناولت يد الفتاة المسكينة ، وقبلتها ناثرا عليهــا دموعى . قالت لى زوجة القس وهى تودعنى : «وداعا يا بيتر اندرييفيتش . آمل ان نلتقى فى وقت افضل . لا تنسنا ، واكثر من الكتابة الينا . الآن ليس لماريا ايفانوفنا المسكينة غيرك سلوى وحاميا» .

خرجت الى الساحة ، وتوقفت دقيقة ونظرت الى المشنقة ، وانحنيت لها ، وغادرت القلعة ، وسرت فى الطريق الى اورنبورغ يصحبنى سافيليتش الذى لم يبارحنى .

سرت مشغولا بافكارى ، واذا بى اسمع كركبة حصان ورائى . التفت فرأيت قوزاقيا يعدو من القلعة ويمسك جوادا باشكيريا آخر من مقوده ، ويومئ الى من بعيد ، توقفت ، وبعد قليل عرفت أنه ضابط صفنا . عندما وصل قفز من حصانه ، وقال وهو يقدم لى مقود الحصان الآخر : «يا صاحب السيادة ! ان مولانا يهبك حصانا وفروة من على كتفه (كانت فروة

خروف مربوطة فى السرج) » ، واضاف متلعثما : «وثمة شيء آخر . انه يهبك نصف روبل . . . ولكننى اضعته فى الطريق ، اعذرنى بسماحة نفسك» . نظر سافيليتش اليه ، وتذمر : «اضاعه فى الطريق : ما هذا الذى يرن فى صدر ثوبك ؟ يا معدوم الضمير !» فرد ضابط الصف دون ان يرتبك البتة : «ما هذا الذى يرن فى صدر ثوبى ؟ سامحك الله ، يا شيخ ! هذا رنين اللجام ، لا نصف الروبل» . قلت قاطعا الجدل : «حسنا ، اشكر لى من ارسلك . اما نصف الروبل الذى اضعته فحاول ان تعثر عليه فى طريق عودتك ، وخذه واشرب به الفودكا» . اجاب وهو يدير حصانه : «ممتن جدا ، يا صاحب السيادة ! سأدعو الله لك طوال عمرى» . وبعد هذه الكلمات عدا راجعا ، واضعا احدى يديه على صدر ثوبه ، وبعد دقيقة اختفى عن البصر . ارتديت الفروة ، وامتطيت الجواد بعد ان اركبت سافيليتش ورائى . قال العجوز : «أترى ان تقديمى الشكوى لذلك المحتال لم يذهب هباء . استحى اللص رغم ان الكديش الباشكيرى الهزيل وفروة الخروف لا يساويان نصف ما سرقه اولئك المحتالون منا وما وهبته له . ولكن كل شيء سينفع . شعرة من جلد خنزير» .

الفصل العاشر

حصار المدينة

بعد ان استولى على الغياض والجبال ،
القى على المدينة نظرة من شاهـــــق ،
كالنسر .
وأمر باقامة سد وراء المعسكر
لتخبأ المدافع وراءه ، وفى الليل تصوب
الى المدينة .

خيراسكوف

عندما اقتربنا من اورنبورغ رأينا جمعا مـــن المحكومين المقيدين ذوى الرؤوس الحليقة ، والوجوه التى شوهتها متارض السفاكين . كانوا يعملون تحت مراقبة جنود الحامية المشوهين . كان بعضهم يحملون على عربات صغيرة الفضلات التى كانت تملأ خندقا . وآخرون يحفرون الارض بالارفاش . وعلى السد كان عمال الحجارة يجلبون الآجر ، ويرممون سور المدينة . اوقفنا الحارس عند بوابة المدينة وطلب جوازينا . ما ان عرف الرقيب باننى قادم من قلعة بيلوغورسك حتى قادنى الى بيت الجنرال رأسا .

لقيته فى الحديقة . كان يتفقد اشجار التفاح التى عرتها انفاس الخريف ، ويغطيها بالقش الدافىء

حريصا عليها يساعده فى ذلك بستانى عجوز . كان وجه الجنرال يشع طمأنينة وعافية وطيبة قلب . سر بمقدمى ، وشرع يسأل عن الاحداث المرعبة التى شهدتها . قصصت عليه كل شىء . اصغى الى العجوز بانتباه وخلال ذلك كان يقطع الاغصان اليابسة . وعندما انتهيت من روايتى الفاجعة قال :

«مسكين ميرونوف ! يؤسفنى مصرعه . لقد كان ضابطا مقداما . وكانت مدام ميرونوف سيدة نبيلة ، وماهرة فى تخليل الفطر ! وكيف ماشا ابنة الآمر ؟» اجبته بانها بقيت فى القلعة تحت رعاية زوجة القس . ردد الجنرال : «أى ، أى ، أى ! هذا سىء ، سىء جدا . لا يمكن الاعتماد ابدا على سلوك اللصوص . ماذا سيكون من أمر هذه الفتاة المسكينة ؟» اجبت بأن قلعة بيلوغورسك غير بعيدة ، ومن الارجح أن فخامته سيسرع فى ارسال القوات لتحرير أهاليها المساكين . هز الجنرال رأسه فى تشكك . وقال : «سنرى ، سنرى . سيكون لنا الوقت للتحدث عن ذلك . أرجو التفضل لتناول الشاى عندى : اليوم سيعقد مجلس حربى فى بيتى . وفى وسعك ان تدلى لنا بمعلومات دقيقة عن هذا الصعلوك بوغاتشوف ، وعن قواته . والآن اذهب لتنال بعض الراحة» .

ذهبت الى المسكن الذى خصص لى ، حيث وجدت سافيليتش منشغلا فى تنظيمه ، وأخذت انتظر بنفاد صبر الوقت المحدد . والقارئ يستطيع ان يتصور بسهولة أننى لم أتوان عن حضور مجلس لا بد ان يكون له تأثير كبير فى مصيرى . فى الساعة المحددة كنت عند الجنرال .

وجدت عنده أحد موظفى المدينة هو ، على ما اذكر مدير الجمارك ، وهو رجل عجوز سمين مورد الخدين يرتدى قفطانا من الحرير المقصب . شرع يسألنى عن مصير ايفان كوزميتش الذى سماه عراب اولاده ، وكان لا يفتأ يقطع كلامى بأسئلة اضافية ، وملاحظات تهذيبية اذا لم تكن قد أظهرته بمظهر رجل عليم فى الشؤون العسكرية ، فانها ، على اقل تقدير ، نمت عن نفاذ بصيرة ونباهة فطرية . وخلال ذلك كان المدعوون الاخرون قد حضروا ولم يكن بينهم عسكرى آخر غير الجنرال نفسه . وعندما جلس الجميع ووزعت عليهم اقداح الشاى عرض الجنرال وضع الأمور بوضوح شديد واطناب . واستمر يقول: «والآن ، ايها السادة ، ينبغى ان نقرر كيف يجب ان نتصرف مع العصاة ، وهل نتخذ طريقة **الهجوم** ام **الدفاع** ؟ فان لكل واحدة من هاتين الطريقتين منافعها ومضارها . وطريقة الهجوم تتيح املا اكبر فى دحر

سريع للعدو ، بينمـــا طريقـــة الدفاع أوثق وأكثر ضمانا ... والآن لنبدأ بجمع الاصوات حسب الطريقة القانونيـــة ، اى ان نبدأ من ذوى الرتب الصغيرة بيننا» . وهنا التفت الى الجنرال وسألنى : «ايهـــا السيد الملازم ، ارجو التفضل بابداء رأيك» .

نهضت ، ووصفت بكلمات مختصرة بوغاتشوف وعصابته فى بادئ الأمر ، ثم قلت مؤكدا ان الدعى لا يملك القدرة على مقاومة السلاح النظامى .

استقبل الضيوف رأيى بسلبية واضحة . وقد وجدوا فيه تهور شاب وجسارته . وارتفع لغط ، وسمعت بوضوح كلمة «حدث غر» يتفوه بها أحدهم بصوت خفيض . التفت الى الجنرال ، وقال مبتسما : «ايها السيد الملازم ! فى العادة تكون الاصوات الاولى فى المجالس العسكرية لصالح العمليات الهجومية ، وهذا أمر مشروع . والآن لنواصل جمع الاصوات . السيد الملاحظ ! قل لنا رأيك !

اسرع العجوز ذو القفطان المقصب بافراغ بقية قدحه الثالث المطعم بكمية كبيرة من الروم ، واجاب الجنرال : «لا اعتقد ، يا صاحب الفخامة ، بضرورة الأخذ بطريقة الهجوم او الدفاع» .

اعترض الجنرال مندهشا :

ــ وكيف ذلك ، يا حضرة الملاحظ ؟ لا توجد فى التكتيك الحربى غير طريقتين :

الهجومية ، والدفاعية ...

ــ جربوا طريقة الارشاء .

ــ إخ ــ إخ ــ إخ ! رأيك معقول جدا . فان التكتيك الحربى يبيح طرق الارشاء ، وسنستفيد من نصيحتك . ربما سنضع مبلغ سبعين روبلا وحتى مائة من المخصصات السرية مكافأة لكل من يأتينا برأس الصعلوك ...

فبادر مدير الجمارك يقول :

ــ سأكون خروفا قيرغيزيا لا ملاحظا اذا لم يسلم هؤلاء اللصوص رئيسهم مشدود اليدين والرجلين .

رد الجنرال :

ــ سنفكر بذلك ونتحدث مرة أخرى . وعلى كل حال يجب ان نتخذ تدابير عسكرية تحسبا لكل طارئ . أيها السادة ، قدموا اراءكم ، حسب التسلسل القانونى .

وظهر ان جميع الاراء تخالف رأيى . فقد تحدث جميع الموظفين مبلغين عن عدم اطمئنانهم الى القوات ، وعدم وثوقهم فى النجاح ، وعن الحذر وما شابه ذلك . ورأى الجميع ان البقاء تحت حماية المدافع ، وراء السور الحجرى القوى ، اصوب من الخروج الى الارض الفضاء لنجرب حظنا فى السلاح .

وعندما فرغ الجنرال من سماع كل الاراء أخيرا ، نفض الرماد من غليونه ، والقى الكلمة التالية :

ـ ايها السادة ! يجب ان أعلن لكم انى من جانبى متفق تمام الاتفاق مع رأى السيد الملازم ، لأن رأيه مستند الى جميع اصول التكتيك الحربى السليم الذى يفضل دائما تقريبا الحركات الهجومية على الحركات الدفاعية .

وهنا توقف ، وأخذ يحشو غليونه . وشعرت بأن كبريائى قد انتصرت ، فنظرت بأنفة الى الموظفين الذين كانوا يتهامسون فيما بينهم مظهرين الامتعاض والقلق .

أطلق الجنرال نفثة كثيفة من دخان التبغ مع زفير عميق ، وقال :

ـ ولكننى ، يا سادة ، لا اجرؤ على ان آخذ على عاتقى مسؤولية عظيمة حتى يكون الأمر متعلقا بسلامة الاقاليم التى وضعتها مولاتى جلالة الامبراطورة الموقرة فى عهدتى . ولهذا فسآخذ بغالبية الاراء التى اقرت بأن اصوب وآمن طريقة هو التحصن داخل المدينة فى انتظار الحصار ، وصد العدو بقوة المدفعية و(فى حالة الامكان) باشتباكات محدودة ايضا .

نظر الموظفون الى بدورهم نظرات ســـاخرة . وأنفض المجلس . ولم استطع ان امنع نفسى من الاسف على ضعف هذا المحارب المحترم الذى قرر خلافـــا لاقتناعه الشخصى أن يأخذ برأى أناس جهلـــة غير مجربين .

بعد انقضاء عدة ايام على هذا المجلس المشهود عرفنا ان بوغاتشوف قد اقترب من اورنبورغ بارا بوعده . شاهدت قوة المتمردين من أعلى ســـــور المدينة . وبدا لى ان عددهم قد ازداد عشر مرات منذ الغارة الأخيرة التى شهدتها . وكانت معهم المدفعية التى اخذها بوغاتشوف من القلاع الصغيرة التى أحتلها . وطاف فى ذهنى قرار المجلس العسكرى فتنبأت بحصار طويل الاجل داخل اسوار اورنبورغ ، وكدت ابكى من الاسى .

لا اريد ان اصف حصـــار اورنبورغ فهو من اختصاص المؤرخ ، ولا يخص مذكرات عائلية . بل اقول باختصار ان هذا الحصار كان ، بسبب تراخى القيادة المحلية ، وبالا على الاهالى الذين عانوا الجوع ومختلف الويلات . فى وسع المرء ان يتصور بسهولة ان الحياة فى اورنبورغ كانت لا تطاق الى اقصى حد . فكان الجميع ينتظرون بجزع حكم القدر عليهـــم ، ويتوجعون من غلاء الاسعار الذى كان فظيعـــا فى

الواقع . اعتاد الاهالى على القنابل المتطايرة الى افنية دورهم ، وحتى هجمات بوغاتشوف لم تعد تثير اهتمام العامـــة . ضجرت ضجرا قاتلا . ومضى الزمن . ولم اتلق رسائل من قلعة بيلوغورسك . فقد كانت جميع الطرق مقطوعة . ولم اعد احتمل الافتراق عن ماريا ايفانوفنا . وعذبنى جهلى بمصيرهـــا . وكان ركوب الحصان سلوتى الوحيدة . فقد تكرم بوغاتشوف على بحصان جيد كنت اقاسمه طعامى الشحيح ، واخرج به كل يوم خارج المدينة اتبادل اطلاق الرصاص مع فرسان بوغاتشوف . وكانت الغلبة فى هذه المناوشات عادة من نصيب هؤلاء الاشرار الشباع ، السكارى ، الممتطين خيولا جيدة . وكانت فرقة الخيالـــة نصف الجائعة فى المدينة لا تستطيع التغلب عليهم . وكان مشاتنا الجائعون يخرجون فى بعض الاحيـــان الى الميدان ، الا ان الثلج العميق كان يعيق عملهم بنجاح ضد فرسان العدو المبعثرين . وكانت مدفعيتنا تهدر عبثا من فوق السور ، اما فى الحقل فقد كانت تتعصى ولا تستطيع حراكا بسبب هزال الخيول التى تجرها . تلك هى صورة عملياتنا الحربية ! وهذا ما سمـــاه موظفو اورنبورغ بالحذر والتبصر !

ذات مرة أفلحنا بطريقة ما فى تفريق ومطاردة حشـــد كثيف جدا ، والتقيت بقوزاقى تخلف عن

زملائه ، وتهيأت لضربه بسيفى التركى ، واذا به يخلع قبعته فجأة ، ويهتف :

ـ مرحبا ، يا بيتر اندرييفيتش ! كيف انت ، حفظك الله ؟

نظرت اليه فعرفت أنه ضابط صفنا . سررت به سرورا بالغا . قلت له :

ـ مرحبا ، يا مكسيميتش . هل مضى وقت طويل على خروجك من قلعة بيلوغورسك ؟

ـ لا ، يا سيد بيتر اندرييفيتش . بالأمس فقط . وأنا احمل لك رسالة .

هتفت وقد تأجج كيانى كله انفعالا :

ـ اين هى ؟

اجاب مكسيميتش واضعا يده على صدره :

ـ معى . وعدت بالاشا ان أوصلها اليك بطريقة ما .

وقدم لى ورقة مطوية . وولى مخبا على فرسه فى الحال . بسطت الورقة ، وقرأت السطور التالية بلهفة :

«قضى الله ان افقد أبى وأمى فجأة . وليس لى فى الدنيا لا اقارب ، ولا حام . وانا ألجأ اليك عارفة بأنك كنت دائما ترجو لى الخير ، وبأنك مستعد لاعانة كل انسان . ادعو الله ان تصلك

هذه الرسالة بطريقة ما ! فقد وعد مكسيميتش بان يوصلها لك . سمعت بالاشا من مكسيميتش ايضا انه كثيرا ما يراك من بعيد فى المناوشات ، وأنك لا تحافظ على نفسك ، ولا تفكر بالذين يدعون الرب لحفظك والدموع فى عيونهم . لزمت فراش المرض طويلا ، وعندما تماثلت الى الشفاء أجبر الكسى ايفانوفيتش الذى احتل مكان أبى فى آمرية القلعة الأب غيراسيم على ان يسلمنى له بعد ان هدده ببوغاتشوف . وأنا الآن اعيش فى بيتنا تحت الحراسة . والكسى ايفانوفيتش يلح على بالزواج منه . ويقول انه انقذ حياتى لأنه لم يكشف عن خداع اوكولينا بامفيلوفنا التى زعمت للاشرار بأننى ابنة اخيها . أما انا فالموت اخف على من ان اكون زوجة لرجل من مثل الكسى ايفانوفيتش . انه يعاملنى معاملة قاسية جدا ، ويتوعدنى بارسالى الى معسكر الدعى اذا لم اغير فكرى ، واوافق . وعندئذ سيكون مصيرى مثل مصير ليزافيتا خارلوفا المخطوفة . رجوت الكسى ايفانوفيتش ان يمهلنى لأفكر فى الامر . فوافق على ان ينتظر ثلاثة ايام اخرى ، واذا لم اتزوجه بعدها فلن يرأف بى . عزيزى بيتر اندرييفيتش ! انت الحامى الوحيد لى ، فدافع عنى ، أنا المسكينة . اطلب الى الجنرال وجميع امراء الوحدات بان يرسلوا لنا نجدة فى اقرب وقت ممكن ، وتعال انت ايضا ، اذا

امكنك ذلك . وسأظل مطيعـــة لك . اليتيمـــة المسكينة

ماريا ميرونوفا» .

كدت افقد صوابى حين فرغت من الرسالـــة . انطلقت فى المدينة هامزا جوادى المسكين بلا رأفة . وفى الطريق قلبت فى ذهنى مختلف الافكار لانقاذ الفتاة المسكينة . ولم استقر على واحدة . فى المدينة توجهت رأسا الى بيت الجنرال ، ودخلت عليه راكضا .

كان الجنرال يذرع الغرفة جيئة وذهوبا مدخنا غليونـــه المصنـــوع من معدن خاص . وحين رآنى توقف . والراجح ان منظرى قد اذهله فأستفسر باهتمام عن سبب قدومى العجول هذا . قلت له :

ــ يا صاحب الفخامة ، ألجأ اليك كما يلجأ الابن الى والده . بحق الرب لا ترفض رجائى : فان الامر يتعلق بسعادة حياتى كلها .

سأل العجوز مندهشا :

ــ ما هو الأمر ، يا بنى ؟ ماذا فى وسعى ان افعل لك ؟ تكلم .

ــ يا صاحب الفخامة ضعنى على رأس سرية من الجنود وخمسين من القوزاق ، واتركنى احرر قلعـــة بيلوغورسك .

حدق الجنرال بى متفرسا ، ظانا ، فى الغالب ، أننى قد جننت (وهو لم يكن فى ذلك مجانبا للصواب تقريبا) .

قال الجنرال اخيرا :

ــ كيف هذا ؟ تحرر قلعة بيلوغورسك ؟

اجبت بحماس :

ــ أتعهد لك بأن انجح شرط ان تأذن لى .

قال الجنرال هازا رأسه :

ــ لا ، ايها الشاب . على هذه المسافة الطويلة يستطيع العدو بسهولة ان يقطع عليكم الاتصال بالنقطة الاستراتيجية الرئيسية ، وينتصر عليكم انتصارا تاما . والاتصال المقطوع . . .

وفزعت وانا أراه منجذبا فى مناقشات عسكرية ، فاسرعت اقاطعه قائلا :

ــ ابنة الآمر ميرونوف كتبت لى رسالة تطلب فيها النجدة . شفابرين يجبرها على الزواج منه .

ــ حقا ؟ أوه ، ان شفابرين هذا Schelm * كبير اذا وقع فى قبضتى امرت بمحاكمته خلال اربع وعشرين ساعة ، وسنعدمه رميا بالرصاص على سور القلعة ! ولكن ينبغى التزام الصبر الآن . . .

---

* محتال . (بالالمانية .)

صحت خارجا عن اطوارى :

ـ التزام الصبر ! وهو خلال ذلك يتزوج ماريا ايفانوفنا ! . .

فرد الجنرال :

ـ أوه ! ليست هذه بلية . الافضل لهـــا فى الوقت الحاضر ان تكون زوجة شفابرين . فقد يكون حاميا لها ، وعندما نعدمه ستجد لها خطابا كثيرين بحمد الله . فان الارامل الحلوات لا يبقين بلا ازواج ، أى اريد ان اقول ان الارملة تلقى زوجـــا اسرع من الفتاة .

قلت فى جنون :

ـ افضل الموت على ان اتركها لشفابرين !

قال العجوز :

ـ با ، با ، با ، با ! آلآن افهم . الظاهر انك تعشق ماريا ايفافوفنا . آوه ، هذا شىء آخر ! مسكين انت ! ومع ذلك لا استطيع ان اعطيك سرية من الجنود وخمسين قوزاقيا . فان هذه الحملة لن تكون معقولة . ولا أستطيع ان اتحمل مسؤوليتها .

نكست رأسى ، وتملكنى اليأس . وفجأة خطرت فكرة فى رأسى . والقارئ سيرى جوهر هذه الفكرة فى الفصل التالى ، على حد ما يقوله الروائيون القدامى .

الفصل الحادى عشر

قرية العصاة

عندئذ شبع الأسد ،
ورغم طبعه الضارى .
سال برقة :
« لماذا انت فى عرينى ؟ »
أ . سوماروكوف *

تركت الجنرال واسرعت الى مسكنى . قابلنى سافيليتش بعتابه المعتاد « كأنك تجد لذة فى مصاولة اللصوص السكارى ! أهذا عمل السادة ؟ لعبة خطرة ستسلمك الى الهلاك بلا سبب . لو كنت تحارب الاتراك او السويديين فذلك شىء آخر ، اما هذا فلا اعرف ما هو » .

قطعت كلامه بسؤال : كم مجموع ما عندى من النقود ؟ اجاب بلهجة راضية مرضية : « ما فيه الكفاية . رغم ان اللصوص نبشوا كل شىء الا اننى استطعت ان أخفى شيئا » . وبهذه الكلمة أخرج من جيبه كيسا طويلا محاكا ، مملوءا بالنقود الفضية . قلت له :

---

* هذا الشعر من نظم بوشكين ، ولكنه نسبه الى سوماروكوف . **(الناشر .)**

«حسنا ، يا سافيليتش ، اعطني الآن نصف ما عندك ، وخذ البقية لك . أنا ذاهب الى قلعة بيلوغورسك» .

قال المربي الطيب مرتجف الصوت :

ـ يا عزيزي بيتر اندرييفتش ! اتق الله ، كيف يمكنك السفر في وقت يقطع فيه اللصوص كل الطرق ! اشفق على والديك على الأقل ، اذا كنت لا تشفق على نفسك . ما حاجتك الى السفر ؟ ولماذا ؟ انتظر قليلا ، فستأتي القوات ، وتقتنص اللصوص ، وعندئذ اذهب الى حيث تشاء من الجهات الاربع .

الا انني عزمت عزمي القاطع . رددت على العجوز :

ـ جدالك فات أوانه . يجب ان أسافر ، ولا استطيع الا ان اسافر . فلاتأس ، يا سافيليتش ، فالله رحيم ، ومن الممكن ان نلتقي . فلا تخجل ، ولا تبخل على نفسك . اشتر ما تحتاج اليه ، ولو بثلاثة اضعاف . فأنا اهبك هذه النقود . واذا لم اعد خلال ثلاثة ايام ...

قاطعني سافيليتش :

ـ ما هذا ، يا سيد ؟ اسمح لك بالسفر وحدك! لا تطلب ذلك حتى في الحلم . اذا كنت قد عزمت على السفر ، فانا ذاهب وراءك ولو مشيا ، ولكن لن اتركك . لن أبقى بدونك وراء سور حجري ! وهل

فقدت عقلى لأفعل ذلك ؟ كما تريد ، يا سيد ، ولكن لن اتخلى عنك .

وعرفت ان الجدل مع سافيليتش لا يجدى نفعا . فسمحت له بالتهيؤ للسفر . وبعد نصف ساعة جلست على جوادى النجيب ، بينما امتطى سافيليتش كديشا نحيفا اعرج اعطاه أحد أهالى المدينة بلا ثمن ، وقد أعوزه المال لاطعامه . ذهبنا الى بوابة المدينة ، وسمح لنا الحرس بالسفر ، فخرجنا من اورنبورغ .

بدأ الظلام يهبط . كان طريقى يمتد على مقربة من قرية بيردسك ، مأوى انصار بوغاتشوف . كان الثلج قد ازال معالم هذا الطريق المستقيم ولكن آثار سنابك الخيل كانت ترى فى السهب كله متجددة كل يوم . وكنت أنطلق عدوا . وكان سافيليتش ورائى لا يكاد يلحق بى ، هاتفا بين آونة وأخرى : «اقلل السير ، يا سيد ، بحق الرب . كديشى اللعين لا يستطيع ان يلحق بشيطانك الطويل القوائم . ما هذه العجالة ؟ لسنا ذاهبين الى وليمة ، وقد تنتظرنا فأس . . . بيتر اندرييفيتش . . . عزيزى بيتر آندرييفيتش ! لا تدعنى اموت من القلق ! يارب القدرة ، سيهلك ابن الاسياد !»

وبعد قليل لمعت اضواء بيردسك . اقتربنا من الوهاد التى هى بمثابة تحصينات طبيعية لهذه القرية .

ولم يتأخر سافيليتش عنى ، مستمراً بتوسلاته المتشكية . كنت آمل ان اتخطى القرية بسلامة ، واذا بى أرى أمامى فى الظلمة زهاء خمسة فلاحين مسلحين بالهروات . كان هؤلاء الحراس الاماميين لهذه القرية البوغاتشوفية . صاحوا بنا . كنت لا اعرف كلمة السر فأردت ان أمر بهم صامتا . الا انهم احاطوا بى فى الحال ، وقبض احدهم على لجام فرسى . امتشقت الحسام ، وهويت به على رأس الرجل ، الا ان القبعة انقذته . ومع ذلك فقد ترنّح ، وأطلق اللجام من يده . واضطرب الآخرون ، وتشتتوا . انتهزت هذه اللحظة ، وهمزت جوادى ، وعدوت مرقلا .

كان من الممكن آن ينجينى جنح الليل المقترب ، الا اننى التفت فجأة ، فلم أر سافيليتش ورائى . ان العجوز المسكين لم يستطع ان يهرب من اللصوص بكديشه الاعرج . فماذا افعل ؟ آنتظرته بضع دقائق ثم تأكدت بأنهم قد قبضوا عليه . استدرت بحصانى ، وسرت لانقاذه .

حين وصلت الى الوهدة سمعت ضَجيجا ، وصيحات وصوت صاحبى سافيليتش . اسرعت فى السير ، وما هى آلا لحظة حتى رأيت نفسى من جديد بين الفلاحين الحراس الذين اوقفونى قبل دقائق . وكان سافيليتش بينهم . كانوا يجرون العجوز من فوق كديشه ،

ويتهيئون لشد وثاقه . سرهم مقدمى . فاندفعوا نحوى مرسلين الصيحات ، وبلمحة عين انزلونى من الحصان . وأعلن احدهم لنا ، وهو كبيرهم على ما يبدو ، بأنه سيقودنا الى القيصر فى الحال . واضاف : «مولانا حر فى ان يأمر بشنقكم الآن ، ام الانتظار حتى بزوغ الفجر» . لم اقاوم . وحذا سافيليتش حذوى ، وساقنا الحراس فى موكب ظافر .

سرنا عبر الوهدة ، ودخلنا القرية . كانت الانوار قد اضيئت فى كل البيوت ، والضجيج والصيحات تأتى من كل مكان . رأيت فى الشارع عددا كبيرا من الناس ، الا ان احدا لم يلحظنا بسبب الظلام ، ولم يعرف بأننى ضابط من اورنبورغ . قادونا رأسا الى بيت يقع فى زاوية عند مفترق طريق ، وضعت قرب بابه بضعة براميل من الخمر ، ومدفعان . قال احد الفلاحين : «هذا هو القصر . سيبلغ عنكما حالا» . ودخل البيت . القيت نظرة على سافيليتش . كان هذا العجوز يرسم علامة الصليب ، ويتلو دعاء فى سره . انتظرت طويلا حتى عاد الفلاح اخيرا ، وقال لى : «ادخل . مولانا أمر بادخال الضابط» .

دخلت البيت ، او القصر ، كما سماه الفلاحون . كان مضاء بشمعتين من الشحم ، وجدرانه مغطاة بورق مذهب ، بينما كان كل شيء فيه مثلما هو فى اى بيت

اعتيادى : المصاطب ، والمنضدة ، ومغسلة الايدى على حبل ، والفوطة معلقة بمسمـــار ، ومقبض الاوانى فى ركن ، وخشبة طويلة صفت عليهـــا القدور . كان بوغاتشوف جالسا تحت الايقونات ، فى قفطان أحمر ، وقبعة عالية ، متخوصرا بعظمة . وقد وقف بالقرب منه عدد من كبار رفاقه ، يلوح عليهم خضوع زائف . كان يبدو ان نبأ قدوم ضابط من اورنبورغ قد أثـار فضول المتمردين الشديد ، فاستعدوا للقائى باحتفال . عرفنى بوغاتشوف من النظرة الاولى . فاذا بعظمته الزائفة تختفى فجأة ، ويقول بادى الحيوية : «آ ، سيادتك ! كيف حالك ؟ ما الذى جاء بك الى هنا ؟» اجبت باننى كنت خارجا فى شأن من شؤونى ، وأن رجاله قـــد اوقفونى . فسألنى : «فى أى شأن ؟» لم اعرف بماذا اجيبه . فظن بوغاتشوف باننى لا اريد ان اوضح له فى حضور شهود ، فالتفت الى رفاقه ، وأمرهم بالخروج . اطاعه الجميع الا اثنين لم يتحركا من مكانيهما . قال بوغاتشوف : «خبرنى بحضورهما ولا تخف ، فانـــا لا أخفى عنهما شيئا» . حدجت كاتمى اسرار الدعى بنظرة جانبية . كان احدهما ، وهو عجوز ضئيل الجسم ، واهف البنيان ، مقوس الظهر ، أشيب اللحية ، لا يلفت النظر الا بشريط ازرق ملقى عبر كتفه على سترة رمادية . ولكن لن أنسى رفيقه طوال عمرى . كان فارع الطول ،

جسيما ، عريض المنكبين ، بدا لى فى نحو الخامسة والاربعين ، كانت له لحية كثة صهباء ، وعيناه رماديتان براقتان ، وأنف بلا منخرين ، وبقع محمرة منتشرة على جبينه وخديه ، وكل ذلك اضفى على وجهه المجدور العريض تعبيراً لا يوصف . كان يرتدى قميصا احمر ، ورداء قيرغيزيا ، وسروالا قوزاقيا . كان الاول (كما عرفت فيما بعد) هو العريف بيلوبرودوف ، والثانى افاناسى سوكولوف (الملقب بخلوبوشا) مجرم منفى هرب ثلاث مرات من مناجم سيبيريا . ان هذا المجمع الذى وجدت نفسى فيه مصادفة قد أسر انتباهى بقوة ، رغم المشاعر الحادة المعتملة فى داخلى . الا ان بوغاتشوف اعادنى الى الواقع بسؤاله : «قل لى فى أى شأن خرجت من اورنبورغ ؟»

طرأت فكرة غريبة فى رأسى ، فخيل الىّ ان العناية الآلهية التى قادتنى ثانية الى بوغاتشوف اتاحت لى فرصة تحقيق مبتغاى . فقررت أن اغتنمها . اجبت عن سؤال بوغاتشوف قبل ان يتسنى لى التروى فيما عزمت عليه :

ـ خرجت الى قلعة بيلوغورسك لأنقذ يتيمة تتعرض للاهانة هناك .

برقت عينا بوغاتشوف . فصاح : «من يجرؤ من رجالى على اهانة يتيمة ؟ لن يفلت من محاكمتى ، مهما بلغ من النباهة . قل لى : من المذنب ؟

اجبت :

ـ شفابرين المذنب . انه يحتجز تلك الفتاة التى رأيتها طريحة الفراش عند زوجة القس ، ويريد ان يتزوجها بالاكراه .

قال بوغاتشوف متوعدا :

ـ سألقى درسا قاسيا على شفابرين هذا . سأريه كيف يعاقب من يتحكم بالناس ويهينهم . سأشنقه .

قال خلوبوشا بصوت اجش :

ـ اسمح لى بكلمة . انك تسرعت فى تعيين شفابرين آمرا للقلعة ، اما الآن فأنت تتسرع فى شنقه . لقد أهنت القوزاق بتنصيب رجل من الاعيان رئيسا عليهم ، فلا تسخط الاعيان بشنق أحدهم من أول وشاية به .

قال العجوز ذو الشريط الازرق :

ـ لا حاجة الى الاشفاق عليهم او الى مجاملتهم ! وليس شنق شفابرين بمصيبة كبرى ، ولكن لا ضير فى استجواب حضرة الضابط استجوابا جيدا : لماذا جاء . فاذا كان لا يعترف بك قيصرا ، فلا حق له فى ان يسألك رفع ضيم ، اما اذا كان يعترف فلماذا هو باق فى اورنبورغ حتى اليوم مع خصومك ؟ هلا امرت بارساله الى مركز الادارة وتعذيبه . يبدو لى أنه مرسل الينا من امراء اورنبورغ .

بدا لى منطق الشرير العجوز مقنعا جدا . سرت القشعريرة فى جسدى حين فكرت بهؤلاء الذين وقعت فى قبضتهم . لاحظ بوغاتشوف اضطرابى . قال لى غامزا : «صحيح ، يا صاحب السيادة ؟ يبدو لى ان فيلدمارشالى على حق فيما يقول . فما رأيك ؟

أعادت سخرية بوغاتشوف الشجاعة الى نفسى . أجبت هادئا بأننى تحت سلطانه ، وانه حر فى ان يفعل بى ما يشاء .

قال بوغاتشوف :

ـ حسنا . والآن قل لى : ما هى حالة مدينتكم ؟

اجبت :

ـ فى خير ، والحمد لله .

كرر بوغاتشوف كلمتى :

ـ فى خير ؟ بينما الناس يموتون جوعا !

كان الدعى يقول الحقيقة ، ولكننى أخذت اؤكد له ، التزاما بيمين العسكرية ، بان كل ذلك شائعات فارغة ، وان فى اورنبورغ الكفاية من المؤن المختلفة .

فابتدر العجوز قائلا :

ـ ها انت تراه يخدعك فى وجهك . ان جميع اللاجئين يجمعون على تفشى المجاعة والوباء فى اورنبورغ ، وان الناس ياكلون البهائم الميتة ، وهم فى ذلك محظوظون ، بينما يؤكد لك سيادته ان هناك

الكفاية من كل شيء . فاذا كنت تريـــد ان تشنق شفابرين فأشنق هذا الشاب على نفس المشنقة ، فلا يشمت أحد بالآخر .

وبدا ان كلمات هذا العجوز الملعون قد فعلت فعلها في بوغاتشوف . ومن حسن الحظ ان خلوبوشا اخذ يعترض على كلام رفيقه وقال له :

ــ كفى ، يا ناؤوميتش . انت لا تحب الا الخنق والشنق . اى جبـار انت ؟ لا احد يعرف ، حين ينظر اليك ، كيف أنت باق على قيد الحياة . انت نفسك على حافة القبر ، بينما تقتل الآخرين . وهل الدماء التي في ذمتك قليلة ؟

اعترض بيلوبرودوف :

ــ اى ملاك رحيم انت ؟ من اين جاءتك هـذه الشفقة ؟

اجاب خلوبوشا :

ــ أنا ايضا آثم بالطبع ، وهذه اليد (وهنا شـــد قبضتـــه العظيمـــة ، ورفع كمه ، وكشف عن ذراع مشعرة) هذه اليد قد ارتكبت سفك دماء المسيحيين . ولكنني لم اقتل ضيوفـــا ، بل خصوما وهم في ملتقى الطرق الرحب ، وفي الغابة المظلمة ، لا في البيت جلوسا وراء الموقد ، وقد قتلتهم بالهراوة ، وظهر الفاس لا بوشاية النسوان .

اعرض العجـــــوز ، وتمتـــــــم : «ابـو الانف المجدوع !» ...

صاح خلوبوشا :

ـ ما الذى تتمتم به ، ايها المتذمر العجوز ؟ سأريك ماذا يعنى «ابو الانف المجدوع» . انتظر ، وسيأتى وقتك ، ان شاء الله ، وستجرب المصيبة على جلدك ... والآن أحذر ان انتف لحيتك !

هتف بوغاتشوف بعظمة :

ـ يا حضرات الجنرالات ! كفى مشاجرة ! ليس من المصيبة ان تعلق كلاب اورنبورغ كلها فى مشنقة واحدة . بل المصيبة ان تتعاضض كلابنا فيما بينها . هيا ، تصالحا .

لم ينطق خلوبوشا ولا بيلوبرودوف بكلمــــــة واحدة ، ونظر أحدهما الى الاخر بعبوس . فوجدت من الضرورى تحويل الحديـــــث الذى كان من الممكن ان ينتهى بالنسبة لى نهاية ليست فى صالحى تماما ، فالتفت الى بوغاتشوف وقلت له مرحا : «آه ! كدت انسى ان اشكرك على جوادك والمعطف . لولاك لما وصلت الى المدينة ، ولتجمدت فى الطريق» .

نجحت حيلتـــــى انشرحت اساريـــر بوغاتشوف وقال غامزا مقلصا عينيه : «دين الحر مردود . والآن

قل لى ما شأنك بتلك الفتاة التى يسيىء لها شفابرين ؟ أليست هى حبيبة قلب الفتى الميتم ؟ ها ؟» .

ـ انها خطيبتى .

اجبت بوغاتشوف بذلك ، وقد رأيت الجو يتغير لصالحى، ولم أجد ضرورة لاخفاء الحقيقة . صاح بوغاتشوف :

ـ خطيبتك ؟ ولماذا لم تقل من قبل ؟ سنزوجك اذن ، ونحتفل بزفافك ـ ثم تحول الى بيلوبرودوف ، وقال ـ اسمع ، يا فيلدمارشال ! أنا وسيادته صديقان قديمان . لنجلس ونتعش . والصباح احكم من المساء . غدا سنرى ماذا نفعل به .

وددت لو أرفض هذا الشرف ، ولكن لم يكن منه بد . غطت فتاتان قوزاقيتان ، هما ابنتا صاحب البيت ، المائدة بمفرش ابيض ، وجلبتا الخبز ، وحساء السمك ، وبعض قارورات النبيذ والجعة ، ووجدت نفسى مرة ثانية على مائدة واحدة مع بوغاتشوف ورفاقه الرهيبين .

استمرت الوليمة ، التى اشتركت فيها مضطرا ، الى هزيع متأخر من الليل .واخيرا اخذ السكر يتعتع الندماء . هوّم بوغاتشوف ، وهو جالس فى مكانه . نهض رفاقه ، وافهمونى بالاشارة ان اتركه . خرجت معهم . وبأمر من خلوبوشا قادنى الحارس الى مركز

الادارة ، حيث وجدت سافيليتش هناك ، وحيث حجزوني معه وراء الاقفال . كان المربي مذهولا جدا من كل ما حدث ، فلم يطرح عليّ اى سؤال . استلقى في الظلام وتحسر وتأوه وقتا طويلا حتى شخر اخيرا . بينمـــا استسلمت انا للتأملات ، التي لم تدعني اغفـــو طوال الليل .

في الصباح جاءوا في طلبي باسم بوغاتشـــوف . فذهبت اليه . فرأيت عربته تقف عند الباب وقد شدت اليها ثلاثة خيول تتريـــة . وكان الناس يتجمهرون في الشارع . قابلت بوغاتشوف في الرواق . كان يرتدي ثياب السفر : فروة وقبعة قيرغيزية . وكان ندمـــاء البارحة يحيطون به ، متخذين مظهر الخضـــوع الذي كان يناقض بشدة كل ما شهدته البارحة . حيـــاني بوغاتشوف بمرح ، وأمرني بأن أجلس معه في العربة . جلسنا . قال بوغاتشوف للتتري العريض الكتفين الذي كان يسوق الخيـــول واقفـــا : « الى قلعـــة بيلوغورسك ! » خفق قلبي بشدة . تحركت الخيول ، رن الجرس ، وانطلقت العربة ...

ارتفع صوت مألوف جـــدا لي : « قف ! قف ! » ورأيت سافيليتش يركض للقائنا . أمر بوغاتشوف بالتوقف . هتف المربي : « عزيزي ، بيتر اندرييفيتش ! لا تتركني في شيخوختي بين هؤلاء المحتـ ... » . قـــال

بوغاتشوف له : «أهذا انت ، ايها المتذمر العجوز ! مرة أخرى يكتب الله لى ان أراك . حسنا ، اجلس مع السائق» .

قال سافيليتش وهو يتخذ مجلسه :

ــ شكرا ، يا قيصر ، شكرا يا مولاى ! جعلك الله تعيش مائة عام فى عافية ، جزاء على اعتنائك بى وتطمينك لى ، أنا العجوز . سأدعو الله لك طوال عمرى ، ولن اذكر بعد الآن المعطف من فراء الارنب .

كان ذكر معطف فراء الارنب هذا يمكن ان يغضب بوغاتشوف فى هذه المرة بصورة جدية . الا ان الدعى ، من حسن الحظ ، اما لم يسمع جيدا ، واما أهمل هذا التلميح النابى . انطلقت الخيول ، وكان الناس يتوقفون فى الشارع ، وينحنون الى وسطهم . وكان بوغاتشوف يحنى رأسه يمينا ويسارا . وبعد دقيقة خرجنا من القرية ، وانطلقنا فى طريق ممهد .

من السهل ان يتصور المرء احساسى فى تلك البرهة . بعد بضع ساعات سألتقى بتلك التى اعتبرتها مفقودة بالنسبة لى . وتخيلت لحظة التقائنا ... كما فكرت بالرجل الذى كان يمسك مصيرى فى يده ، والذى صرت مرتبطا به ارتباطا غامضا بسبب تشابك الظروف العجيبة . وتذكرت القسوة المتهورة ، والعادات المتعطشة للدم التى اعتادها هذا الذى ندب ليكون منقذ

حبيبتى ! لم يكن بوغاتشوف يعرف أنها كانت ابنة الآمر ميرونوف . كان فى وسع شفابرين فى ساعة الغيظ ان يكشف كل شيء . وكان من الممكن ان يعرف بوغاتشوف الحقيقة بطريقة اخرى ... عندئذ ماذا سيبقى من ماريا ايفانوفنا ؟ سرت البرودة فى جسدى ، ووقف شعر رأسى ...

وفجأة قطع بوغاتشوف تأملاتى حين توجه الى بسؤال :

ـ عم تفكر ، يا صاحب السيادة ؟

اجبت :

ـ وكيف لا افكر ؟ انا ضابط ، ومن الاعيان . وبالأمس فقط كنت أحارب ضدك ، اما اليوم فأركب معك عربة واحدة ، وسعادة حياتى برمتها متوقفة عليك .

سأل بوغاتشوف :

ـ وهو يخيفك ذلك ؟

اجبت بأننى ، وقد عفا عنى ذات مرة ، آمل لا فى رحمته فقط ، بل وفى مساعدته آيضا .

اجاب الدعى :

ـ انت على حق ، والله ، على حق ! لقد رأيت رجالى ينظرون اليك شزرا ، والعجوز اصر اليوم ايضا على انك جاسوس ، يجب ان تعذب وتشنق . الا اننى

لم اوافق . ـ واضاف ، وقد خفض صوته لكيلا يسمعه سافيليتش والتترى ـ لاننى اذكر قدح الخمر الذى قدمته لى والمعطف من فراء الارنب . وها انت ترى أننى لست سفاحا كما يتصور اخوانك .

تذكرت الاستيلاء على قلعة بيلوغورسك ، ولكن لم أر ضرورة لمناقشته ، ولم اجب بأية كلمة .

سأل بوغاتشوف بعد ان صمت قليلا :

ـ ماذا يقولون عنى فى اورنبورغ ؟

ـ يقولون ان التغلب عليك ليس بالأمر السهل . والحق يقال ان صيتك قد ذاع .

وأرضى غرور الدعى . وظهر ذلك على وجهه . فقال بادى المرح :

ـ نعم ! انا احسن القتال . هل يعرف الناس عندكم فى اورنبورغ المعركة قرب قلعة يوزييفايا ؟ قتلنا اربعين جنرالا ، واسرنا اربعة جيوش . ما رأيك ، فهل استطاع ملك بروسيا ان يصاولنى ؟

وبدا لى تباهى قاطع الطريق فكاهة . قلت له :

ـ وأنت ما رأيك ؟ هل تستطيع التغلب على فريدريك ؟ *

---

* الملك البروسى فريدريك الثانى ، ابن فريدريك ولهيلم . (**الناشر** .)

ـ على فيودور فيودوروفيتش * ؟ وكيف لا ؟ فأنا اتغلب على جنرالاتكم ، بينما هم قد تغلبوا عليه . انا سعيد الحظ مع سلاحى حتى الآن . انتظر قليـــلا ، وسأقوم باعمال جبارة حين ازحف على موسكو .

ـ وهل تريد الزحف على موسكو ؟

فكر الدعى قليلا ثم قال بصوت خافض :

ـ الله يعلم . طريقى ضيق والحرية قليلـــة . ورجالى يتحذلقون . انهم لصـــوص . ويجب ان التزم جانب الحذر ، فانهم لدى اول هزيمة سيبيعون رأسى مقابل نجاتهم .

قلت لبوغاتشوف :

ـ حقا ! اليس من الافضل لك ان تنصرف عنهم بنفسك فى الوقت المناسب وتلتمس عفو القيصرة ؟

ابتسم بوغاتشوف بمرارة . وقال :

ـ لا . فـــات أوان النـــدم . لن يعفى عنى . وسأستمر كما بدأت . ومن يدرى ؟ قد انجح ! فقد حكم غريشكا اتريبيف موسكو .

ـ ولكنك تعرف بم انتهى ؟ رموه من النافذة ، ومزقوه ، واحرقوه وعبأوا برماده احد المدافـــع ، واطلقوه !

---

* غيّر بوغاتشوف اسم الملك البروسى فريدريك الثانى على الصيغة الروسية بالتسمية سخرية به . (**الناشر .**)

قال بوغاتشوف بالهام وحشى :

ــ اسمع ! سأقص عليك حكاية روتها لى كالميكية عجوز وأنا صبى . ذات مرة سأل نسر غرابا : قل لى ، ايها الغراب ، لماذا تعيش انت فى الدنيا ثلثمائة عام ، بينما لا اعيش أنا غير ثلاثة وثلاثين عاما ؟ أجابه الغراب : لأنك يا صاحبى ، تشرب الدم الحى ، بينما أنا آكل الفطيسة . فكر النسر ثم قال : يجب ان احاول أكل نفس الطعام . حسنا . وطار النسر والغراب . ورأيا حصانا فاطسا . فهبطا وحطا . أخذ الغراب ينقر ، ويتلذذ ، بينما نقر النسر مرة وأخرى ، ورف بجناحيه ، وقال للغراب : لا ، يا عزيزى الغراب ، ان اشرب مرة دما حيا خير من ان اتغذى ثلاثمائة عام على الميتة ، والغيب عند ربى ! فما رأيك بهذه الحكاية الكالميكية ؟

اجبته :

ــ طريفة . ولكن العيش بالقتل والنهب هو فى رأيى مثل العيش على الميتة .

نظر بوغاتشوف الىّ بدهشة ، ولم يجب بشىء . وصمت كلانا غارقا فى افكاره . أخذ التترى ينشد اغنية حزينة ، وكان سافيليتش يهتز على مقعد الحوذى مهوّما . انطلقت العربة فى الطريق الشتائية الملساء ... وفجأة رأيت قرية صغيرة على الشاطئ المرتفع لنهر يايك ، بسياجها وبرج جرسها . وبعد ربع ساعة دخلنا قلعة بيلوغورسك .

الفصل الثانى عشر

اليتيمة

مثل شجرة التفاح عندنا
لا رأس لها ولا فروع ؛
ومثل اميرتنا الصغيرة
لا اب لها ولا أم .
ولا أحد يعتنى بها
ولا أحد يباركها .
اغنية اعراس

وصلت العربة الى مدخل بيت الآمر . عرف الناس جرس عربة بوغاتشوف ، فركضوا وراءها . استقبل شفابرين الدعى عند المدخل . كان يرتدى لباسا قوزاقيا ، وقد ارسل لحيته . أخذ الخائن يساعد بوغاتشوف فى الخروج من العربة ، معلنا بعبارات متذللة عن فرحه وحماسه . واضطرب حين رآنى ، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ، ومد يده الى قائلا : «انضممت الينا ؟ كان عليك ان تفعل ذلك من زمان !» اعرضت عنه ، ولم اقل شيئا .

توجع قلبى حين رأيت نفسى فى الغرفة المألوفة الى من زمان ، حيث ما تزال شهادة المرحوم الآمر معلقة فى

مكانها على الحائط ، وكأنها تذكار من الماضى . جلس بوغاتشوف على الاريكة التى كان يهوم عليهـــــا ايفان كوزميتش من قبل ، تهدهده دمدمة زوجته . جلـــب شفابرين بنفسه الفودكا له . احتسى بوغاتشوف قدحاً وقال له مشيرا الى : «قدم لصاحب السيادة آيضا» . تقدم شفابرين بصينيته ، الا اننى اعرضت عنه ثانية . كان يبدو فى غير اطواره . فقد حدس طبعا بفطنتـــه الخاصة به آن بوغاتشوف لم يكن راضيا عنه . فجبن أمامه ، وراح ينظر الىّ بتشكك . استفسر بوغاتشوف عن الوضع فى القلعة ، وعن الشائعات حول قوات العدو ، وما شابه ذلك . وفجأة سأل على غير انتظار :

ــ قل لى ، يا اخ ، من هذه الفتاة التى تسجنها عندك ؟ ارنى اياها .

ران على شفابرين شحوب الموت . قال بصوت مرتجف :

ــ مولاى ، مولاى . انها ليست سجينة ... بل مريضة ... وهى راقدة فى الغرفة .

ــ دلّنى اين هى .

قال الدعى ذلك ، ونهض من مكانه . وكان مـــن المستحيل صده . قاده شفابرين الى ماريا ايفانوفنا . فتبعتهما .

توقف شفابرين على الدرج . وقال :

ــ مولاى ، لك الأمر فى ان تطلب منى ما تشاء ، ولكن لا تسمح لغريب ان يدخل فى مخدع زوجتى .

سرت الرجفة فى اوصالى .

قلت لشفابرين ، وانا مستعد لتمزيقه :

ــ تزوجت !

قاطعنى بوغاتشوف قائلا :

ــ اسكت ! هذا شىء يخصنى ــ ومضى يقول مخاطبا شفابرين ــ أما انت فلا تتحذلق ولا تتحجج . فسواء كانت زوجتك ام لا فأنا حر فى ان ادخل عليها من أشاء . اتبعنى ، يا صاحب السيادة .

توقف شفابرين عند باب الغرفة مرة اخرى ، وقال بصوت متقطع :

ــ مولاى ، انبهك الى أنها فى وهج الحمى ، وهى تهذى منذ ثلاثة أيام دون توقف .

قال بوغاتشوف :

ــ افتح !

اخذ شفابرين يبحث فى جيوبه ، وقال انه لم يأخذ المفتاح معه . دفع بوغاتشوف الباب بقدمه ، فأفلت القفل ، وانفتح الباب . فدخلنا .

نظرت ، ودارت الدنيا فى عينى . كانت ماريا ايفانوفنا تجلس على الارض مرتدية ثوبا مقطعا من ثياب الفلاحات ، وقد شحبت ونحلت ،

وتشعث شعرها . وكانت أمامها جرة ماء مغطاة بقطعة من خبز . وحين رأتني جفلت وصرخت . ولا اتذكر الآن ماذا حدث لى آنذاك .

نظر بوغاتشوف الى شفابرين ، وقال بسخرية مريرة :

ـ عندك مستشفى ممتاز ـ ثم اقترب من ماريا ايفانوفنا ، وقال : ـ قولى لى ، يا عزيزتى ، لماذا يعاقبك زوجك هذا العقاب ؟ ماذا اجرمت فى حقه ؟

قالت مكررة :

ـ زوجى ! ما هو بزوجى . ولن اكون له زوجة ابدا . فضلت الموت على ذلك ، سأموت اذا لم يخلصنى أحد .

نظر بوغاتشوف الى شفابرين نظرة متوعدة ، وقال له :

ـ لقد تجاسرت على خدعى . اتعرف ايها العاطل ماذا تستحق ؟

ركع شفابرين على قدميه ... وفى تلك اللحظة غطى الاحتقار على كل مشاعر الكره والحنق فى نفسى . نظرت بامتعاض الى هذا النبيل الذى يركع على قدمى قوزاقى متشرد . خفت حدة بوغاتشوف ، وقال لشفابرين :

ـ اسامحك فى هذه المرة . ولكن اعرف ان أول جرم ترتكبه ستعاقب عليه وعلى هذا ايضا .

ثم تحول الى ماريا ايفانوفنا ، وقال لها برقة :

ــ اخرجى ، ايتها الانسة الجميلة . اهبـــــك الحرية ؛ أنا آلقيصر .

نظرت ماريا ايفانوفنا اليـــــه نظرة سريعة ، وحدست آن الرجل الماثل امامها هو قاتل والديها . غطت وجهها بكلتا يديها ، ووقعت مغشيا عليهـــا . اندفعت اليها ، ولكن فى تلك اللحظة اقتحمت صاحبتى القديمة بالاشا الغرفة بجرأة شديدة ، واخذت ترعى سيدتها . خرج بوغاتشوف من الغرفة ، وذهبنا نحن الثلاثة الى غرفة الضيوف .

قال بوغاتشوف ضاحكا :

ــ ماذا تقول ، يا صاحب السيادة ؟ انقذنـــا الانسة الجميلة ! فما رأيك فى ان نرسل فى طلـــب القس ، ونجعله يعقد قران ابنة اخ زوجته ؟ اظن اننى سأكون ابا للعريس ، وشفابرين شاهد الزواج . سنقوم بوليمة فى بحر من الخمر ونقفل الباب .

وهنا حدث ما كنت اخشاه . عندما سمـــع شفابرين اقتراح بوغاتشوف فقد السيطرة على نفسه . صاح بجنون :

ــ يا مولاى ! أنا مذنب فى أننى كذبت عليك ، ولكن غرينيف ايضا يخدعك . ان هذه الفتاة ليست

ابنة أخ زوجة القس ، بل هى ابنة ايفان ميرونوف الذى شنق عند الاستيلاء على هذه القلعة .

سدد بوغاتشوف الىّ عينيه الناريتين . وسأل متحيرا :

ــ ما يعنى هذا ؟

رددت بصلابة :

ــ قال شفابرين لك الحقيقة .

قال بوغاتشوف ، وقد اربد وجهه :

ــ أنت لم تقل لى ذلك .

اجبته :

ــ احكم بنفسك : هل كان فى الامكان ان أعلن بحضور رجالك ان ابنة ميرونوف حية ؟ لو فعلت لقطعوها اربا اربا ، ولما انقذها شىء !

قال بوغاتشوف ضاحكا :

ــ هذا حق . ما كان رجالى السكيرون يرحمون الفتاة المسكينة . احسنت زوجة القس حين خدعتهم .

مضيت اقول حين رأيت مزاجه الرائق :

ــ اسمع ، لا اعرف كيف اناديك ؟ ولا اريد ان اعرف ... ولكن الله يعرف اننى سعيد فى ان اضحى لك بحياتى جزاء ما فعلته لى . فقط الا تطالبنى بما يتنافى وشرفى وضميرى المسيحى . أنت محسنى . فأكمل ما بدأته ، واطلقنى وهذه اليتيمة المسكينة

نذهب الى حيث يشاء الله . وسنصلى لك كل يوم اينما كنت ومهما وقع لك ، داعين الرب لينقذ روحك الخاطئة ...

كان يبدو ان قلب بوغاتشوف الصـــارم قد تأثر . قال : «ليكن ما تريد ! عقابى صارم وعفوى سموح . تلك هى سجيتى . خذ حسنـــاءك ، واذهب بها الى حيث تشاء ، وليمنحكما الله الحب والرشد !»

وهنا تحول الى شفابرين ، وأمره ان يحرر لى اذنا فى كل مراكز الحراسة والقلاع التابعة له . كان شفابرين المذلول كليـــا يقف كالمصعوق . خرج بوغاتشوف ليتفقد القلعة . وصحبه شفابرين . وبقيت انا بحجة الاستعداد للسفر .

ركضت الى غرفة ماريا ايفانوفنا . كان الباب مغلقا . طرقته . فسألت بالاشا : «من الطارق ؟» ذكرت اسمى . صدر صوت ماريا ايفانوفنا الحلو من وراء البـــاب : «انتظر ، يا بيتر اندرييفيتش ، أنا اغير ملابسى . اذهب الى اوكولينا بامفيلوفنـــا . وسأحضر الى هناك حالا» .

اطعت امرها ، وتوجهت الى بيت الاب غيراسيم . خرج القس وزوجته كلاهما مسرعين للقائى ، فقـــد ابلغهما سافيليتش بمجيئى . قالت زوجـــة القس : «مرحبا . يا بيتر اندرييفيتش . شاء الله ان نلتقى

من جديد . كيف احوالك ؟ كنا نتذكرك كل يوم . أما ماريا ايفانوفنا ، عزيزتى ، فقد عانت الوان العذاب فى غيابك !.. ولكن قل لى ، يا بنى ، كيف تفاهمت مع بوغاتشوف ؟ كيف لم يفتك بك ؟ طيب شكرا لذلك الشرير ولو على ذلك» . فقاطعها القس : «كفى ، يا عجوز . لا تقولى كل ما تعرفين . الثرثرة تودى الى التهلكة . يا عزيزى ، بيتر اندرييفيتش ! ادخل ، ارجوك . لم نرك منذ مدة طويلة» .

راحت زوجة القس تطعمنى ما رزق الله ، وهى لا تكف عن الحديث . وحكت لى كيف اجبرهما شفابرين على تسليم ماريا ايفانوفنا له ، وكيف بكت ماريا ايفانوفنا ، ولم ترد مفارقتهما ، وكيف كانت ماريا ايفانوفنا تراسلها باستمرار عن طريق بالاشا (الفتاة المتقحمة التى جعلت ضابط الصف نفسه يرقص على نايها) . وكيف نصحت ماريا ايفانوفنا بان تكتب لى رسالة ، الى غير ذلك . وبدورى رويت لها قصتى بايجاز . رسم القس وزوجته علامة الصليب ، حين سمعا ان بوغاتشوف على علم بخداعهما . قالت اكولينا بامفيلوفنا : «كان المسيح فى عوننا ! يا رب دع السحابة تمر ! اما الكسى ايفانوفيتش ، والحق يقال فانه انسان سافل »! وفى تلك اللحظة فتح الباب ، ودخلت ماريا ايفانوفنا وعلى وجهها الشاحب

ابتسامة . كانت قد خلعت ثوب الفلاحات ، وارتدت ، على عادتها ، لباسا بسيطا لطيفا .

امسكت يدها ، وبقيت طويلا لا انطق بكلمة . صمتنا كلانا مما امتلأ به قلبانا . شعر مضيفانا بانصرافنا عنهما ، فتركانا . فبقينا وحيدين . نسينا كل شيء . وطفقنا نتحدث دون ان نشبع من الحديث . حدثتني ماريا ايفانوفنا عن كل ما وقع لها منذ الاستيلاء على القلعة ، ووصفت لى كل فظاعة وضعها ، وكل المحن التي ذاقتها على يد شفابرين المقيت . كما تذكرنا الماضي السعيد ... وبكينا كلانا ... واخيرا اخذت اوضح لها آرائى . كان من المستحيل تركها فى قلعة يسيطر عليها بوغاتشوف ، ويدير شؤونها شفابرين . كما لا يجوز التفكير فى اورنبورغ التي كانت تعانى كل ويلات الحصار . ولم يكن لها فى الدنيا قريب تأوى اليه . فعرضت عليها السفر الى ضيعة والدى . ترددت فى البداية . فقد كان يفزعها ما تعرفه من عدم ميل ابى اليها . هدأتها . فقد كنت اعرف أن ابى سيعتبر شرفا له ولزاما عليه ان يأوى ابنة محارب قدير سقط فى سبيل الوطن . وقلت لها اخيرا : «يا عزيزتى ماريا ايفانوفنا ! انا اعتبرك زوجتى . ان ظروفا مدهشة قد جمعتنا جمعا لا انفصام له : ولا شيء فى الدنيا قادر على تفريقنا» . اصغت

ماريا ايفانوفنا الىّ ببساطة ، وبدون خجل مصطنع ، ولا تمنعات زائفـــة . لقد شعرت بأن مصيرها قد ارتبط بمصيرى . الا انها ظلت تكرر انها لن تكون زوجتى بدون موافقة والدىّ . فلم اعارضها فى ذلك . وتعانقنا مقبلين احدنا الآخر بحرارة واخلاص ، وعلى هذا النحو تقرر كل شىء بيننا .

بعد ساعة احضر ضابط الصف أذن المرور لى موقعا بخربشة بوغاتشوف ، ودعانى اليه باسمه . وقد رأيته متهيئا للسفر . لا استطيع ان اوضح ما شعرت به ، وأنا افارق هذا الرجل الفظيع الغـــول والشرير للناس جميعـــا ما عداى . ولماذا لا اقول الحقيقة ؟ فى تلك اللحظة تملكنى تعاطف شديد نحوه . كنت اود بحرارة ان انتزعه من بين الاشرار الذين كان يترأسهم ، وانقذ رأسه ما دام الاوان لم يفت . منعنى شفابرين والناس المحتشدون بالقرب منا من ان افضى له بما يطفح به قلبى .

افترقنا بمودة . وحين وقع بصر بوغاتشـــوف على اكولينا بامفيلوفنا بين الحشد هز لها اصبـــع الوعيد ، وغمز لهـــا غمزة ذات معنى ، ثم جلس فى العربة ، وأوعز بالتوجه الى بيردا . وحين تحركت الخيول اخرج رأسه من العربة مرة أخرى ، وصاح بى : «وداعا ، يا صاحب السيادة ! يمكن ان نلتقى

يوما ما» . وقد التقينـــا بالفعل ، ولكن فى أيـــة ظروف ! ..

رحل بوغاتشوف . وبقيت وقتا طويلا اتأمل السهب الابيض الذى سارت عليـــه عربته . تفرق الناس . واختفى شفابرين . وعدت الى بيت القس . كان كل شىء قد أعد لسفرنـــا ، ولم أرد ان اتاخر اكثر . وضع متاعنا كله فى عربة الآمر القديمة . وشد الحوذيون الخيول سريعا . خرجت ماريا ايفانوفنا لتودع قبرى والديها اللذين دفنا وراء الكنيسة . اردت ان ارافقها ، الا أنها رجتنى ان اتركها وحدها . عادت بعد بضع دقائق تذرف الدموع الهادئة صامتـــة . وجيئ بالعربة . خرج الاب غراسم وزوجته الى مدخل البيت . جلسنا ثلاثة فى العربة : ماريا ايفانوفنـــا ، وبالاشا ، وأنا . وصعد سافيليتش الى جوار الحوذى . قالت زوجة القس الطيبة : «وداعا ، يا عزيزتى ماريا ايفانوفنـــا ! وداعا يا عزيزى بيتر اندرييفيتش ، سفرة ميمونة ، وعسى الله ان يهبكما السعادة !» وانطلقنا . لمحت شفابرين واقفـــا عند نافذة بيت الآمر ، وقد ارتسم على وجهه الغيظ العابس . لم أرد ان اظهر انتصارى على عدو مسحوق ، فحولت بصرى الى الجانب الآخر . وأخيرا خرجنا من بوابة القلعة ، مغادرين اياها الى الأبد .

الفصل الثالث عشر

الاعتقال

لا تحنق ، يا سيد ، فان واجبى
يقتضينى ان ارسلك الى السجن الساعة .
ــ تفضل فانا مستعد ، ولكننى آمل
ان تسمح لى بأن اشرح لك الأمر اولا .
كنياجنين *

جمعتنى المصادفة بفتاتى الحبيبة التى كنت حتى هذا الصباح قلقا عليها قلقا موجعا ، ولم أصدق نفسى ، وتصورت ان كل ما حصل لى كان حلما فارغا . كانت ماريا ايفانوفنا تنظر فى سهوم تارة الىّ ، وتارة الى الطريق ، وتبدو وكأنها لم تفق بعد على نفسها . لزمنا الصمت . كان قلبانا مجهدين جدا . وبعد زهاء ساعتين وجدنا انفسنا فى القلعة المجاورة دون ان ندرى ، وكانت هذه القلعة ايضا تحت سيطرة بوغاتشوف . استبدلنا الخيول هنا . ومن السرعة التى شدوا بها الخيول ، ومن الخدمة العجولة التى

---

* هذا الشعر من نظم بوشكين ولكنه نسبه الى كنياجنين . **(الناشر .)**

قدمها لنا القوزاقي الملتحي الذى نصبه بوغاتشوف آمرا ، وبفضل ثرثرة الحوذى الذى جلبنا الى هنا ادركت انهم استقبلونى كواحد من حاشية قيصرهم الدعى .

وواصلنا سيرنا . وأخذ الظلام يهبط . ورحنا نقترب من بلدة فيها ، حسب كلام الآمر الملتحي ، مفرزة قوية فى طريقها لمكافحة الدعى . اوقفنا الحراس . ورد الحوذى على سؤال «من القادم ؟» بصوت عال : «عراب القيصر مع عقيلته» . وفجأة احاطت بنا كوكبة من الفرسان تمطرنا بشتائم فظيعة . وقال لى ضابط صف خيالة ذو شارب : «انزل ، يا قريب ابليس ! فى انتظارك وعقيلتك استجواب ساخن !»

نزلت من العربة ، وطلبت ان يقودنى الى رئيسهم . كف الجنود عن شتائمهم حين رأونى ضابطا . قادنى ضابط الصف الى الرائد . ولم يتخلف سافيليتش عنى ، متمتما مع نفسه : «تلك هى عاقبة عراب القيصر ! نخرج من نار وندخل فى لهب ... يارب القدرة ! بماذا سينتهى كل هذا ؟» وكانت العربة تسير وراءنا على مهل .

بعد خمس دقائق وصلنا الى بيت صغير مضاء اضاءة باهرة . تركنى ضابط الصف تحت الحراسة ،

ودخل ليبلغ عنى . عاد على الفور معلنا ان صاحب المقام الرفيع لن يستطيع استقبالى ، وأنه أمر بوضعى فى السجن ، وارسال السيدة الى بيته .

صرخت بجنون :

ــ ما يعنى هذا ؟ هل فقد عقله حقا ؟

اجاب ضابط الصف :

ــ لا اعرف ، يا صاحب السيادة . ســوى ان صاحب المقام الرفيع أمر بوضع صاحب السيادة فى السجن ، وأمر بارسال صاحبة السيادة الى صاحب المقام الرفيع ، ذلك هو يا صاحب السيادة !

اندفعت الى مدخل البيت . لم يرد الحراس ان يوقفونى . فدخلت رأسا الى غرفة حيث كان حوالى ستة ضباط من الفرسان يلعبون الورق . وكان الرائد يدير اللعب . ويا لشدة دهشتى حين تفرســت به ، وعرفت أنه ايفــان ايفانوفيتش زورين الذى جعلنى أخسر فى حانة سيمبيرسك . صحت :

ــ أليس هذا حلما ؟ ايفـــان ايفانوفيتش ! أهذا انت ؟

ــ با ، با ، با ، بيتر اندرييفيتش ! ما اعجب الاقدار ! من أين جئت ؟ مرحبا ، يا اخ . الا تريد ان تلعب الورق ؟

ــ شكرا . الافضل ان تأمر لى بمسكن اقيـــم فيه .

ــ وما حاجتك الى مسكن ؟ انزل عندى .
ــ لا استطيع . لست وحدى .
ــ حسنا ، تعال انت ورفيقك .
ــ لست مع رفيق ... أنا مع ... سيدة .
ــ مع سيدة ؟ أين حصلت عليها ؟ آه ، يا أخ (وصفر زورين بشكل معبر جدا قهقه له الجميع . وارتبكت أنا) .

وتابع زورين كلامه :

ــ ليكن هذا . سأفرد لك مسكنا ... ولكن ذلك مؤسف ... كنا سنمرح مرحنا القديم ذاك ... هاى ! . . يا عسكرى ! لماذا لم تدخل عرابة بوغاتشوف الى هنا ، أم هى تعاند ؟ قل لها يجب الاّ تخاف . فان السيد رجل رائع ، لا يسيئ بشيء ، واعطها دفعة فى ظهرها .

قلت لزورين :

ــ ما هذا ؟ اية عرابة هى لبوغاتشوف ؟ انها ابنة الآمر الراحل ميرونوف . اخرجتها من الأسر ، وأنا الآن ارافقها الى ضيعة ابى ، حيث ستبقى .

ــ عجيب ! يعنى ان البلاغ الذى ابلغونى به الآن يخصك ؟ ارجوك ، ما يعنى هذا ؟

ــ ساخبرك بكل شيء ، فيما بعد . الآن ، بحق الرب ، هدئ الفتاة المسكينة التى افزعها فرسانك .

قام زورين بالاوامر اللازمة فى الحال . ثم نهض وخرج الى الشارع ليعتذر من ماريا ايفانوفنا على ســـوء التفاهم العرضى هذا ، وأمر ضابط الصف بأن يخصص لها أحسن مسكن فى البلدة . وبقيت اقضى الليلـــة عنده .

تناولنا العشاء ، وحين بقينا وحدنا ، رويت له مغامراتى . اصغى زورين الىّ باهتمام كبير . وعندما فرغت من كلامى ، هز رأســـه ، وقال : «كل ذلك حسن ، يا أخ ، ما عدا شيئا واحدا ، وهو أى شيطان وسوس لك لتتزوج ؟ أنا ضابط شريف ، ولا اريد ان اخدعك . صدقنى ان الزواج نزوة . وما حاجتك ان تنشغل بزوجـــة ، وتربى اولادا ؟ تخل عن ذلك . اسمع كلمتى ، واعتق نفسكَ من ابنـــة الآمر . وقد طهرت الطريق الى سيمبيرسك ، وهو مأمون . ارسلها غدا الى والديك ، وابق معى فى المفرزة . فلا حاجة لكَ الى العودة الى اورنبورغ . فانك ستقع مرة أخرى فى ايدى المتمردين ، واشـــك فى ان تتخلص منهم هذه المرة . وبهذه الطريقة يزول جنون الحب ، وتصحو الى نفسك ، ويعود كل شيء الى ما يرام» .

رغم اننى لم اكن موافقا معه كليـــا ، الا اننى شعرت بأن واجبى العسكرى كان يقتضى وجودى فى قوات الامبراطورة . عزمت على الأخذ بنصيحة زورين ،

فأرسل ماريا ايفانوفنا الى القرية ، وأبقى فى مفرزته .

جاء سافيليتش نيمينى فى خلع ملابسى . فابلغته بأن يكون فى اليوم التالى مستعدا للسفر مع ماريـــا ايفانوفنا . فأخذ يمانع : «ما هذا ، يا حضرة السيد ؟ كيف اتركك ؟ من الذى سيرعـــاك ؟ وماذا سيقول والداك ؟»

ولما كنت اعرف عناد مربى قررت ان اقنعه بلطف واخلاص . قلت له : «يا صديقـــى ارخيب سافيليتش ! لا ترفض ، واصنع معروفـــا لى . لن اكون بحاجة الى خادم هنا ، بينما سأقلق اذا سافرت ماريا ايفانوفنا بدونك . وانت اذ تخدمها تخدمنى ايضا ، لاننى قد عزمت عزما اكيدا على ان اتزوجها حالما تسمح الظروف» .

وهنا رفع سافيليتش ذراعيـــه بدهشـــة لا توصف . قال :

ـ تتزوج ! صبى يريـــد ان يتزوج ! ماذا سيقول والدك ، وماذا ستظن امك ؟

اجبته :

ـ سيوافقان ، سيوافقـــان بالتأكيد ، حين يعرفان ماريا ايفانوفنا . وأنا اعتمد عليك ايضا . فان ابى وامى يثقان بك ، وانك ستسعى لنا ، أليس كذلك ؟

تأثر العجوز ، واجابنى : «آه ، يا عزيزى بيتر اندرييفيتش ! رغم انك تتزوج مبكرا الا ان ماريا ايفانوفنا طيبة جدا حتى من الخطأ ان تفوت الفرصة . ليكن ما تريـــد ! سأوصل هـــذا الملاك السماوى ، وابلغ والديك كعبد بأن مثـــل هذه الخطيبـــة لا تحتاج الى مهر» .

شكرت سافيليتش ، وأويت لأنام فى غرفـــة واحدة مع زورين . كنت محتدا ومنفعلا فأخـــذت اثرثر . وتحدث زورين معى راغبا فى بادئ الأمر ، الا ان كلماته اخذت تقل وتتفكك شيئا فشيئـــا ، واخيرا بـــدلا من ان اتلقـــى جوابـــا على سؤال تلقيت منه شخيرا وصفيرا . سكتُّ ، وسرعان مـــا حذوت حذوه .

فى صباح اليوم التالى ذهبت الى ماريا ايفانوفنا . وعرضت عليها اقتراحاتى . فأقرت بصوابها ، ووافقتنى على الفور . وكان على مفرزة زورين ان تخرج من البلدة فى اليوم ذاته . ولم يكن ثمة وقت لأضيعه . تواد عت مع ماريا ايفانوفنا ، بعد ان سلمتها الى سافيليتش ، واعطيتها رسالة الى والدىّ . بكت ماريا ايفانوفنا ، وقالت بصـــوت خفيض : «مع السلامـــة ، يا بيتر اندرييفيتش ! هل سيكتب لنا اللقاء مرة أخرى ام لا . الله وحده يعلم بذلك ، ولكننى لن انساك طوال

حياتى ، وستبقى وحدك فى قلبى الى ان تحين منيتى » .
لم استطع ان اجيب بشىء . فقد كان الناس يحيطون بنا ، ولم ارد ان استسلم امامهم للعواطف التى كانت تعتمل فى صدرى . واخيرا رحلت . عدت الى زورين حزينا مستسلمـــا للصمت . اراد ان يسرى عنى ، وفكرت انا بتبديد حزنى ، فقضينا يوما صاخبا طليقا وفى المساء خرجنا فى المسيرة .

كان ذلك فى نهاية شبـــاط ، والشتاء المعوق للعمليات العسكرية فى سبيله الى الانتهاء ، وقد تهيأ جنرالاتنا الى عمل منسق . كان بوغاتشوف ما يزال عند مشارف اورنبورغ . وفى غضـــون ذلك كانت القوات القيصرية تلتقى فيما بينها وتطوق وكر الشر من جميع الجهات . اخذت القرى المتمردة تعود الى الطاعة بظهور قواتنا ، وكانت شراذم اللصوص تفر منا فى كل مكان ، وكان كـــل شىء ينبئ بخاتمـــة موفقة سريعة .

وبعد قليل استطاع الأمير غوليتسين ان يدحر بوغاتشوف عند قلعة تاتيشيفو ، ويشتت حشوده ، ويحرر اورنبورغ ، فكان بذلك قد وجه الى العصيان الضربة الاخيرة الحاسمة . كان زورين فى ذلك الحين قد جُرّد ضد عصابات المتمردين الباشكيريين الذين كانوا يتشتتون قبل ان تقع ابصارنا عليهم . وحبسنا الربيع

فى قرية تترية . فقد فاضت الانهار ، وانقطعت الطرق . وكنا فى مقامنا بلا عمل نجد السلوى فى التفكير بنهاية سريعة قريبة لهذه الحرب المضجرة التافهة مع قطاع طرق ومتوحشين .

الا ان بوغاتشوف لم يؤسر . فقط ظهر فى مصانع سيبيريا ، وأخذ يجمع هناك عصابات جديدة ، وعاد الى اعمال الشر . وانتشرت من جديد الشائعات عن نجاحاته . فسمعنا عن تخريب القلاع السيبيرية . وسرعان ما اقلق قادة الجيش نبأ استيلاء الدعى على قازان ، وزحفه على موسكو ، وكان هؤلاء يغفون متغافلين آملين باستنزاف قوى هذا العاصى المقيت . وصدر أمر الى زورين بعبور الفولغا بقواته * .

لا اريد ان اصف حملتنا ، ونهاية الحرب . واقول باختصار ان المأساة وصلت الى ذروتها . مررنا بقرى دمرها العصاة ، وانتزعوا من اهاليها المساكين ، طوعا او كراهية ، كل ما استطاعوا الحفاظ عليه . وتفككت الادارة فى كل مكان ، ولاذ اصحاب الاراضى فى الغابات . وعاثت عصابات اللصوص فى

---

* كان مخطط بوشكين الاول يقضى بأن يتبع ذلك «الفصل المحذوف» (المثبت الآن فى التذييل ص ص ٣٦٧ـ ٣٨٦) الا ان بوشكين حذفه فيما بعد ، وبقى فقط فى مسودة المخطوطة .

كل ناحية. وكان امراء بعض المفارز يعاقبون ويعفون حسب هواهم . وكانت حالة هذا الاقليم الواسع حيث تفشى الحريق مريعة . . . عسى الله الا يرينا عصيانا روسيا لا معنى له ، ولا رحمة فيه ! *

هرب بوغاتشوف يتعقبه ايفــان ايفانوفيتش ميخلسون . وبعد وقت قصير سمعنا بنبأ اندحاره الكلى . واخيرا تلقى زورين نبأ القبض على الدعى ، ومعه أمر بالتوقف . لقد انتهت الحرب . وصار من الممكن اخيرا ان اسافر الى والدىّ ! وامتلأت نفسى بنشوة الفرح حين فكرت فى اننى سأعانقهما ، وارى ماريا ايفانوفنا التى لم اسمع اى خبر عنها . وقفزت كالطفل . ضحك زورين وقال هازا كتفه : «لا ، لا محيص من وقوعك فى ورطة ! اذا تزوجــت كان فى زواجك الضياع الاكيد !»

وخلال ذلك تسممت غبطتى بشعور غريب . فقد وجدت نفسى من حيث لا أدرى افكر قلقا فى الشريــر الملطخ بدماء ضحايا كثيرة بريئة ، وفى الاعدام الذى ينتظره . فكرت مع نفسى بأسى : «اميليا ، يـــا

---

* ان اقوال بطل القصة هذه لا تمثل آراء بوشكين السياسية . انه لم يكن مناصرا للانتفاضة الفلاحية العفوية ، ولكنه لم يعتبرها «لا معنى لها» . (**الناشر** .)

اميليا ! * لماذا لم تطعن بحربة ، ولم تصب بقذيفة ؟ اذن لكان ذلك أحسن نَهاية يتفتق عنها فكرك ! » ما العمل ؟ كان التفكير فيه يرتبط فى نفسى ارتباطا لا ينفصل بالعفو الذى وهبه لى فى احدى اللحظات الفظيعة من حياته ، وبانقاذ خطيبتى من قبضة شفابرين المقيت .

اعطانى زورين اجازة . وكان يجب ان اجد نفسى بعد عدة ايام بين عائلتى مرة اخرى ، وأرى عزيزتى ماريا ايفانوفنا من جديد . . . وفجأة صعقنى نذير مفاجئ .

فى اليوم الذى حدد لسفرى ، وفى اللحظة التى تهيأت فيها للانطلاق دخل زورين علىّ مسكنى ممسكا بورقة ، وقد ران على وجهه قلق بالغ . وشعرت بوخز فى قلبى . وذعرت من شىء لا اعرف ما هو . اخرج زورين مرافقى الجندى ، وأعلن أن له مسألة معى . سألت قلقا : «ما هى ؟» اجاب : «خبر صغير غير سار» ، ــ وقدم لى الورقة قائلا ــ «اقرأ ما تلقيته الآن» . اخذت اقرؤها ، فاذا هى أمر سرى لكل امراء الوحدات باعتقالى ، اينما وجدت ، وارسالى فورا الى قازان تحت الحراسة للمثول امام لجنة التحقيق المختصة بقضية بوغاتشوف .

---

* صيغة تحبب لاسم اميليان بوغاتشوف . (**المترجم .**)

كادت الورقة تسقط من يدى . قال زورين :
«لا معدل عن ذلك ! فان واجبى يقتضينى اطاعة
الامر . يبدو ان الشائعات عن رحلاتك الودية مع
بوغاتشوف قد وصلت الى الحكومة على نحو ما . وآمل
الا تكون للقضية اية عواقب ، وأنك ستبرر سلوكك
امام اللجنة . لا تحزن وسافر» . كان ضميرى نقيا ،
ولم اخف المحاكمة ، الا ان فكرة تأجيل لحظة اللقاء
العذب ، ربما لعدة اشهر اخرى ، بثت الفزع فى
نفسى . اعدت العربة . وودعنى زورين بود . اجلسونى
فى العربة ، وجلس معى فارسان شاهرى السيف .
ومضيت فى الطريق العام .

الفصل الرابع عشر

المحاكمة

شائعات الناس
مثل موج البحر .
مثل

كنت واثقا من ان غيابى عن اورنبورغ دون اذن
هو جريرتى الوحيدة . وكنت قادرا بسهولة على
تبرير ذلك : فان ركوب الخيل لم يكن محظورا فى
يوم من الأيام ، بل وكان يشجع . وقد اتهم بسرعة

التهييج المفرطة ، لا بخرق النظام العسكرى . الا ان اتصالاتى الودية مع بوغاتشوف يمكن ان تثبت بعدد كبير من الشهود ، ولا بد ان تبدو مريبة جدا على اقل تقدير . فكرت طوال الطريق فى الاستجوابات التى فى انتظارى ، وهيأت فى ذهنى اجوبتى ، وقررت ان اعلن للمحكمة حقيقة الأمر ، معتبرا هذه الطريقة فى التبرير ابسط طريقة ، واكثر وثوقا فى الوقت ذاته .

وصلت الى قازان فرأيتها قد أقفرت ولاحت عليها آثار الحرائق . تكورت فى الشوارع اكوام من الفحم فى مكان البيوت ، وبرزت الجدران المسخمة بلا سقوف ولا نوافذ . ذلك الاثر الذى خلفه بوغاتشوف ! اخذونى الى قلعة بقيت سالمة وسط المدينة التى دمرتها النار . سلمنى الفارسان الى ضابط الحراسة . فطلب ان يستدعي الحداد . ووضعت الاصفاد فى رجلى ، وقفلت قفلا محكما . ثم ساروا بى الى السجن ، وتركونى وحيدا فى حجرة ضيقة مظلمة ليس فيها الا جدران عارية ونافذة صغيرة مشبكة بقضبان حديدية .

لم تبشرنى هذه البداية بأى خير . الا أننى لم افقد البشاشة ولا الأمل . ولجأت الى سلوى جميع المهانين ، وتذوقت لاول مرة حلاوة الصلاة التى جاءت من قلب نقى ، ولكن ممزق ، وغفوت رخيا غير مهتم بما سيحدث لى .

في اليوم التالى ايقظنى السجان ، معلنــــا اننى مطلوب فى اللجنة . قادنى جنديان عبر الفناء الى بيت الآمر ، وتوقفا فى الغرفة الامامية ، وتركانى ادخـــل وحدى الى الحجرات الداخلية .

دخلت قاعة فسيحة فرأيت رجلين يجلسان وراء منضدة مغطاة بالاوراق ، احدهما جنرال كهل صارم وبارد المظهر ، والثانى شاب برتبة نقيب فى الحرس ، فى نحو الثامنة والعشرين من العمر ، لطيف فى مظهره ، لبق وطليق فى معاملته . وعند النافذة جلس كاتـــب المحضر وراء منضدة خاصة ، والريشة وراء اذنه ، منكبا على الورقة ، متهيئا لتدوين افادتى . وبــــدأ الاستجواب . سئلت عن اسمـــــى ورتبتى ، وسأل الجنرال هل انا ابن اندريه بتروفيتش غرينيف ؟ ولما اجبته رد على جوابى بصرامة : «من المؤسف ان يكون لمثل ذاك الانسان المبجل ابن غير لائـــق مثلك ؟» اجبته بهدوء : مهما تكن التهم الموجهة ضدى فأنا آمل ان ابددها بشرح صريح للحقيقة . لم تعجبه لهجتى الواثقة ، فقال لى متجهما : «أنت ، يا اخ ، شاطر ، ولكن رأينا اشد منك شطارة !» .

عندئذ سألنى الشاب : بأية مناسبة وفى اى وقت دخلت فى خدمة بوغاتشوف . وما هى المهمات التى نفذتها له ؟

اجبت فى حنق بأننى كضابط وكنبيل ما كان من الممكن ان ادخل فى أية خدمة لبوغاتشوف ، ولا ان اتلقى منه أية مهمة .

فاعترض مستجوبى قائلا :

— وكيف اذن يرأف هذا الدعى بضابط ونبيل واحد ، بينما يفتك بجميع رفاقه بوحشية ؟ وكيف يمكن لهذا الضابط وهذا النبيل ان يمرح مع المتمردين ، ويقبل من رئيس الاشرار هدايا : معطفا ، وجوادا ونصف روبل ؟ كيف نشأت هذه الصداقة الغريبة ، وعلى اى اساس قامت ، اذا لم تكن على اساس الخيانة ، او على أقل تقدير ، على ضعف العزيمة المجرم الشائن ؟

شعرت باهانة شديدة من كلمات ضابط الحرس ، فبدأت دفاعى بحرارة . رويت كيف بدأ تعارفى ببوغاتشوف فى السهب ، اثناء العاصفة الثلجية ؛ وكيف عرفنى عند الاستيلاء على قلعة بيلوغورسك ، ورأف بى . وقلت : حقا اننى لم اخجل من قبول المعطف والجواد من الدعى ، ولكننى دافعت عن قلعة بيلوغورسك ضد الشرير حتى النهاية . واخيرا استشهدت بجنرالى الذى يمكن ان يشهد على حماسى اثناء حصار اورنبورغ التعيس .

تناول العجوز الصارم رسالة مفتوحة من الطاولة ، واخذ يقرؤها بصوت مسموع :

ـ «يشرفني ان ارد على سؤال سعادتكم بخصوص الملازم غرينيف ، المتهم بالاشتراك في الاضطرابات الحالية ، والذى دخل في علاقات مع الشرير ، لا تسمح بها الخدمة وتتعارض مع يمين الولاء ، فأوضح لكم ان الملازم غرينيف هذا كان في الخدمة في اورنبورغ من بداية تشرين الاول الماضي عام ١٧٧٣ حتى ٢٤ شباط من هذا العام ، وهو اليوم الذى ترك فيه المدينة ، ومنذ ذلك الحين لم يحضر الى وحدتى . وقد سمعت من الفارين انه كان في قرية بوغاتشوف ، وسافر معه الى قلعة بيلوغورسك التي كان يخدم فيها سابقا . اما بخصوص سلوكه ، فأنا استطيع ان . . .» وهنا قطع قراءته ، وقال لى بجهامة : «فماذا تقول الآن لتبرير نفسك ؟» اردت ان اتابع ما بدأته ، واشرح علاقتى بماريا ايفانوفنا في نفس الاخلاص الذى اظهرته في رواياتى السابقة . الا انني احسست فجأة بنفور قاهر . فقد خطر لى انني اذا ما سميتها فان اللجنة ستطلب حضورها للاستجواب ، وفزعت من فكرة اقحامها بين وشايات الاشرار الكريهة ، واستدعائها لمواجهتهم وجها لوجه ، وشلتني هذه الفكرة المفزعة حتى اخذت ارتبك واتلعثم في كلامى .

وكان القاضيان يبدوان ، كما خيل الىّ ، انهما يصغيان الى ردودى ببعض الرضى ، فلما رأيا ارتباكى عادا الى تحاملهما علىّ . وطلب ضابط الحرس ان اواجه المبلغ الرئيسى وجها لوجه . امر الجنرال باحضار **شرير الأمس** . التفت الى الباب بفضول حى ، منتظرا ظهور متهمى . وبعد بضع دقائق قرقعت سلاسل ، وفتح الباب ، ودخل . . . شفابرين . ذهلت لتغيره . فقد كان نحيلا شاحبا الى درجة مريعة ، وشعره الذى كان قبل حين اسود كالقطران قد ابيض تماما ، واسترسلت لحيته الطويلة خصلات . كرر تهمه بصوت ضعيف ، ولكنه جرىء . فأدعى بان بوغاتشوف ارسلنى الى اورنبورغ جاسوسا له ، فكنت اخرج كل يوم للمناوشات لأنقل معلومات مكتوبة عن كل ما كان يحدث فى المدينة ، واخيرا انتميت الى الدعى جهارا ، وتنقلت معه من قلعة الى أخرى ، ساعيا بكل وسيلة الى تحطيم رفاقه الذين خانوا معه لأحل محلهم ، واستفيد من الهبات التى يوزعها الدعى . اصغيت اليه صامتا . كنت راضيا من شىء واحد وهو ان هذا الجانى المقيت لم يتفوه باسم ماريا ايفانوفنا . فهل كان ذلك لأن عزة نفسه كانت تشقى لدى ذكر الفتاة التى رفضته مزدرية ، أم لأن قلبه كان يكمن

شرارة فى تلك العاطفة التى حملتنى أنا ايضـــا على الصمت . ومهما يكن من شىء فان اسم ابنة آمـــر بيلوغورسك لم يذكر امام اللجنة . وجعلنى ذلك اشد تصميما على ما عزمت عليه ، وعندما سألنى القاضيان بم استطيع دحض اقوال شفابرين ، اجبت بأننى باق على توضيحى الاول ، وأننى لا استطيع ان اقدم شيئا آخر لتبرير نفسى . أمر الجنرال باخراجنا . خرجنا سوية . نظرت الى شفابرين بهدوء ، ولكن لم اقل له كلمة . فضحك ضحكة هازئة حاقدة ، ورفع قيوده ، وحث خطاه وسبقنى . اعادونى الى السجن ، ومنذ ذلك الحين لم يستدعونى للاستجواب .

وما سأرويه للقارئ بعد الآن لم اشهده بنفسى بل سمعته كثيرا حتى نقشت ادق تفاصيله فى ذاكرتى ، بل ويبدو لى وكأننى كنت شاهدا غير مرئى فيه .

استقبل والداى ماريا ايفانوفنا بالفرح الصادق الذى امتاز به اناس الزمن القديم . ورأيا نعمة الهية تسنح لهما فى ايوائهما يتيمة مسكينة وشمولهـــا بعطفهما . وسرعان ما تعلقا بها عن اخلاص ، لأنـــه من المستحيل على المرء ان يعرفها ولا يحبها . ولم يعد حبى فى عينى والدىّ صبوة فارغة ، بينما كانت والدتى لا تود الا ان يتزوج ولدها بيتر ابنة الآمـــر الحبيبة .

اذهل نبأ اعتقالى عائلتى بأسرها . وقد حكت ماريا ايفانوفنا لوالدى قصة تعارفى الغريبة مع بوغاتشوف ، ببساطة كبيرة لم تشعر والدىّ بأى قلق على ، بل حملتهما مرارا على الضحك من اعماق قلب صاف . لم يرد ابى ان يصدق بأن من الممكن ان اتورط فى عصيان يهدف الى الاطاحة بالعرش ، والقضاء على فئة النبلاء . فاستجوب سافيليتش استجوابا دقيقا . لم يخف المربى ان السيد كان فى ضيافة بوغاتشوف ، وان الشرير احبه على اية حال ، الا انه اقسم على انه لم يسمع بخيانته قط . هدأ روع العجوزين ، واخذا ينتظران الاخبار السارة بنفاد صبر . وقلقت ماريا ايفانوفنا علىّ قلقا شديدا ، الا انها صمتت ، لما جبلت عليه من تواضع وحذر الى درجة عالية .

مضت عدة اسابيع . . . وفجأة يتلقى والدى رسالة من بطرسبورغ مرسلة من قريبنا الأمير «ب» . يكتب فيها عني ويعلن له بعد الديباجة المألوفة ، ان الشكوك بخصوص اشتراكى فى خطط العصاة قد ثبتت تماما مع الاسف ، وان الاعدام كان سينفذ فى ، لو لا ان الامبراطورة احتراما لخدمات ابى وشيخوخته قررت العطف على الابن المجرم ، وأمرت باستبدال الاعدام المشين بالنفى المؤبد الى اقليم ناء فى سيبيريا .

كادت هذه الصدمة المفاجئة ان تودى بأبى . فقد توازنه المعتاد ، وطفح حزنه (الذى كان حزنا اخرس فى العادة) ، ففاض بشكاوى مريرة . فكان يكرر خارجا عن اطواره : «كيف ! ابنى اشترك فى خطط بوغاتشوف ! يا آلهى العادل ، الى هذا الحد بلغ بى العمر ! الامبراطورة تنقذه من الاعدام ! وهل ذلك يخفف من بلواى ؟ ليس الاعدام مخيفا ، فان جدى الاكبر مات على منصة الاعدام مدافعا عما كان يعتبره مقدسا فى ضميره ، وعذب ابى مع فولنسكى وخروشوف * . اما ان ينكث نبيل بيمينه ، وينضم الى لصوص ، الى سفاكين ، الى عبيد آبقين ، فان ذلك عار وشنار لعشيرتنا كلها ! . .» ولم تجرؤ أمى التى أفزعها قنوطه على ان تبكى أمامه ، وحاولت ان تعيد اليه بشاشته متحدثة عن كذب الشائعات ، وعن تذبذب آراء الناس . ولم يجد ابى السلوى فى ذلك .

---

* **ارتيمى فولنسكى** ، وزير حكومة الامبراطورة آنا يوهانوفنا (١٧٣٠ـ١٧٤٠) ترأس المؤامرة ضد بيرون محسوب الامبراطورة وهو اشد المأجورين الاجانب كراهية فى روسيا .

اندريه خروشوف ، مستشار مصلحة الاسطول ، واحد المشتركين فى مؤامرة فولنسكى ، وقد اعدم معه . **(الناشر .)**

وكانت ماريا ايفانوفنا تتعذب اكثر من الجميع . كانت واثقة من انني كنت قادرا على تبرير نفسي لـو أردت ، فجعلها ذلك تحدس الحقيقة وتعتبر نفسها ملومة في بلواي . كانت تخفي دموعها وآلامها عـن الجميع ، دون ان تكف ، في الوقت ذاته ، عن التفكير في الوسائل التي تنقذني .

ذات مساء كان ابي جالسا على الاريكة يتصفح حولية البلاط ، الا ان فكره كان بعيدا ، فلم تترك القراءة فيه أثرها المألوف . وكان يصفر لحنا عسكريا قديما ، وكانت أمي تحيك قميصا من الصوف وهي صامتة والدموع تقطر على حياكتها بين الحين والآخر . وكانت ماريا ايفانوفنا تجلس هنا ايضا وراء تطريزها فاذا هي تعلن فجأة بأنها مضطرة الى السفـــــــر الى بطرسبورغ ، وهي ترجو مساعدتهما في الاعداد للسفر. اغتمت امي كثيرا وقالت لها : «ما حاجتك للسفر الى بطرسبورغ ؟ اتريدين ان تتركينـــــا أنت ايضا ؟» اجابت ماريا ايفانوفنا بأن مستقبلها كله متعلق على هذه الرحلة ، وأنها ذاهبة للبحث عن الحماية والعون بين ذوي النفوذ ، بوصفها ابنة رجل وقع ضحية في سبيل ولائه .

اطرق أبي برأسه ، فقد كانت ترهقه اية كلمة تذكره بجريمة ابنه الوهمية ، وتبدو له مثل تعنيف

واخز . قال لها بحسرة : «سافرى ، يا عزيزتى ! فنحن لا نريد ان نقف فى طريق سعادتك . عسى الله ان يكتب لك زوجا طيبا ، لا خائنـــــا مفضوحا» . ونهض ، وخرج من الغرفة .

بقيت ماريا ايفانوفنا وحدهـــــا مع أمى ، فأوضحت لها بعض آرائها . عانقتها أمى والدموع تنهمر من عينيها ، ودعت الله ان يتوج باليمن ما عزمت عليه . جهزت ماريا ايفانوفنا بما يلزمها من الثياب ، وبعد عدة أيام سافرت مع خادمتها المخلصة بالاشا ، وسافيليتش الأمين الذى كان ، وقد انفصل عنى لأسباب قاهرة ، يجد السلوان ، على أقل تقدير ، فى خدمة زوجتى المقبلة .

وصلت ماريا ايفانوفنا الى صوفيـــــا بسلام ، وعلمت من محطة البريد ان البلاط موجود فى مدينة تسارسكويه سيلو فى ذلك الوقت ، فقررت التوقف فيها . أفرد لها ركن مفصول بحاجز . ودخلت زوجة ناظر المحطة فى حديث معها على الفور . فاخبرتها بأنها ابنة اخ وقاد البلاط ، وكشفت لها عن جميع اسرار الحياة فى البلاط . فذكرت لها الساعة التى تستيقظ الامبراطورة فيها عادة ، ومتى تحتسى القهوة ، ومتى تتنزه ، وسمت لها رجال الحاشية الذين يكونون معها فى ذلك الوقت ، وما قالته على مائدتها بالأمس ، ومن

استقبلته فى المساء . وباختصار كان من الممكن ان يملأ حديث آنا فلاسيفنا هذه بضع صفحات من كتـــب التاريخ ، وان يكون ثمينا للاحفاد . أصغت ماريـــا ايفانوفنا لها باهتمام . وخرجت المرأتان الى الحديقة ، فحكت لها آنا فلاسيفنا تاريخ كل ممر معرش وكل قنطرة ، وبعد آن اخذتا حظهما من النزهة عادتا الى المحطة ، وقد رضيت احداهما عن الأخرى كثيرا .

فى اليوم التالى استيقظت ماريا ايفانوفنـــا فى الصباح الباكر ، ولبست ثيابها ، وانسلت بهدوء ألى الحديقة . كان الصباح رائعا ، والشمس تشرق على ذرى اشجار الزيتون المصفرة بانفاس الخريف الطريـــة . وكانت البحيرة الواسعة تلمع ساكنة الاديم ، والبجع المستيقظ يخرج بمهابة من تحت الاحراش التى غطت الشاطئ . سارت ماريا آيفانوفنا بالقرب من مرجة بديعة أقيم عليها قبل حين نصب تذكارى تكريمـــا لانتصارات الكونت بيتر الكسندروفيتش روميانتسيف * . وفجاة نبحت كلبة بيضاء من نسل انجليزى ، وركضت نحوها . ذعرت ماريا ايفانوفنا ، وتوقفت . فى تلك اللحظة صدر صوت نسائى عذب : «لا تخافى ، فانها

---

* من اكبر قادة روسيا العسكريين فى القرن الـ ١٨ .

(الناشر .)

لا تعض » . ورأت ماريا ايفانوفنا سيدة جالسة على مصطبة مقابل النصب التذكارى . جلست ماريـــــا ايفانوفنا على الطرف الثانى من المصطبة . نظـــــرت السيدة اليها متفرسة بها ، بينما القت ماريا ايفانوفنا من ناحيتهـــا عدة نظرات جانبيـــة على السيدة . واستطاعت ان تتفحصها من الرأس حتى القدم . كانت السيدة ترتدى ثوبا ابيض للصباح ، وقلنسوة ليلية ، وسترة . وكانت تبدو فى نحو الاربعين من العمر . وكان وجهها الممتلئ المتورد يشع مهابة ورصانة ، بينمـــا كانت لعينيها الزرقاوين وابتسامتها الخفيفة فتنة لا توصف . بادرت السيدة بقطع الصمت حين قالت :

ـ لست من هذه الناحية ، على ما يبدو .

ـ بالضبط . وصلت بالأمس فقط من الريف .

ـ هل وصلت مع والديك ؟

ـ لا ، بل وحدى .

ـ وحدك ! ولكنك ما زلت فتية .

ـ ليس لى أب ولا أم .

ـ لا بد أنك جئت تسعين فى أمر من الامور ؟

ـ بالضبط . جئت لأرفـــــع التماســـا الى الامبراطورة .

ـ انت يتيمة ، لعلك جئت تشتكين من ضيم واساءة ؟

ـ لا . بل جئت التمس عفوا لا رفع ضيم .

ـ هل تسمحين لى ان اسأل : من انت ؟

ـ أنا ابنة النقيب ميرونوف .

ـ النقيب ميرونوف ! أهو الذى كان آمرا لقلعة من قلاع اورنبورغ ؟

ـ تماما .

وبدا التأثر على السيدة . قالت بصوت أكثر رقة : «اعذرينى اذا تدخلت فى امورك ، ولكننى ازور البلاط احيانا ، فأشرحى لى التماسك ، لعلى استطيع مساعدتك» .

نهضت ماريا ايفانوفنا ، وشكرتها باحترام . وكان كل ما فى السيدة المجهولة يأسر قلبها دون ان تدرى ، ويوحى بالثقة . اخرجت ماريا ايفانوفنا من جيبها ورقة مطوية ، وقدمتها للسيدة المجهولة التى عرضت عليها حمايتها . فأخذت هذه تقرؤها فى سرها .

فى البداية لاح عليها الاهتمام والعطف وهى تقرأ ، الا ان وجهها تغير فجأة ، وكانت ماريا ايفانوفنا تتابع بعينيها كل حركاتها فأفزعها التعبير الصارم الذى ارتسم على وجهها ، الذى كان قبل لحظة لطيفا جدا ورائعا .

قالت السيدة ببرود :

ـ تطلبين العفو عن غرينيف ؟ لن تستطيع الامبراطورة ان تعفو عنه . فانه لم ينضم الى الدعى

عن جهل وسرعة تصديق ، بل لأنه عاطل خبيـــث لا خلاق له .

هتفت ماريا ايفانوفنا :

ــ هذا غير صحيح !

فاعترضت السيدة محتدة بكل كيانها :

ــ غير صحيح ؟

ــ غير صحيح ، قسما بالرب ! أنا اعرف كل شيء ، وسأرويه لك . انه من أجلى فقط تعرض لكل ما لقيه . واذا كان لم يبرر نفسه امام المحكمة فلأنه لم يرد ان يشركنى فى القضية لا غير .

واخذت تقص بحرارة كل ما يعرفه قارئ هذا الكتاب .

اصغت السيدة اليها بانتباه . وسألتها : «اين تقيمين ؟» وحين سمعت أنها تقيم عند آنا فلاسيفنا ، قالت مبتسمة : «آ ، اعرفها . وداعا ، ولا تخبرى احدا عن لقائنا . وآمل ألا يطيل انتظارك لجواب رسالتك» .

وبهذه الكلمة نهضت السيدة ، ودخلت فى ممر مسقوف . بينما عادت ماريا ايفانوفنا الى آنا فلاسيفنا يعمر قلبها أمل بهيج .

لامتها صاحبة البيت على خروجها مبكرا فى نزهة فى الخريف قد تضر ، على حد قولها ، بصحة فتاة فى مقتبل العمر . وجلبت السماور ، وما كادت تدخل فى

احاديثها الطويلة عن البلاط وأمامها قدح من الشاى ، حتى توقفت عربة من عربات البلاط عند مدخل بيتها . ودخل وصيف من وصفاء البلاط معلنـــا ان القيصرة تدعو اليها ابنة ميرونوف .

انذهلت آنـــا فلاسيفنا ، وراحت وجاءت ، وصاحت : «يا آلهى ! القيصرة تدعوك الى البلاط . فكيف عرفت بك ؟ وكيف ستمثلين ، يا عزيزتى ، امـــام الامبراطورة ؟ أظن أنك لا تعرفين مراسيم البلاط ... فهل على آن اذهب معك ؟ فقد اكون نافعة لك فى تنبيهك الى بعض الامور . وكيف ستذهبين فى ثياب السفر ؟ وهل سأرسل الى القابلة اطلب منهـــا ثوبها الاصفر ؟» اعلن الوصيف ان الامبراطورة تريد ان تحضر ماريا ايفانوفنا وحدها ، وفى الهيئـــة التى وجدت فيها . فقطع ذلك كل تدبير آخر . ركبت ماريا ايفانوفنا العربة ، ومضت الى البلاط ومعها نصائح آنا فلاسيفنا وتبريكاتها .

استشعرت ماريا ايفانوفنا ان مصيرنـــا منوط بهذه المقابلة ، فكان قلبها يخفق خفقانا شديدا تارة ، ويجمد تارة اخرى . وبعد بضع دقائق توقفت العربة عند القصر . ارتقت ماريا ايفانوفنا السلم مرتجفة . كانت الابواب تفتح امامهـــا على مصاريعها . مرت بصف كبير من الغرف الفاخرة الفارغة . وكان الوصيف

يدلها على الطريق . وآخيرا وصلت الى باب مغلق . اعلن لها الوصيف أنه سيبلغ الآن بقدومها ، وتركها وحدها .

ارعبها التصور بأنها سترى الامبراطورة وجهـــا لوجه ، فكانت لا تكاد تقف على قدميها . بعد دقيقة فتح الباب ، ودخلت الى غرفة زينة القيصرة .

كانت الامبراطورة تجلس الى زينتها . وكان بعض الحاشية يحيطون بها ، وقد فسحوا باحترام الطريق لماريا ايفانوفنا . التفتت القيصرة اليها فى حنان ، واذا بماريا ايفانوفنا تعرف فى شخصها تلك السيدة التى كاشفتها قصتها قبل دقائق . دعتها الامبراطورة اليها ، وقالت لها مبتسمة : «أنا سعيدة فى ان اكون عند عهدى لك ، واحقق رجاءك . ان قضيتك قد انتهت . فقد اقتنعت ببراءة خطيبك . وهذه رسالة احمليها بنفسك الى حميك المقبل» .

تناولت ماريا ايفانوفنا الرسالة بيد راعشة ، وانفجرت باكية ، وارتمت على قدمى الامبراطورة ، فرفعتها الامبراطورة وقبلتها . وتحدثت اليها قائلة : «أنا اعرف أنك لست بالغنية . الا أننى مدينة الى ابنة الآمر ميرونوف . فلا تقلقى على المستقبل وسأتعهد بتوفير حياة رغيدة لك» .

داعبت القيصرة اليتيمة المسكينة ثم اذنـــــت بانصرافها . غادرت ماريا ايفانوفنا فى نفس عربة البلاط التى جاءت فيها . كانت آنا فلاسيفنا تنتظـــر عودتها بفارغ صبر . وحين رأتها امطرتها بأسئلة ردت عليها ماريا ايفانوفنا بما عنّ لها . ورغم ان آنـــا فلاسيفنا لم تكن راضية عن ذهولها ، الا أنها عزت ذلك الى خجل فتيات الريف ، وتعذرت لها بطيبـــة نفس . وفى نفس اليوم سافرت الى الضيعة دون ان تمتع بصرها ببطرسبورغ .

الى هنا تنتهـــــى مذكرات بيتر اندرييفيتش غرينيف . وتذكر روايات العائلة ان الابن قد اطلق سراحه فى نهاية ١٧٧٤ بموجب عفو خاص ، وانه شهد اعدام بوغاتشوف الذى عرفه من بين الحشود ، وهز له رأسه ، نفس الرأس الذى عرض للشعب بعد دقيقة مقطوعا مدمى . وبعد ذلك بفترة قصيرة تزوج بيتر اندرييفيتش ماريا ايفانوفنا ، واحفادهما ينعمون الآن فى مقاطعة سيمبيرسك . وعلى بعد ثلاثين فرسخا من ن ... تقع قرية يملكها عشرة من اصحاب الاطيان. وفى احد البيوت العائدة لأصحاب هذه القرية تعرض الرسالة التى كتبتها الامبراطورة يكاترينا الثانية بخط يدها ، وقد وضعت فى اطار تحت الزجاج . وهـــى الرسالة التى ارسلت الى والـــــد بيتر اندرييفيتش

غرينيف تعلن براءة ابنه ، وتمتدح نباهة وطيبة ابنة الآمر ميرونوف . وقد حصلنـــــا على مخطوطة بيتر اندرييفيتش من احد احفاده الذى عرف باهتمامنا بآثار الفترة التى وصفها جده . فقررنا ، بعد موافقة اقاربه ، نشرها مستقلة ، بعد ان صدرنا كل فصل بما يناسب من الاشعار والامثال ، وأبحنا لنفسنا تغيير اسماء بعض الاشخاص .

الناشر

١٩ تشرين الاول ١٨٣٦ .

تذييل

الفصل المحذوف *

اقتربنا من شاطئ الفولغا ،ودخل فوجنا فى قرية س ، وتوقف ليقضى الليلة فيها . ابلغنى عمدة القرية بأن جميع القرى فى تلك الضفة متمردة ، وان عصابات بوغاتشوف تطوف فى كل مكان . اقلقنى النبأ شديد القلق . كان علينا ان نعبر النهر فى صباح اليوم التالى .

---

* لم يدخل هذا الفصل فى الصيغة النهائية « ابنة الآمر » (لاسباب تتعلق بالرقابة ، على ما يبدو) ، وبقى فى مسودة المخطوطة ، حيث سمى « الفصل المحذوف » . وفى هذا النص يطلق على غرينيف اسم بولانين ، وعلى زورين اسم غرينيف (راجع الفصل الثالث عشر) .

واستولى عليّ الضيق . كانت ضيعة ابى تقع على بعد ثلاثين فرسخا فى ذلك الجانب من النهر . سألت عن امكانية ايجاد قارب لعبور النهر . كان جميع الفلاحين يصطادون الاسماك ، والقوارب كثيرة . ذهبت الى غرينيف ، واخبرته بمقصدى . قال لى : «خذ حذرك ، فان الخروج لوحدك خطر على اية حال . انتظر حتى الصباح . فسنعبر اولا ، وسنرسلك لزيارة والديك مع ٥٠ فارسا للحيطة» .

اصررت على ما اريد . وأعد القارب . وصعدت اليه مع اثنين من المجدفين . دفع المجدفان القارب ، وضربا في المجاديف .

كانت السماء صافية ، والقمر متألقا . وكان الطقس هادئا ، ونهر الفولغا يجرى سبطا رخيا . وكان القارب يتمايل تمايلا خفيفا منزلقا على الامواج الداكنة . غرقت فى احلام الخيال . ومضت نصف ساعة . وكنا قد وصلنا الى منتصف النهر ... وفجأة اخذ المجدفان يتهامسان فيما بينهما . سألت وقد افقت من احلامى : «ما هو ؟» اجاب المجدفان وهما ينظران فى ناحية واحدة : «لا نعرف ، الله يعلم» . ونظرت عيناى فى نفس الاتجاه ، فرأيت فى الظلام شيئا يعوم منحدرا فى الفولغا . اقترب هذا الشيء الغامض . امرت المجدفين بأن يتوقفا ، وينتظراه . اختفى القمر وراء سحابة .

وازداد الشبح العائم غموضا . وكان الآن قريبا منى ، الا انني لم استطع ان اتبينه بعد . قال المجدفان : «ما عساه ان يكون . ليس هو بالشراع ، ولا بالصارية ...» وفجأة خرج القمر من وراء السحابة ، وكشف عن منظر مريع . كانت تتقدم منا مشنقة منصوبة على رمث ، وقد تدلت من عارضتها ثلاث جثث . استحوذ على فضول مرضى . فأردت ان ارى وجوه المشنوقين .

أمسك المجدفان الرمث بكلاب بناء على أمرى . فارتطم قاربى بالمشنقة العائمة . قفزت خارجا اليها ، ووجدت نفسى بين القوائم الفظيعة . اضاء القمر المنير وجوه التعساء المشوهة . كان أحدهم عجوزا من التشوفاش ، والآخر فلاحا روسيا شابا قويا ضخما فى نحو العشرين من العمر . الا اننى نظرت الى الثالث وصعقت بقوة ، وافلتت منى صيحة اشفاق . لقد كان ذاك فانكا ، صاحبى المسكين فانكا ، الذى انضم لحماقته الى بوغاتشوف . وقد سمّرت فوق الثلاثة لوحة سوداء كتب عليها بحروف بيضاء كبيرة : «لصوص ومتمردون» . كان المجدفان ينظران بخلو بال ، وهما ينتظرانى ، ممسكين بالكلاب . عدت الى قاربى . وعام الرمث منحدرا فى مجرى النهر . وظلت المشنقة تلوح طويلا فى الظلام . واختفت اخيرا ، ووصل قاربى الى

الشاطيء العالى ، الشديد الانحدار . . .

دفعت للمجدفين بسخاء . دلنى أحدهم على عمدة القرية ، الذى يقيم عند المعبر . ودخلنا بيت العمدة سوية . وحين سمع العمدة بأننى أريد خيولا استقبلنى استقبالا شديد الفظاظة ، الا ان دليلى اسر له بعض الكلمات بهدوء ، فاذا بفظاظته تتحــــول الى حفاوة متلهفة . وفى دقيقة واحدة اعدت عربة «الترويكا» . فركبتها ، وأمرت بالتوجه الى قريتنا .

اندفعت العربة فى الطريق الواســـــع عبر قرى نائمة . وكنت اخشى شيئا واحـــــدا : ان أوقف فى الطريق . فاذا كان ماشاهدته ليلا على الفولغا دليلا على وجود متمردين ، فقد كان ايضا دليلا على قوة التدابير المضادة المتخذة من قبل الحكومة . وتحسبا لكــل طارئ كان فى جيبـــــى الاذن الـــــذى اعطاه بوغاتشوف ، وأمر العقيد غرينيف . الا اننى لم التق باحد ، ومع طلوع الصباح رأيـــــت النهر ، وحرش اشجار التنوب الذى تقع قريتنـــــا وراءه . ساط الحوذى الخيول ، وبعد ربع ساعة دخلت القرية .

كانت دار ابى تقع فى الطرف الآخر من القرية ، انطلقت الخيول بكامل اعنتها . وفجأة اخذ الحوذى يشد اعنتها فى وسط الشارع . سألته نافذ الصبر : «ما هذا ؟» اجاب الحوذى وهو يوقف خيولــــــه

الجامحة بجهد : «توجد نقطة حراسة ، يا سيد» . وبالفعل نظرت فأبصرت حاجزا وحارسا مسلحـــا بهراوة . اقترب الحارس الفلاح منى ، وخلع قبعته ، وطلب شهادة الهوية . سألته : «ما معنى هذا ؟ لم وضع حاجز هنا ؟ ومن تحرس انت ؟» اجاب هارشـــا جسمه : «نحن ، يا عزيزى ، فى تمرد» .

سألته باضطراب :

ـ وأين اسيادكم ؟

كرر الفلاح قائلا :

ـ أين اسيادنا ؟ اسيادنا فى عنبر الغلال .

ـ كيف فى عنبر الغلال ؟

ـ نعم ، وضعهم اندريوشكا من الادارة المحلية فى قيود خشبية ويريد ان يرسلهم الى مولانا القيصر .

ـ أوه ، يا رب ! ارفع الحاجز ، ايها الاحمق . لماذا تنتظر ؟

تباطأ الحارس . قفزت من العربة ، وضربتـــه (وارجو المعذرة) على اذنه ، وازحت الحاجز بنفسى . نظر الفلاح الى بذهول بليد . ركبت العربة ثانية ، وأمرت الحوذى بالتوجه الى دار السيد . كان عنبر الغلال يقع فى الحوش . وعند بابه المغلقـــة وقف فلاحان بهراوتين ايضا . توقفت العربة أمامهما تماما . قفزت ، واندفعت نحوهما ، وقلت : «افتحا الباب !»

كان منظرى مرعبا ، على ما يبدو . وعلى اية حال هرب الاثنان ، بعد ان ألقيا هراوتيهمـــــا . حاولت كسر القفل ، وتحطيم الباب ، الا ان الباب كان من شجر البلوط ، والقفل الضخم لا يكسر . وفى تلك اللحظة خرج فلاح شاب حسن القوام من جنـــــاح الخدم ، وسألنى بعجرفة : كيف تجاسرت على العربـــــدة ؟ صرخت به : «أين اندريوشكا من الادارة المحلية ؟ ادعه الىّ » .

اجاب متخوصرا بأنفة :

ــ انا اندريه افانسيفيتش ، ولست اندريوشكا بالنسبة لك . ماذا تريد ؟» وبدلا من الرد عليـــــه امسكته من تلابيبه ، وسحبته الى باب العنبر ، وأمرت ان يفتحه . عاند فى البدء ، الا ان العقاب **الابوى** أثر فيه ايضا . اخرج مفتاحا ، وفتح العنبر . ركضت عبر العتبة ورأيت فى ركن مظلم يتسلل اليه ضوء خافت من خلال شق ضيق فى السقف ابى وامى . كانت ايديهما موثوقة ، وارجلهما مصفدة بقيود من خشب . اندفعت اعانقهما ، غير قادر على ان انطق بكلمة واحدة . نظر كلاهما الىّ بذهول ، فان السنوات الثلاث التى قضيتها فى العسكرية قد غيرتنى كثيرا ، حتى أنهما لم يستطيعا ان يتعرفا علىّ . تأوهت أمى ، وانهمرت دموعها .

وفجأة سمعت صوتا اليفـــا حبيبا : « يا بيتر اندرييفيتش ! هذا انت ! » ووقفت مصعوقا . . . نظرت فى الزاوية الأخرى ماريا ايفانوفنا ، مشدودة الوثاق ايضا .

كان ابى يحدق بى صامتا ، لا تواتيه الجرأة على تصديق ما يرى . وعلى وجهه لمعان الفرح . اسرعت فى تقطيع حبال وثاقهم بسيفى .

قال أبى ، وهو يضمنى الى قلبه :

ــ اهلا ، اهلا ، بيتر ! حمدا لله على اننـــا انتظرناك . . .

وقالت امى :

ــ بيتر ، يا ولدى ! لقد ساقك الرب الى هنا ! هل انت فى صحة ؟

اسرعت لأخرجهم من المحبس ، الا اننى القيت الباب مغلقا من جديد ، حين تقدمت منه . صرخت : « اندريوشكا ، افتح ! »

اجاب من وراء الباب : « ابدا . انحبس انـت ايضا . وسنعلمك ما تعنى العربدة وجر موظفى القيصر من تلابيبهم ! »

اخذت اعاين العنبر ، باحثا عن وسيلة للانسلال .

قال لى ابى :

ــ لا تتعب نفسك . لست من اولئك الملاكين الذين يدخلون ويخرجون من عنابرهم منسلين مــن الجحور كاللصوص .

وغرقت أمي في قنوط بعد لحظة مـــن الفرح بظهوري ، وقد رأت ان القدر قد ساقني لأقاسم كـل العائلة هلاكها . الا انني كنت اكثر اطمئنانا في وجودي معهما ومع ماريا ايفانوفنـــــا . وكان معي سيفــي ومسدسان ، وكنت استطيع ان اصمد للحصار . فقد كان يجب ان يصل غرينيف في المساء ، ويحررنا . ابلغـت ذلـــك كله لوالدي ، واستطعت ان اهدئ والدتي . فعادا يستسلمان كليا لفرحة اللقاء . قال لي ابي :

ــ يا بيتر ، في الماضي كنت شيطانا كبيرا فكم كنت غاضبا عليك . ولكن دع الماضي للماضي . آمل ان تكون قد عدلت من سلوكك ، وتخلصت مـــن نزواتك . أنا اعرف أنك خدمت ، كما ينبغي لضابط شريف ان يخدم . شكرا ، فقد سرّيـــت عيني ، في شيخوختي . ولو اصبحت مدينا لك بالنجاة فان مسرة حياتي ستتضاعف .

قبلت يده دامع العينين ، ونظرت الى ماريـــا ايفانوفنا التي غمرها الفرح بحضوري ، حتى بدت في منتهى السعادة والاطمئنان .

قرب الظهر سمعنا ضجة غير اعتيادية وصيحات . قال ابى : « ما معنى هذا ؟ هل وصل عقيدك ؟ » اجبت : « غير ممكن . لن يكون هنا قبل حلول المساء » . واشتدت الضجة . ودق ناقوس الخطر . وعدا خيالة فى الحوش . وفى تلك اللحظة اندس رأس سافيليتش الاشيب فى ثغرة فى الحائط ، وقال مربّيَ المسكين بصوت متشك : « اندريه بتروفيتش ، افدوتيا فاسيليفنا ، يا عزيزى بيتر اندرييفيتش ، عزيزتى ماريا ايفانوفنا ، مصيبة ! دخل الاشرار القرية . وهل تعرف ، يا بيتر اندرييفيتش ، من كان على رأسهم ؟ شفابرين ، الكسى ايفانوفيتش ، لعنة الله عليه ! » رفعت ماريا ايفانوفنا ذراعيها ، حين سمعت بالأسم الكريه ، ووقفت بلا حراك .

قلت لسافيليتش :

ـ اسمع . ارسل احد الناس على حصان الى المعبر ليستقبل فوج الفرسان ، واطلب ان يبلغ العقيد بالخطر الذى يحدق بنا .

ـ ولكن من ارسل ، يا سيد ؟ جميع الصبيان يتمردون ، والخيول كلها قد أخذت ! يا للمصيبة ! هاهم قد دخلوا الحوش ، وسيصلون الى العنبر .

فى تلك اللحظة صدرت بعض الاصوات وراء الباب . أشرت الى امى والى ماريا ايفانوفنا فى صمت

ان تبتعدا فى ركن من الاركان ، وجردت سيفى ، واستندت الى الحائط قرب الباب مباشرة . اخذ ابى المسدسين ، ورد زناديهما ، ووقف الى جانبى . قلقل القفل ، وفتح الباب ، وظهر رأس موظف الادارة المحلية . هويت بالسيف عليه . فسقط ، وسد المدخل بجسمه . وفى تلك اللحظة اطلق ابى المسدس فى فتحة الباب . تراكض الحشد الذى كان يحاصرنا مرسلا الشتائم . جررت الجريح عبر العتبة ، واغلقت الباب بالمزلاج الداخلى . غص الحوش بالمسلحين ، وقد عرفت شفابرين من بينهم .

قلت للمرأتين :

ـ لا تخافا . هناك أمل . وانت يا ابتى ، لا تطلق النار بعد الآن . لنحرص على الذخيرة الاخيرة .

كانت والدتى تصلى للرب ، وماريا ايفانوفنا واقفة بالقرب منها ، منتظرة حكم القدر بهدوء ملائكى . صدرت من وراء الباب تهديدات ، وسباب ولعنات . بقيت فى مكانى ، متهيئا لطعن أول متجاسر . وفجأة صمت الاشرار . سمعت صوت شفابرين ينادينى باسمى .

ـ أنا هنا ، فماذا تريد ؟

ـ استسلم ، يا بولانين ، فان المقاومة لا تجديك نفعا . اشفق على والديك العجوزين . انت لن تنقذ هما بعنادك . ساريكم .

ـ حاول ، ايها الخائن !

ـ لا انوى الخوض بالتوافه ، ولا اهدر دم رجالى . سآمر بحرق العنبر ، وعند ذاك سأعرف ماذا ستفعل ، يا دون كيشوت من بيلوغورسك . الآن حان وقت الغداء . عنـــدك الآن فراغ للتفكير . الى اللقاء ، يا ماريا ايفانوفنا ، لن اعتذر لـــك ، لا أظنك ضجرة فى الجلوس فى الظلام مع فارس احلامك .

وانصرف شفابرين تاركا الحرس عند العنبر . لزمنا الصمت . وامتد الصمت . كان كل واحد منا يفكر مع نفسه ، دون ان يجرؤ على الافضـــــاء بافكاره للآخرين . تصورت لنفسى كل ما سيحدث لــــو استسلمنا الى شفابرين الحاقد . أنا لم اكن اهتـــم بنفسى تقريبا . واعترف بأننى لم افزع لمصير والدىّ قدر فزعى على مصير ماريا ايفانوفنا . كنت اعرف ان الفلاحين والخدم كانوا يحترمون امى الى حـــد العبادة ، كما ان ابى كان محبوبا ايضا ، رغم صرامته ، لأنه كان عادلا وعارفا بالاحتياجات الحقيقية لرعاياه. كان عصيانهم تضليلا وسكرة عابرة ، وليس اعلانا عن استيائهم . فالرأفة فى هذه الحال محتملة . ولكـــن ماريا ايفانوفنا ؟ اى مصير أعد لها ذلك الرجل العابث المعدوم الضمير . لم اجرؤ على التوقف على هذه الفكرة

المريعة ، وكنت مستعدا (غفرانك يا رب) الى ان اقتلها قبل ان أراها ثانية فى قبضة عدو فظ .

مضت ساعة أخرى تقريبا . وترددت فى القرية اغانى السكارى . وحسدهم حراسنا ، وافرغوا نقمتهم علينا شتائم ووعيدا بالتعذيب والموت . وانتظرنا نتيجة تهديدات شفابرين . واخيرا حدثت ضجـــة كبيرة فى الحوش ، وسمعنا صوت شفابريـــن مرة اخرى .

ـ هل انتهيتم الى شىء ؟ هل ستستسلمون لى طائعين ؟

لم يجبه أحد . انتظر شفابرين برهة ، ثم أمر بجلب القش . وبعد بضع دقائق شبت نار ، واضاءت العنبر المظلم ، وبدأ الدخان يتسلل عبر الفتحات عند العتبة . دنت ماريا ايفانوفنا منى ، وامسكت يدى ، وقالت بخفوت :

ـ كفى ، يا بيتر اندرييفيتش ! لا يجوز ان تقتل نفسك ووالديك من أجلى . دعنى اخرج من هنا . سيطيعنى شفابرين .

صرخت بغضب :

ـ مستحيل . أتعرفين ماذا ينتظرك ؟

اجابت هادئة :

ـ لن اتحمل العار . ولكن قد أنقذ الرجـــل الذى انقذنى ، والعائلة التى تعهدت يتمى البائس بتلك

الرعاية . وداعا ، يا اندريه بتروفيتش . وداعا ، يا افدوتيا فاسيليفنا . لقد كنتما لى اكثر من محسنين . باركانى . واعذرنى ، انت ايضا ، يا بيتر اندرييفيتش . . . كن على ثقة بأننى . . . اننى ـ وهنا انفجرت باكية . وغطت وجهها بيديها . . . استبد بى الجنون . اجهشت أمى باكية . وقال والدى :

ـ كفى هراء ، يا ماريا ايفانوفنا . من يترك وحدك الى اللصوص ؟ اجلسى هنا واصمتى . اذا متنا ، فلنمت سوية . اسمعوا ، ماذا يقولون ايضا ؟

صاح شفابرين :

ـ هل تستسلمون ؟ ستحرقون بعد خمس دقائق .

رد ابى عليه بصوت صلب :

ـ لن نستسلم ، ايها الشرير .

وشعت من وجهه المغطى بالتجاعيد حيوية مذهلة ، وبرقت عيناه ببريق الوعيد من تحت حاجبيه الاشيبين . وتحول الىّ ، وقال :

ـ آن الاوان .

فتح الباب . فاندفعت النار ، ونشبت بالروافد المبطنة بصوفة جافة . اطلق ابى النار من المسدس ، وتخطى العتمة الملتهبة ، صارخا : «الجميع ورائى» .

امسكت يد أمي ويد ماريا ايفانوفنا ، واخرجتهما سريعا الى الهواء . كان شفابرين متمددا عند العتبة وقد جرحته يد ابى الواهنة . كان حشد اللصوص قد تفرق مأخوذا بخروجنا المفاجىء ، الا انه ما لبث ان تشجع ، وبدأ يطوقنا . استطعت ان اوجه بعض الضربات الأخرى ، الا ان آجرة قذفت باحكام اصابت صدرى . سقطت وفقدت وعى لحظات . ولما افقت رأيت شفابرين جالسا على العشب المدمى ، وأمامه كل افراد عائلتى . كان بعض الناس يسندنى من ابطى . وقد احدق بنا حشد من الفلاحين والقوزاق والباشكيريين . كان شفابرين ممتقعا بشكل رهيب ، يضغط على جنبه الجريح بيد واحدة ، ويعكس وجهه العذاب والغل . رفع رأسه ببطء ، ونظر الىّ ، ونطق بصوت ضعيف غير مفهوم :

ـ اشنقوه ... والجميع .. ما عداها ...

وفى الحال احاط الاشرار بنا وجرونا الى البوابة صارخين . ولكنهم تركونا فجأة ، وتفرقوا متراكضين . فقد دخل غرينيف ووراءه كوكبة من الفرسان شاهرى السيوف .

اخذ المتمردون يتشتتون فى كل الجهات . وراح الفرسان يطاردونهم ، يفتكون ببعضهم ، ويأسرون آخرين . قفز غرينيف من على جواده ، وانحنى لأبى

وأمى ، وصافحنى . ثم قال لنـــا : «جئت فى الوقت المناسب . ها ! وهذه خطيبتك» . أحمرت ماريـــا ايفانوفنا حتى اذنيها . تقدم ابى منه ، وشكره بلهجة هادئة ولكنها متأثرة . وعانقته أمى ، ودعته بالملاك المنقذ . وقال له أبى : «تكرموا بقبول ضيافتنا» . وقاده الى بيتنا .

توقف غرينيف حين مر بشفابرين ، ونظر اليه وســـأل : «من هذا الجريح» فأجاب أبى بشىء من الأنفة الكاشفة عن محارب قديم : «انه الرئيس نفسه ، شيخ العصابة . اعان الله يدى الضعيفة لتعاقب هذا الشرير ، وتنتقم منه لدم ولدى المهدور» .

قلت لغرينيف :

ـ انه شفابرين .

ـ شفابرين ! سعيد جدا . يا فرســـان ! خذوه ! وقولوا لطبيبنا ان يضمد جرحه ، ويحرص عليه حرصه على حدقة عينيه . ينبغى ان يرســـل شفابرين حتما الى لجنة قازان السرية . انه احـــد المجرمين الرئيسيين ، ولا بد ان تكون شهادته مهمة .

نظر شفابرين نظرة تعبة ولم يعبر وجهه الا عن الألم الجسدى . حمله الفرسان على معطف .

دخلنا غرف الدار . نظرت حولى تتملكنى الرعشة وأنا اتذكر سنوات صباى . لم يتغير شىء فى الدار

وكان كل شيء في مكانه . لم يسمح شفابرين بنهبه ، محافظا وهو في درك سفالته على نفوره الغريزي من الطمع المفضوح . وظهر الخدم في الغرفة الامامية . ولم يكونوا قد اشتركوا في التمرد ، فسروا بنجاتنا بقلوب صادقة . وكان سافيليتش يتهلل بشرا . وينبغي ان اذكر ان سافيليتش ركض الى مربط الخيول اثناء الهرج الذي اثاره هجوم اللصوص ، وكان حصـــان شفابرين هناك ، فأسرجه ، واخرجه بهدوء ، واغتنم الفوضى السائدة فتوجه الى المعبر دون ان يلحظ . وقد التقى بالفوج الذي كان يستريح بعـــد ان عبر الفولغا الى هذه الضفة . ولما عرف غرينيف منه ان الخطر يحدق بنا . أمر بشد السروج على الخيول ، والتوجه الينا بعدو سريع ، وقد وصل ، والحمد لله ، في الوقت المناسب .

اصر غرينيف على ان يعلق رأس موظف الادارة المحلية على عمود قرب الحانة خلال بضع ساعات .

عاد الفرســان من مطاردتهم آسرين معهم عدة اشخاص ، حبسوهم في نفس العنبر الذي صمدنا فيه للحصار المشهود .

تفرق كل واحد منا الى غرفته . وكان العجوزان بحاجة الى راحة . وارتميت انا على سريري ، وقد امضيت البارحـــة ساهرا ، وغرقت في نوم عميق . وخرج غرينيف ليصدر اوامره .

وفى المساء اجتمعنا حول السماور فى غرفة الاستقبال متحدثين بمرح عن الخطر الذى زال . صبت ماريا ايفانوفنا الشاى . جلست الى جانبها منشغلا بها وحدها . تبين ان والدىّ ينظران بعطف الى امارات الحنان فى علاقتنا . وما يزال ذلك المساء عالقا فى ذاكرتى حتى الآن . كنت سعيدا ، فى منتهى السعادة . وهل فى حياة الانسان البائسة الكثير من مثل هذه اللحظات ؟

وفى اليوم التالى اخبروا والدى بأن الفلاحين جاءوا الى الحوش معلنين الطاعة . خرج أبى الى مدخل الدار ليقابلهم . وعند ظهوره اخذ الفلاحون يركعون على ركبهم . قال لهم :

ـ يا حمقى ، ما الذى جعلكم تتمردون ؟

ردوا فى صوت واحد :

ـ مذنبون ، يا سيد .

ـ مذنبون ! يعبثون ثم يأتون مستغفرين . سأعفو عنكم فرحة بما منّ الله علىّ بلقائى بابنى بيتر اندرييفيتش . حسنا ، من كفّر عن سيئاته سلم من حد السيف . مذنبون ! طبعا انتم مذنبون . الله اعطانا طقسا حسنا كان ينبغى ان يحصد العشب فيه . فماذا فعلتم خلال الايام الثلاثة ، ايها الحمقى ؟ يا عمدة ارسل الجميع الى حصد العشب ، واحرص ،

أيها الشيطان الاصهب ، على ان يكون العشب مكوما قبل حلول عيد يوحنا . انصرفوا .

انحنى الفلاحون ، ومضوا الى عملهم وكأن شيئا لم يحصل .

ظهر ان جرح شفابرين غير قاتل . فارسل الى قازان تحت الحراسة . رأيتهم من النافذة يضعونه فى العربة . وقد التقت نظراتنا ، فأطرق برأسه ، بينما اسرعت فى الابتعـــاد عن النافذة : خشيت ان أظهر تشمتى بعدو مذلول تعيس .

كان على غرينيف ان يواصل السير . عزمت على ان اتابعه ، رغم رغبتى فى البقاء بضعـــة ايام أخرى بين عائلتى . فى عشيـــة الرحيل ذهبت الى والدىّ ، وركعت على قدميهما ، على عادة ذلك العصر ، طالبا منهما مباركة زواجى بماريا ايفانوفنـــا . انهضنى شيخاى ، واعلنا عن موافقتهما بدموع الفرح . جئت بماريا ايفانوفنا اليهما ، وهى شاحبـــة ترتجف . فباركانا ... وأنا لا اريد ان اصف ما شعرت بـــه آنئذ . فمن كان فى وضعى سيفهمنى دون حاجة الى وصف ، ومن لم يكن فلا يسعنى الا الاشفاق عليه ، ونصحـــه بأن يعشق ، ما دام الاوان لم يفت ، وان يحظى بمباركة والديه .

استعد الفوج فى اليوم التـــالى للسير . توادع غرينيف مع عائلتى . وكنا جميعـــا على ثقـــة بان

العمليات العسكرية ستنتهى عاجلا ، وكنت آمل بأن اكون زوجا بعد شهر . قبلتنى ماريا ايفانوفنا امام الجميع ، وهى تودعنى . امتطيت صهوة جـــوادى . وسار سافيليتش ورائى مرة أخرى . وتحرك الفوج .

ظللت وقتا طويلا انظر من بعيد الى بيتى الريفى الذى اهجره مرة أخرى . وانتابتنى هواجس كئيبة . وكأن شخصا يهمس لى بأن الغيب يضمر لى مصائب أخرى . كان قلبى يتوجس عاصفة جديدة .

لا اريد ان اصف مسيرتنا ، ونهاية الحرب ضد بوغاتشوف . لقد مررنا خلال قرى خربها رجـــال بوغاتشوف وانتزعنا ، طوعا او كراهية ، من اهاليها البائسين كل ما بقى لهم بعد نهب اللصوص .

كان هؤلاء لا يعرفون من يطيعون . فان الادارة لم تبق فى اى مكان . واختبـــأ اصحاب الاراضى فى الغابات . وعاثت عصابات اللصوص فى كل ناحية . وكان رؤســـاء بعض الكتائب المرسلـــة لمطاردة بوغاتشوف الذى توجه فى فراره الى آسترخان فى ذلك الحين يعاقبون ، على هواهم ، المذنبين والابرياء على حد سواء ... وتردت الى درجة مريعة حالة الاقليم الذى تفشى الحريق فى ارجائه . عسى الله الا يرينـــا عصيانا روسيا لا معنى له ، ولا رحمة فيه . ان الذين يدبرون مختلف الانقلابات عندنا اما انهم شبان لا

يعرفون شعبنا ، او أناس قساة القلوب لا يهتمون البتة بخسارة رؤوسهم او رؤوس الآخرين .

هرب بوغاتشوف يطارده ايفـــان ايفانوفيتش ميخلسون . وبعد وقت قصير علمنا باندحاره التام . واخيرا تلقى غرينيف من قائده نبأ القبض على الدعى ، ومعه أمر بالتوقف . وسنحت لى الفرصة اخيرا للسفر الى قريتى . كنت فى غبطـــة شديدة ، الا ان شعورا غريبا عكر غبطتى .

كلمة دار النشر الختامية

شاعر روسيا العظيم

كتب غوغل الكاتب الروسى الواقعى العظيم ، وصديق بوشكين ومعاصره : «عندما يذكر اسم بوشكين تتألق فى الذهن الفكرة عن شاعر روسى على نطاق الامة كلها ... إن بوشكين ظاهرة فذة ، ولربما ، الظاهرة الوحيدة للنفسية الروسية . وفيه تجلت الطبيعة الروسية ، والروح الروسية ، واللغة الروسية ، والخلق الروسى فى تلك الدرجة من النقاء والجمال المصفى التى ينعكس فيها المنظر الطبيعى على عدسة بصرية بارزة» .

وُلِد الكسندر بوشكين فى موسكو فى الحد الفاصل بين قرنين ، فى ٢٦ أيار (٢ حزيران) ١٧٩٩ . وكان

ابوه ينحدر من اسرة نبيلة عريقة كانت غنية فى وقت من الاوقات . وكانت أمه حفيدة ابرام غنيبال الأمير الحبشى الذى اختطفه الاتراك ، وارسلوه هدية الى القيصر الروسى بطرس الأول .

كان بوشكين يفخر بجد امه الذى كان قائداً مشهوراً فى عهد بطرس ، ووصفه فى روايته التاريخية «زنجى بطرس الاكبر» .

عاصر بوشكين فى حياته القصيرة احداثا تاريخية هائلة . فانطبع فى ذاكرة الشاعر الى الأبد المد الوطنى الذى اثارته الحرب الوطنية لعام ١٨١٢ ، واندحار قوات نابليون ، وعودة المنتصرين الظافرة الى ارض الوطن .

شهدت بداية العشرينيات من القرن التاسع عشر نهوضا فى حركة التحرر الوطنى فى اوروبا الغربية (الثورة فى نابولى ، والانتفاضة فى اسبانيا ، والنضال ضد السيطرة التركية فى اليونان) . كما احتدم الوضع السياسى فى روسيا ايضا . فأسست الجميعات السياسية السرية ، التى كانت تستهدف القضاء على نظام الرق ، والاطاحة بالحكم القيصرى المطلق . فأصبح بوشكين الشاب الشاعر المعبر عن النزعات المتحررة لشبيبة النبلاء المتقدمة .

واشتهرت بشكل خاص اشعار الشاعر السياسية والمقطوعات الهجائية المناهضة للتحكم والطغيان ،

والمدافعة عن حقوق الشعب المداسة (القصيدة الغنائية «الحرية» والقصيدتان «القريـــة» و«الى تشآدايف» وغيرها) . وقد قال القيصر الكسندر الاول باستياء ان «بوشكين اغرق روسيا بالاشعار المثيرة التي تحفظهـا الشبيبة كلها عن ظهر قلب . ينبغي ان يُنفى بوشكين الى سبيريا» .

ولم يتحقق هذا التهديد ، آلا ان بوشكين نفى من بطرسبورغ الى طرف روسيا الجنوبى ، بحجة نَقل ادارى في الوظيفة .

كانت سنوات النفى الى الجنوب فترة من العمل الابداعى الشديد ، والتأملات العميقة ، فترة التفتـــح العظيم لعبقرية بوشكين الشعرية .

في عام ١٨٢٠ يفرغ الشاعر من أول عمل ابداعى كبير له ، وهو قصيدة «روسلان ولودميلا» . وقـــد اهدى الشـــاعر الشهير فاسيلى جوكوفسكى معـــاصر بوشكين الاقدم ، صورته الى بوشكين ، وعليها الاهداء المشهور : «الى التلميذ الغالب من المعلم المغلوب» .

في بداية العشرينيـــات تظهر قصائـد بوشكين الرومانسية الجنوبية : «اسير القفقاس» (١٨٢٢) ، و«نافـــورة باختشى سراى» (١٨٢٣) ، و«الغجر» (١٨٢٤) .

وتمضى الحكومة القيصرية فى ملاحقة الشاعر الحر الابى ومطاردته ، فتنفيه فى خريف ١٨٢٤ الى قرية نائية فى ولاية بسكوف تحت رقابة البوليس .

عاش الشاعر فى ضيعة ابيه ـ قرية ميخائيلوفسكويه ـ حياة منعزلة ملأها بالقراءة والابداع . وقد لامس الشاعر فى هذه القرية حياة الفلاحين الاقنان عن كثب ، وتطور وقوى اهتمامه بالابداع الشعبى . فأخذ يدوّن اغانى شعبية ، ويستمع الى حكايات مربيته ارينا روديونوفنا ، فيكتب الى اخيه باعجاب : «ما أكثر ما فى هذه الحكايات من سحر ! ان كل واحدة منها قصيدة شعر» .

ويكتب الشاعر على اساس مواضيع الحكايات التى دونها ، حكاياته الشعرية الرائعة التى استطاع فيها ان يقترب من روح الشعر الشعبى وطبيعته .

يتوجه بوشكين الى ماضى روسيا التاريخى ساعياً إلى خلق نموذج للدراما الشعبية . فنراه يبعث فى تراجيديته «بوريس غدونوف» عهدا من أحفل العهود الدرامية فى التاريخ الروسى ـ وهو نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر .

فى هذه التراجيديا عرضت مشكلة العلاقة بين القيصر والشعب بكثير من الحدة . وهى مشبعة بالرفض لطغيان الحكم المطلق .

وتراجيديا «بوريس غدونوف» أول نموذج في الادب العالمي كله للتراجيديا الاجتماعية-التاريخية الاصيلة، وفيها لا يتصارع الافراد فقط، بل وتتقرر «مصائر الشعب».

في ١٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٢٥ قامت في بطرسبورغ انتفاضة الديسمبريين - اعضاء الجمعيات السياسية السرية.

وقد تألم بوشكين كثيرا من فشل الانتفاضة، ومن الفجيعة بأحسن ابناء روسيا وأكثرهم تقدمية، فقد كان مع الديسمبريين المنكسرين بكل روحه وافكاره.

ان تنكيل الحكومة القيصرية بالديسمبريين قد هزّ بوشكين بفظاظته، فكتب: «الذين شُنِقوا مضوا، ولكن المريع ان يرسل الى الاشغال الشاقة ١٢٠ من الاصدقاء والاخوان والرفاق».

يعود بوشكين الى موسكو في خريف ١٨٢٦، فيواصل العمل في مواضيع مستمدة من التاريخ الروسي. فيكتب في عام ١٨٢٨ قصيدته الوطنية الملحمية «بولتافا». وفيها يتغنى الشاعر بعبقرية بطرس الأول كقائد عسكري ورجل دولة (وهو الرجل العظيم الذي أعاد تكوين روسيا) ويظهر كيف دافع الشعب الروسي عن استقلال وطنه في المعارك الضارية ضد قوات ملك السويد كارل الثاني عشر.

وترتبط فى نقاط كثيرة بالمشكلة التى تعالجها «بولتافا» قصيدةُ بوشكين الأخيرة الأكثر نضجا من الناحية الفكرية والفنية ، وهى قصيدة «الفارس النحاسى» (١٨٣٣) .

فى عام ١٨٣٠ تم اعظم عمل ادبى ، لبوشكين ، هو روايته الشعرية «يفغينى اونيغين» . وقد عمل الشاعر فى هذا الأثر أكثر من ثمانية اعوام . وقد سمى الناقد الديموقراطى الروسى العظيم بيلينسكى رواية بوشكين «بموسوعة الحياة الروسية» .

كانت شهرة بوشكين بين معاصريه قد تعدت الحدود . وقويت شعبيته بما كان لشخصيته من جاذبية ونبوغ كلى ، ولا سيما ما انعكس فى شعره الغنائى بكمال وبهاء . وقد انعكس فى شعر بوشكين الغنائى شغفه بالحرية ، ومشاعره الوطنية ، وايمانه بمستقبل وطنه ، وآراؤه فى الفن ، والشعر ، وتصوره الصداقة والحب .

فى عام ١٨٣١ حدث فى حياة بوشكين حادث هام ، فقد تزوج بالشابة ناتاليا غونتشاروفا وهى من اجمل حسناوات موسكو . وقد رحل بوشكين قبيل الزواج الى بولدينو ، ضيعة ابيه الصغيرة ، ليدبر شؤونه . وهناك أبدع الشاعر فى خريف بولدينو الشهير من عام ١٨٣٠ نفائس ادبه الدراماتي : «التراجيديات الصغيرة» ودراماه الاسطورية «عروسة الماء» ،

وقصيدته « بيت فى كولومنا » ، وأول عمل نثرى كبير له : « قصص بيلكين » .

فى « قصص بيلكين » ظهرت النزعات الديموقراطية لابداع بوشكين ظهورا لامعا . وقد ثمن النقاد والقراء « سحر البساطة العارية » وايجاز بوشكين الناثر وفنه البيانى . وأعلن الكاتب الروسى العظيم ليون تولستوى بصراحة : « ... ان احسن ما لدى بوشكين هو نثره . وعلى الكاتب ان يدرس هذه الذخيرة دون انقطاع ... فما اروع « قصص بيلكين » ! أما « ملكة البستونى » فانها رائعته العصماء » .

والحق ان قصة « ملكة البستونى » التى كتبها بوشكين فى عام ١٨٣٣ تعتبر نموذجا للقصة القصيرة من حيث دقة بنائها ، وجاذبية حبكتها ، ومهارة كتابتها . وقد صوّر فى شخصية هيرمان ، الرجل الذى له مظهر نابليون وروح مفيستوفيليس ، نموذج « لبطل » جديد ـ مفترس نفعى .

فى الثلاثينيات يعمل بوشكين فى روايته الاجتماعية الكبيرة « دوبروفسكى » التى لم تظهر الا فى عام ١٨٤١ ، اى بعد مصرع الكاتب التراجيدى . وقد وضعت فى اساس موضوع رواية « دوبروفسكى » حقيقة واقعية من حياة نبيل ليس بالغنى هو جار لملاك ميسور الحال استولى على ارضه ، وأخرجه من ضيعته .

وبطل رواية بوشكين ــ النبيل الشـــاب فلاديمير دوبروفسكي ــ يناوئ العنف والاجحاف . ومغامراتــه المذهلة ، وحبه النبيل الرفيع لابنة المسيئ اليه ــ ماشا ترويكوروفا ــ معروضة على خلفية من حيــاة الملاكين واخلاقيات ذلك العهد .

الا ان نثر بوشكين يصل الى ذروة الفن العليا فى آخر عمل كبير من اعماله النثرية ، وهو قصة « ابنة الآمر » (١٨٣٦) ، التى تعتبر نموذجا للعمل الادبى التاريخى الواقعى حقا . وقد رسم بوشكين فى قصة « ابنة الآمر » صورة ساطعة لانتفاضة فلاحية عفوية ، وخلق شخصية قائد الفلاحين ايميليان بوغاتشوف .

كتب بيلينسكى فى تقييم قصة بوشكين هذه ان « « ابنة الآمر » شيء يضاهى « يفغينى اونيغين » فى النثر . والشاعر يصور فيها اخلاقيات المجتمع الروسى فى عهد القيصرة يكاترينا الثانية . والكثير من الصـــور معجزة الكمال فى صدقها وحقيقة محتواها وبراعة تكوينها » .

انقضـــــت سنـــوات بوشكين الاخيرة فى ظروف عسيرة ، فى حالة توتر متزايد فى علاقاته مع القيصر ، وعداء للشاعر من جانب الاوساط ذات النفوذ مـــن ارستقراطية بطرسبورغ المرتبطة بالبلاط .

قضت المبارزة الفاجعة مع المهـــاجر الفرنسى دانتيس على حياة الشاعر العظيم فى اوج ازدهار موهبته اللامعة .

واصيب بوشكين في هذه المبارزة بجرح بليغ اودى بحياته في ٢٩ كانون الأول (١٠ شباط) ١٨٣٧ . وقد هزّ موت الشاعر المبكر روسيا كلها . وعبّر ميخائيل ليرمونتوف عن مصاب الشعب وحنقه في قصيدته «موت شاعر» ، وسرعان ما عوقب هذا الشاعر بالنفي جزاء على قصيدته .

يعبر الشاعر الروسى الشهير تيوتتشيف عن الحب الذى يكنه الشعب كله لبوشكين ، وعن الاعجاب بعبقريته فيقول مجيدا :

لن ينساك قلب روسيا ،
مثل حبه الاول .

وفى ايامنا تحققت نبوءة الشاعر فى قوله :

سيطوف ذكرتى فى ارجاء روسيا العظيمة
ويلهج باسمى كل مخلوق بلغته ...

تصدر مؤلفات بوشكين فى ملايين عديدة من النسخ لا فى اللغة الروسية وحدها ، بل ومترجمة الى جميع اللغات القومية لشعوب الاتحاد السوفييتى ، وهى ذائعة فى العالم اجمع .

ان المبدعات الفنية الخالدة التى خلقها هذا الشاعر الروسى العظيم قد اغنت الانسانية كلها .

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ٢١

موسكو ــ الاتحاد السوفييتي

سلسلة «مؤلفات كلاسيكيي الادب الروسي»

Серия «Классики русской литературы»

غوغول . قصص

٢٤٠ صفحة . حجم ١١×١٧ سم . تجليـــد .

جاكيت .

دخل الكاتب الروسي العظيم غوغول الذى عاش فى القرن التاسع عشر دنيا الادب كأديب بارز فور نشر قصصه الأولى . واصبحت القصة الشكل الادبى المفضل لدى الكاتب طيلة حياتـــه . وقـــد اخترنا فى هذه المجموعة من قصص غوغول ما يتيح للقارئ العربى فرصة التعرف على ابداع هذا النابغة العظيم . وهذه القصص هى قصة «سوق سوروجينتسي» بما فيها من فكاهة وطرب و«ليلة مايو» الشاعرية ، و«ليلة قبل الميلاد» الماكرة الساخرة ، وكذلك «المعطف» و«الانف» و«العربـــة» من مجموعـــة «قصص بطرسبورغ» التى تجعل من غوغول مبدع الاعمـــال الواقعية الباهـــرة عن حياة موظفى روسيا التـــى عاصرها .

ليرمونتوف . بطل من هذا الزمان (رواية) .

على من اطلق الشاعر والكاتب الروسى العظيم والروح المتمرد ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤ـ١٨٤١) نعت بطل الزمان ؟

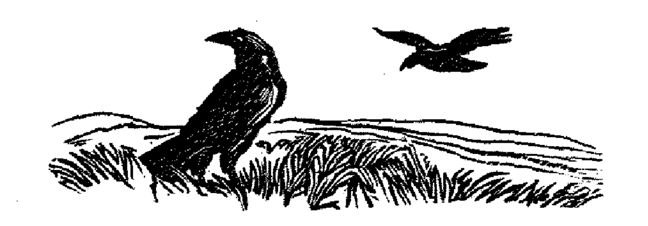
ان بطله بيتشورين هو الضابط فى الجيش القفقاسى . وهو شاب وسيم غنى ذو ثقافة رائعة ولكنه يعيش بلا هدف ولا امان . وهو يطل علينا من صفحات الكتاب فى وحدة كئيبة مملة ، لا يعرف طعم فرحة الصداقة ولا سعادة الحب ، بالرغم من ان الحب كان «يبحث» عنه بالذات منذ الوهلة الاولى . ان المصير المأساوى لهذا الانسان هو ثمرة عصر عصيب قضى على اجمل سنوات العمر لدى كثير من مواطنى روسيا العظام آنذاك .

والطبعة الحالية من كتاب «بطل من هذا الزمان» مزودة بتعليق وضعه اراكلى اندرونيكوف الاخصائى الكبير فى ميدان الدراسات السوفييتية لنتاج ليرمونتوف .

تجليد . غلاف ورقى . قياس ١١×١٧ سم . عدد الصفحات ١٧٦ .

ان الكسندر بوشكين مؤسس واب الادب الروسى العظيم ، الفنان ، الذى يعترف العالـــم اجمع بعبقريته الفذة ، هو اكثر الشعراء شعبية وحبا ومكانة فى بلاد السوفييتات العظيمـــــــة بقومياتها المتعددة .

أ . تفاردوفسكى



تعرض دار التقدم (موسكو) لقرائها نفائس صغيرة لمبدعى الكلمة العظام . وستتضمن سلسلة «اعلام الادب الروسى» روايات صغيرة ، وقصصا ، ونماذج من الادب الدرامى ، واشعارا واقاصيص . وتصدر الكتب فى ترتيب فنى واحد ومريح فى القراءة . وتنشر فى الغلاف الخارجى صور لرسوم بالحفر لفنانين ورسامين مشهورين . وفى كل كتاب صورة لمؤلفه .

والدار فى نشرها لهذه السلسلة تمضى فى تعريفها للقراء بابداع أكبر الكتاب الروس فى الماضى .

دار التقدم

موسكو

